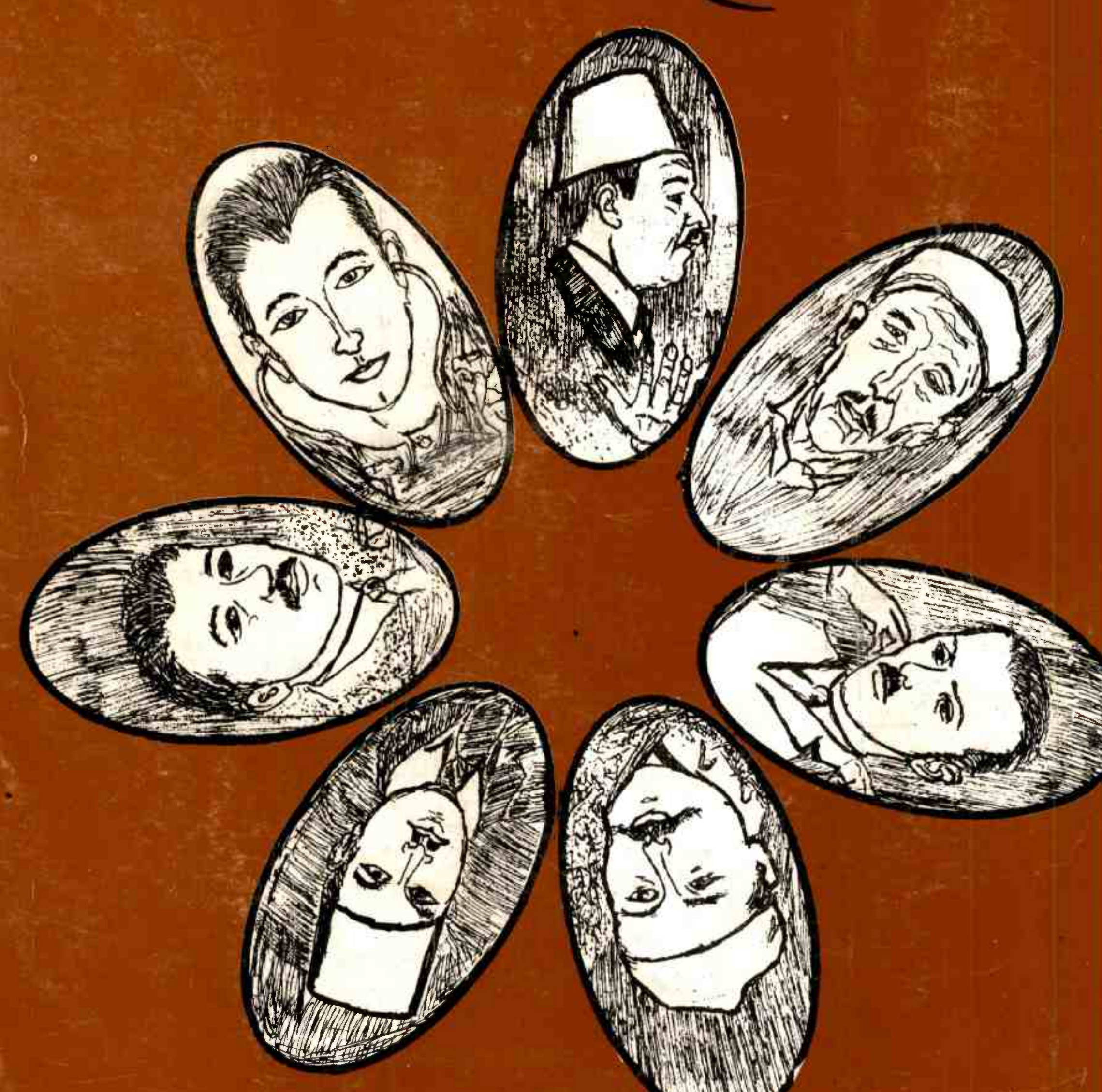
علي مصطفى المصراتي

نماذج في الظل



على مصطفى المصراتي

نماذج في الظل

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
اللجنة الشعبية العامة للإعلام
الإدارة العامة للثقافة والإرشاد القومي

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الطبعة الثانية
1993م

خالد علي بورفيج

بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

الى أحمد الشحاتي، وعلي الجابرية

الى هذه النماذج التي ضمتها هذه الصفحات

اقدم هذا الكتاب هدية قبل أن يوغلوا في وادي

النسيان، قبل أن يطوينا الظل بجناحه الكبير،

اليوم .. تذكرة .. وتذكاراً، هدية من كاتب عرفهم

اليوم - اقدم وساماً من ورق

علي مصطفى المصراتي

طرابلس ١٨ اغسطس ١٩٧٨م

طـرقـة :

لماذا هذا !؟
أو.. هذا ماذا..

حتى عنوان المقدمة لا نود أن نسرد المسردات
ونلوك المجترات ، ولنحاول أن نجعلها من الطرقات طرقة ، وكل انتباه ،
أو مدعاة التفات وانتباه طرقة ، في ساحة البيان ، والتبيان ،
أو على الخشب والرخام والجلد والأوتار ،
الكلمة طرقة
الأشارة طرقة ،
النقرة على البندير طرقة ،
لمسة الوتر المشدود طرقة ،
لمس الجرس ولو كهربائياً لأحداث لعلعة ، وبعبعة ،
أو بغبغة أو حشرجة صوتية طرقة ،
فرقعة أصابع الراقصة في حلبتها الفنية طرقة ،

وهبدة القبقاب الخشبي في قدم الراقص الأسبانى مع الأيماءة والهمهمـة طرقـة .

خبطة الانتباه قبل رفع الستار يوم أن كان للمسرح ستار .. طرقة .

ضربة القاضى بمطرقته الخشبية في منصة القضاء .. في بدء الجلسة.. إشارة وطرقـة .

علامة أنتباه ، او إشارة أدراك ..

ومقدمة الكتب من هنا . وهناك بالمضامين والمحتويات هى للقارىء ، والقارئة .. طرقة .

أوهى مجمل ما يفصل أوهى توضيح مجمل ...

ما يحوى الكتاب ؟

وهناك مقدمات كاطباق فتح الشهية

وطبق فتح الشهية لايكون مكدسا .. الا عند أصحاب التخمات ، (أو فاقد ى ذوق الموائد وأصحاب النهم الطعامى)

بين دفتى هذا الكتاب نماذج وأنماط لأنواع من الشخصيات منهم حملة أقلام ، وشعراء . . وفنانون ، ومناضلون حملة سلاح فرسان جاهدوا ..

أنواع من النماذج والأنماط ..

حملة أقلام لكن لم تكتنفهم هالات وتهاويل ، وحملة سلاح في سبيل الواجب المقدس .. لكن لم تكن حولهم شنة . ولاطنة ..

فنانون ذابوا ولم تصاحبهم في حياتهم مبالغات ولارنة ،

منهم الشاعر الذى لم ينشر أحد منهم ديوانه ، ولم يشاهد ديوانه مطبوعاً .. كما كان يحلم ..

وحلم الشعراء ـــ الذوقى ، أو الفني ، أن يروا دواوينهم مطبوعة ولو مكدسة في مخازن الناشرين الجشعين ، أصحاب شعر فصيح ، يقـــرأ ويروى ، ويسمع ، شعر هامس ، ولامز ، وغامز ولاكز ، وصارخ

أحياناً . وهناك من له شعر دارج متدرج ، طار بجناحه في أفقه ودائرته ... أسلوب من الدارج يوم أن كان الشعب أدبياً وفنياً يتنفس برئة العامة ، ويلهج بلهجة العوام .. شعراً .. ونغماً .. وأداءً ،

ومن النماذج الطموح الجموح الذى وقف به طموحه عند صخرات ومعوقات ، ولعل أصدق ما يمثله ، أو يتثمل به ،

أصدق مطابقة وموافقة بيت ، وهو من شعر أبى الحسن بن بلال في وترياته . وأناته ،

سرى فرسى في سيره ولو انه

خلي من الأوزار سار ولم يرس

سعى سعي طماح لأ بعد غاية

فكانت له دار المقام طرابلس

ولعل بعضهم في دخيلتهم ، أو غير دخيلتهم يرجع البيت مستشهداً متمثلا .. ثملا من آلامه ، من شواهد المرويات ، كما استشهد به قبلا منذ آماد وحقب غابرات بلديه الاديب احمد البهلول

يحسبه الجاهل مالم يعلما شيخا على كرسيه معمما

غاصت أقدام في الوحل ، ولكن نفوسهم طابت ولم تستطين

في هذه الصفحات انماط وانواع .. نماذج . من نسيج وفتيل هذا البلد .

هل تذكر .. ؟

وكيف تذكر — ومن الأعنات ، أو الاجحاف ان نطالبك بالتذكر وانت قبلا لم تلتق بهم .. بل لم تقرأ لهم أو حتى .. لم تسمع بهم ، الذنب ليس ذنبك ، ولاحتى ذنبهم وحدهم ،

بل التقصير والقصور من المجتمع ..
آه .. من كلمة مجتمع .. اليس المجتمع هو الناس ..؟!

المناخ .. وآخ .. – بالألف ممددة .. ممطوطة .

فهل العقوق يكون من الأهل والجيران والأصحاب والأخدان ؟

أما أنت ياجيلا جئت بعد أجيالهم .. فلاملامة ولاعتابة .

لانميمة ولا إغتيابه .

انما الذنب من قدر ولم يعمل في ساحة الفن والأدب من عرف وجحد .

أومن ذلك النوع .. الذى لايعمل ويؤذيه أن يعمل الغير ورحم الله استاذنا الدكتور طه حسين صاحب هذه العبارة المأثورة .. سمعناها من فمه ،

وقرأناها في أحدى إهداءاته الساخرة اللاذعة .. الجادة ،

ونعيد السؤال إزاء هذه النماذج والأنماط

من المسئول .. المجتمع في ازدرائه .. او أزورواره عن أنماطه المعطاءة . ؟

قد يكون .. بل كائن .. من كينونات البشر ..

أنت لم ترهم .. بل تأكيداً لم تسمع بهم .. أو بأكثريتهم ..

فبعض النماذج كان أيام الحرب العالمية الثانية أو قبلها ..

بل منهم من طواه الزمن قبل ولادة القارىء والقارئة وقبل ثغائه وقطع سرته .!!

ومنهم من عرفته – أنا الكاتب .. عندما كان النموذج قرب الثمانين لحقت عليه في آخر شوطه ..

هذه الأخلاط والأنماط لماذا نكتب عنهم وبهذه الصورة نحشرهم في هذه الساحه والمساحة ؟

من المجاهد الفارس.. والمقرىء .. المرتل، والشاعر المغمور ، والبوهيمى المتصعلك... الى العالم الأديب والأنسان المهذب الى القبضى والأمي الذى يمضى بصعوبة

لماذا نكتب عنهم ..؟ ماالفائدة والعائدة من التحبير والتسطير وإحياء الموات .. بعد الفوات آت .. آت !؟

وقد يكون الجواب سؤالا ..

والسؤال عكسي طردى .

لماذا لانكتب عنهم :؟

ومن صيغة التساؤلية يبرز جواب.. أو تجد بين أصابعك أو شفتيك — اذا سألت ، وسللت ، خيط الجواب ورأسه أوبُنيته وأُسّه ،

ولعل فيهم.. واحدا أو اثنين — سمعت به ..أوبهما ولكن من المؤكد لم تكتمل الصورة.. بل منهم من لاصورة له .. حتى الرسم الفوتغرافي حتى عند أحفاده .. وأنداده ..

وهناك من أكل معهم خبزا وملحاً .. أوخبزا جافاً ..

أو رفست أصابعه « البازين » معه في قصعة واحدة ولم يذكروا عنه شيئاً .. لاخبراً .. ولاطرقة .. ولاسمراً من الأسمار .. أتذكر البيت الذى يذكره ويكرره أصحاب الشواهد النحوية .. أو أصحاب الشواهد الوعظية

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولكنها الطبائع .. ومن جبلات البشر وعاداتها — الاهتمام كـــل الاهتمام بمن في دائرة الضوء

وقد ينسى ويهمل ويتغاضى عمن صنع الضوء.. أو أسهم في صنع الضوء ،

لماذا هذا .. أو هذا ماذا ؟

وكيف كان الاختيار لهذه النماذج ؟!

لعدة أسباب ودوافع .. تتصل بالاهتمام بهذا البلد وماله وماعليه .. في دائرة الحب والوفاء والتقدير ..

وقد اشترطنا في منهج هذا الكتاب وتقييد هذه الصورشرطين .. يلحقهما شرط ،

ان يكون النموذج رأيناه وعرفناه .. وحدثناه ولو كان اللقاء يسيراً .

أو كانت معرفتنا له فى آخر شوطه ..، وهناك من عرفناه منذ طفولتنا في المهجر وهناك منهو من الجيران أو أصدقاء الأسرة والأصهار ..

وأن يكون النموذج من الذين أدوا جانباً من ضريبة الحياة الاجتماعية عنطريق ممارسة الحياة بشكل ما تهرس.. وتمرس .. وان كان بعضهم لم تكن له شهرة متدوالة بل أكثرهم من اهل ألانزواء والانطواء .. فطرياً أم اجتماعياً .. تلقائياً . أم قسرياً ..

وان لم يكن بعضهم في حياته سوداوياً .. منطوياً ..

لكن الطي للزمن يطوى حتى الصناديد ..

وان يكون ليبياً من مواطني هذا البلد .. يهيم حباً بها وبناسها .. مواطنون .. يرددون حبالها .. وهياماً بها .. في ظروفهم التى طوحت بهم أيام الهجرة والغربة في عهود غوابر دوابر :

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

اخترناها نماذج من هذا الوطن ..

على ان النماذج التى رأيناها في حياتنا من العالم ،شرقه وغربه ؛عجمه وعربه .. كثرة كاثرة .. ووفرة وافرة ..

لكن كتاب البلاد أولى بالكتابة عن البلاد ومن في البلاد وأنماطها الفنية والاجتماعية الى آخر الأواخر وآبد الآوباد ..

هل هي مذكرات ؟

أو ذكريات .. أو هو من نوع التاريخ ؟ أين تضع هذا النمط من الانماط :؟

ليس ما نقدمه هنا مذكرات .. تلك قد تكون ان اعطانا الله قدرة واستطاعة ،

وقد تكون هذه الصور والفصلات هنا فيها شيء من الذكريات بشكل

ما ،ولكن الذكريات المتكاملة لها ساحة أخرى إن كان بقي في العمر أنفاس..
و في الصدر ترجيعات ..

وما أكثر غرور الأدباء !! غرورهم أطول من أعمارهم !! والكل بيد الله .

وهل هذه الأنماط والنماذج تاريخ ؟ قد تكون بشكل ما .. ولكنها ليست تاريخا بالمعنى المتعارف المألوف .. اذهى مزيج من الذكريات والمشاهدات في إطارها الفنى وقالبها الأدبـــى والحوار الذى سداه الواقع والحقيقة فهى تاريخ اجتماعى ليس على الشكل المتداول الطائر ،

السائر .. الجارى المنساب ،

أسهموا في الحياة بقدر طاقتهم على الدرب الشائك في غير بهبرة .. واحترق بعضم في الأتون ..

هي نماذج كانت تمتلك موهبة لكن ضاعت كنبتة في صحراء بلقاء جرداء .. أو قطرة في ساحة صماء ، صلدة ، همسة في ضجيج وصخب ..

تلاشت كخيط دخان !!

هل للخيوط بصمات ؟

لم يترجم لهم حتى الذى زعم أنه جعل قاموساً للأعلام في بلده وهو من مواطنيهم وإن كان قد استفاد من بعض وشاهدهم ولكن في كتابته أهملهم وكتب عمن هم دونهم درجة وعطاء وإحساسا .. فنياً واجتماعياً ،

هي نماذج .. منها من غمرته الحياة . أخذته في غمرها حتى غدا مغموراً ، وطوته حادثات الليالى ، وتقلب النهارات .

عرفنا بعضهم في مجتمع الهجرة ، والدراسة ، وأيام المصاولات والصراع السياسي والاجتماعي وأيام الاحتلال الأنجليزي . ايام الإدارة العسكرية البريطانية .. هنا في طرابلس .. ، في الغوابر والدوابر من سوالف الحقب ،

عيب هؤلاء .. وهم ذاكرة المجتمع . ولسان تلكالمرحلة ونوافذ تلك العهود ، في أنماطها ...أن ذكرياتهم ومساردها كانت تتأرجح بين نقيضين .. وضفتين من التضاد ،

رخيصة كل الرخص ،

قريبة كل القرب ،

وغالية نادرة كل الغلاء ،

ومنسابة مطروحة في التساؤل والمتناول ،

ويلفهِا صمت وإطباق .. صمت مريع ، وإطباق مهول ،

أقفال لامفاتيح لها ..

أو تجد مفاتيـح أحياناً بلا أقفال .

عيب هؤلاء — أي تلك النماذج وأنماط منها في كل مجتمع في عصور التحولات والتنقلات أن لديهم ذكريات قد تكون رخيصة كل الرخص — من ناحية العرض والسرد والطرح ، لا في المضمون والمحتوى ،

يروونها — من الرواية — أويلوكونها للناس .. كل الناس — لمن هب ودب ، وطب وقب ، في سهرية عرس ، في لملمة وليمة ، في حلقة عزاء .. قد يكون ، أومحط انتظار .. أو زحمة سو ق ، تلقى على السطوح، أوعلى الرصيف قد تكون مناسبة أوغير مناسبة .. او أدنى ملامسة اوملابسة للذكريات وفض جراب التجارب .. وتتدفق متلاحقة متشابكة الاسمار والاحاديث التى هى مواد من تاريخ الحياة الأجتماعية . . وتصور ملامح ذلك العصر وتلك المراحل .. وتبدو من هناك حقيقة الصدق ..

صدق المعاناة . والمجابهة للحياة ..

وقد يكون منهم التذكر والتدفق .. جواباً لسؤال .

أو أحياناً جواباً من غير سؤال ،

وأحايين يلزمون الصمت .. صمت التأثر بلاتأثير ،

صمت الأحتجاج على مقادير الزمن في هجرتهم وغربتهم .. غربتهم الزمنية ، أوغربتهم المكانية ، أوغربتهم الذهنية ،

والغربة أنواع وأصناف قد يجد فيها علماء النفس والاجتماع آلاف الأنواع والصنوف ،

وقد تنفلت الشفاة ، وقد تطبق صامتة وتتكلم الغضون ، وتفصح التجاعيد وتبين الملامح ، ورعشة الألم من هوة مستقبل سحيق من طاحونة الزمن ، فلا تقدر على تحريك الشفاة .

ولاينبسون ببنت شفة ، بنت كلمة ، أوحفيدة كلمة ، — هل مازالت الكلمة بنتاً عذراء .. صماء ؟

وسكوت هؤلاء .. وأمثال هؤلاء عن ذكرياتهم الاجتماعية وغير الاجتماعية ، حقيقة أضاعت من تاريخ المجتمع صفحات ، وسكوت هؤلاء .. في الإطباق المطبق ، أضاع من تاريخ المجتمع بين الحربين العالميتين الأولى ، والثانية ومابعدهما .. وما قبلهما .. وماحولهما وذيول ذلك ، أضاع صفحات من دراسة تطور .. أوتبلور .. أو تكمش أو تقمص وتقلص وتقبع وتطلس .. هذا القطاع من البشر على هذه الساحة من الأرض .. في تلك الفترات من الظروف والملابسات العالمية .

نماذج وأنماط هم وأمثالهم أجزاء من برجل الحياة الاجتماعية في الدائرة منحنية ، أو مستقيمة ، ضلع من الأضلاع ، وزعمت الأساطير أن ضلع آدم كانت عوجاء ..

فهل خرجت حواء .. من ضلع أعوج وحواء أمنا .. وأبونا آدم

لماذا هذا ..؟ ماهذا الذى نقدمه ؟ مامضمون هذه الصفحات ؟

أوجز .. فنحن في زمن التسرع والإيجاز فكراً وعطاء ..

وأسلوباً وقراءة ..

باختصار غير مبتسر .. باختصار مبسط .. بسطك الله .

التاريخ ينزل من عليائه ،

التاريخ – حضارة ، وعطاء ، يتنازل عن كبريائه .

لم يعد تاريخ ملوك وأمراء وأباطرة وحكام ودكتاتوريين وسادة وقادة وسلاطين وأهل سفك وقراصنة .

وهلاوكة ، وجناكزة ،

بل التاريخ للناس البسطاء ..

أدوا دوراً بمقدار بشرف .. وعرق ، ولوبسيطا زهيداً .

لكنه كنموذج .. كإنسان .. لبنة في بناء .. سطرفي صفحة أوحرف من كلمة

هذه الحجرة – بفتح الحاء – الصغيرة في البناء هى التى قام عليها البنيان .. وتصاعد ، وتطاول وتشامخ .

لو هدمت وأزيلت وطوحت بها لطاح البناء وانهار واذا ازلت صفحة من كتاب اوسطراً من ورقة أوطمست حرفاً من كلمة .. ظل العمل ناقصا منقوصاً مبتوراً،

والكتاب مشوهاً ، الاعند هواة الكتب شكلا ،

لامضموناً .. وموضوعاً ،

ويبقى سؤال :

والمعرفة تبدأ بتطلع .. باشرئباب نفس .. أو تطاول عنق وسؤال .. هل تثير هذه النماذج وامثالها – بشكل عام . قضية ؟

هل تحرك مسألة : تثير موضوعاً :؟

أو هي خربشة من خرابيش الأدباء .. وتهويمة من تهويمات أهل الفن ؟

ونسأل ، قل أن يأتى حلس من أحلاس أدعياء الأدب ومن المتصدين لأخطاء الناس من أدعياء الفن عن تربص وتقصد ، ومنخور النوايا ودفائن الطوايا ، سائلين سؤال استنكار أو استهجان ، أو سؤال استخفاف بعمل الناس ...

– وأين هذا .؟ ومادور هذا .؟ وماذا .؟ وماهذا .؟ وباذا .. وطاذا وآذا .. ولكن .. وكاكان .. و.. و .. وا .. وماأكثر وأوآتهم .. ولاكناتهم ألكنهم الله ،

وتموت هذه الواوات .. والوأوآت .. في حلوقهم نسأل قبل أن يفتحوا أشداقهم المنتفخة كأنها تتثاءب دوما ، أو تفرك عينيها من نوم ثقيل طويل ياضيعة الأدب – هل تثير هذه النماذج قضية وتحمل موضوعاً فكرياً أو أجتماعياً !؟ لماذا هذا :؟ .. أو هذا ماذا :؟

وعند الإشارة،أو الإشادة بهذه النماذج التى سحقها الظل وتاهت في جوانب .. يبرز سؤال :

– هل الفرد بقوته الشخصية يؤثر في المحيط الأجتماعي ؟

أو المحيط بقوته يؤثر وينتج الشخصية المعطاءة ؟

سؤال قد يكون الجواب عنه وسطاً ،

وليس من قبيل التخلص والتملص . أو طريقة – فيها قولان – بل حقيقة للمتفرس المتمعن ، في دنيا الناس والمجتمع ،

– الاثنان ، فليرفع السبابة وماجاورها ..

الاثنان . الفرد والمجتمع ..

عملية توازن .

لابد من قوة وبناء الفرد . وتكامل الشخصية ،

نبتة شخصية ، ولابد من محيط ومجتمع يؤثر ويحمى ويحفظ من ضياع وتوهان

الاعتزاز ، أو التكامل من الجانبين ، حتى لاتتكون هوة الإهمال والجحود ،

فرد ، بلا مجتمع يضيع ، ومجتمع لايحمى ولايقدر قتال .. لاينتج يخنق حتى العباقرة ، فما بالك بالأفراد والنماذج التى بصماتها قد لاتصل إلى سلم العبقرية ومدارج العطاء والإبداع ،

وبعض هذه النماذج في خبرتها لم تجد المجتمع الواقى آوذلك المجتمع كانت ثقوب غرابيله واسعة قد يبالغ في الغربلة ، حتى يسقط الكل .. ولم يبق له شيء ! !

وشيء آخر -. مثل هذه النماذج مئات في هذه البلاد وقد تكون منها وأمثالها .. آلاف وعشرات الآلاف في كثير من الأقطار والأمصار والأزمان اذاً ليست النماذج فريدة عجيبة من غير مثال .. ولامنوال

لكن فيها مع هذا مايلفت النظر . أو ما يلفت الأذن - أن كنت سميعاً منصيتاً أكثر منك قارئاً .. وأكثر منك تاليا ،

وانما كان الاختيار منا لهم .. لأننا اخترنا نماذج ممن رأينا وعرفنا ، ولاقينا وسمعنا ،

وهل تطلق على هؤلاء وأمثالهم كثرة ، - موءودين - من الوأد .. « واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » وأدهم الزمن .. الأب العاق

أو وأدتهم ظروف حياتهم - المجتمع والناس ...

المجتمع الصغير .. أم المجتمع الكبير .. أم كلاهما .. ؟!

منذ نصف قرن أو ينيف .. حيث كانت تلك النبتات على الضفاف أو في الهضاب

وهنا نحن لانكتشف .. لانكشف .. انما نزيح عنهم ستاراً .. ونبعث في سطور عنهم حيوية التذكر والذكري ، أو نبض الذكريات في عروق تكاد تجمد من برودة الإهمال أوبلادة الحس ..

اذاً هي ليست عملية اكتشاف ، لاندعى .. لاينزلق بنا الغرور .. إنما هى .. إزاحة . إبانة .. باختصار .. طرقة ..

وهناك منهم من لم يرحل من بلده ، أوقرب زنقته لصق بالمدينة حتى غدا حفنة من تراب قرب سورها الأبدي ، ومن هاجر في بلاد الضاد وبقية الأحرف المضمومة والمشمومة ، هاجر — بعد انقضاء الجهاد — حفاظاً على دينه ولغته وكيان عقيدته في بلاد المسلمين وديار العرب .

ومن هذه النماذج من عاش حياته بالطول والعرض والعمق ، وهناك من عاش على الهامش .. أو هامش الهامش ،

ومن كان له ريش طاربه في آفاق بعيدة ومن أدعقه البؤس تحت سنابكه وعاش بالأسودين ليالى طوالا .. التمر والماء .. أو بالأصفرين ، الفول والعدس ،

ولكن كان .. وظل مرفوع النفس ، أشم الإحساس .. كريم الأصالة قبض على دينه كالقابض على الجمر في هجرته وغربته في شدتة وكربته ، رغم الاستبداد والاستعمار .. والتخلف ومخلفاته ورواسبه ونتائجه

وهل نهمل دور المرأة .. وأنماط هذه النماذج ؟

واخترنا نموذجين .. واحدة مقيمة لم تخرج من سور المدينة .. سلاماتو ..

والثانية من قافلة المهاجرين سيدة فاضلة على شاطىء الأسكندرية . عيشة الزنتانية ..

وللمرأة في ليبيا في كل أدوارها وأطوارها .. أدوار ومواقف ،وكان بودنا أن نكتب عن نموذج الناسجات للعباءات الغازلات للصوف .. الصابرات العاملات في مجتمع ليبيا .. منهن نماذج وأنماط .. ولكن قد نخصها بكتاب خاص إن كان في العمر بقية وفي ساحة الأجل مساحة،وفساحة

وكانوا في المجموع مئة كاملة ، فاختصرناها الى أربعين . وحتى الأربعين اختصرنا ها إلى عشرين ..

والعدد ليس مقصوداً ، إنما هى نماذج وأنماط من أهل التعب والنضال

ومن أهل الفن والصدق في المعاناة الذين تصبب عرقهم المتوهج على الدرب الشائك الطويل

وقد لخصناها فى عشرين ، فقد رأى صديقنا الشاعر نزار قبانى أن نختصر الشخصيات وعددها على حد تعبيره في حديثه معنا (لئلا تكون في ضخامة جدول التلفون)

ولكنه شاعر يكتفى بالتركيز الوأمض .. أو اللمسة الخاطفة ،ونحن لنا فضفضة الكتاب ، وسمر المتحدثين ، وحديث الذكريات قد يطول بين الأصدقاء .. ومن أعز الأصدقاء لدى الكتاب .. القراء .. ورأى صديقنا الدكتور على خشيم أن نقتصر على عشرين بدل المئة أو الأربعين فأخذنا بالوسط .. ولتكن البقية في كتاب آخر وبشكل آخر

وقبل أن نخلص من سطور هذه المقدمات هناك بضع ملاحظات لابأس من لحظها ..

قد تندرج هذه الفصلات في لون من ألوان الذكريات وأدب الخواطر والتاريخ الفنى والأدبى من ناحيته الأجتماعية ويندمج بشكل ما في دائرة .

تاريخ ما أهمله التاريخ .. وماأكثر المهملات في أزقة التاريخ ومنعرجاته أوهو مزيج من هذا وذاك ..

تعودنا في المكتبة العربية – أوعودنا بعض الكتاب من أصحاب الاهتمام بالتاريخ والتراجم الذاتية والسير أنهم لايكتبون عن الشخصية التى يتناولونها أو النموذج الذى يدرسونه الا الحسنات فقط ،

ويقتصرون على سرد الجوانب الجادة فقط ،

كأن النموذج ، أو الشخصية المكتوب عنها .. ليست من دنيا البشر ، كأنها من طينة لم ترتكب في حياتها مثلبة أو مزلقا .. أو هفوة .. أو غفوة ،..

كأنها من الملائكة الأطهار ، الأبرار .. من أهل العصمة ، ويغالط هؤلاء أنفسهم، أويغالطرن الواقعية والحقيقة عندما يقدمون في التراجم والسير

مجرد مثل مقدسة في هالات من الاحترام المزيف ،والوقارالمصطنع حتى عند شخصياتمن أهل الفنودربا لأدب وسمارالليل وعشاق الحياة الصاخبة

وهذه من نواقص كتابة فن التراجم والسير والذكريات الفنية ،وهي حقيقة فيها بطريق مباشر أو غير مباشر جناية على فن الكتابة .. وقد يتجافى هذا ويتنافى مع صدق التاريخ .. وحقيقة الواقعية والدراسة الموضوعية ذات الإطار الجاد .. فالجد هوالموضوعية الصادقة..لاالتكلف والمماحلة قد يؤاخذنا البعض أو يعتب علينا أننا ذكرنا بعض الطرائف أو النواقص أو مايرونه منقصة ومعيبا عند الحديث عن بعض الناس .. لكن دافع ذلك الصدق والواقعية وإعطاء الصورة الفنية بلازيف ولا تزاويق .. وقد انتهى أسلوب الذين إذا تصدوا للحديث عن أهل الدرا سة فلا مثلبة بل هو عالم علامة .. بحر فهامة ..

وإذا وصف إنساناً سربل وكركر له الأوصافوالنعوت ، الذكي الألمعي ، النابغ العبقري ، السميذع اللوذعي ، وأذا وصف وطنياً .. فهو الجسور الهصور .. الغيور ..

النقي .. التقي .. طاهر اليد والذيل واللسان والجيب . وهذه الأساليب والمبالغات تتنافى مع فن الواقعية والترجمة الصادقة ..

وأيضاً في عالم الكتابة العربية هناك فيأساليب الدراسات وألوان الكتابة ما نسميه أصباغ الوقار المصطنع ، والحشمة المتكلفة

لافكاهة ولادعابة ، ولاابتسامة .. ولامثالب ولامباذل ترد عن الذين يدرسونهم ويكتبون عنهم ..

جانب واحد .. جاف جامد .. يظهرعليه التجهم المصطنع.. هل يذكرنا هذا .. في عصور وأزمنة مترهلة من كان يريد أن تلتقط له صورة « فوتغرافية » شمسية ، مائية ، فانه يطرم ، ويتقبض — من الانقباض ويقطب تقطيبا ، ويكز .. ويبحلق ويكش . وينش حتى تظهره ملامحه جاداً مقطباً .. وهذا تكلف تجاوزه الزمن في فن التصوير أو مقاييس

الواقعية والموضوعية ، والشيء الطبيعي العادي .. أي المعتاد .. أجدى في في التصوير والتعبير .. ومن هذه النظرة والزاوية ماقد يراه بعضهم من تصرفات أو أوصاف مثلبة أو معيبة .. ليست مثلبة ولامعيبة .. بل صدق الأداء الفني والواقعية .

منذ سنوات .. وكنت في مطلع حياتي الأدبية .. أجريت حديثا أدبياً وحواراً صحفياً مع شيخ الشعراء أحمد الشارف وهو في عزلة شيخوخته .. ولعل الحديث الأدبي كان الأول من نوعه مع الشيخ أحمد الشارف .. وغدا من وثائق التاريخ الأدبي .. وسألته .. والسؤال والجواب منشوران بجريدة « طرابلس الغرب .. – هل ذقت طعم الحب – ؟!

ورحب الشيخ الشاعر العالم الوقور بالسؤال .. وأجاب بإفاضة وصراحة ونشرت جوابه ....

وفي إحدى السهريات – التي كانت منتشرة بطرابلس –

فوجئت بأحد الشيوخ الأفاضل من أصحابنا يعاتبني معلقاً على الحديث المنشور ، والحوار المذكور ..

– عيب يا أستاذ مصراتي..تسأل شيخنا الفاضل القاضي عن الحب .. وتنشر هذا في جريدة يقرؤها الناس ؟!

وأجبته – رحم الله الجميع – بما أفحمه . . وأعتقد أن مثل هذا السؤال أو الأحتجاج ما عاد له مكان أو مبرر بعد تطور فن الدراسة والكتابة .. أو اتساع الأفق الفكري .. ولايمكن أن يكون ماذكرناه وأشرنا اليه في هذه الفصلات والصفحات من حقائق موضوعية مناط مثل تلك التساؤلات أو التعليقات التي تجاوزها الزمن في تطوره أو نظرته إلى الأدب وشؤون الحياة والفن وأساليب التعبير .

علي مصطفى المصراتي

طرابلس / ١٩٧٨ م

حمدی



أسود اللون فاحمه .. مكتنز الجسد متداخله ، أقرب إلى السمنة ، أفطس الأنف .. أشم النفس .

مقرقر الصوت ، يضحك هادراً أو مزلزلاً .. ويطوح برأسه كأنه يريد أن يتحاشى تفاقد الوزن في الضحك من بعيد تسمعها . وتميزها .. فلها ملامح ونبرات مميزة .. أو مميزات ومميزات .. ضحكة أولاد البلد لعله اكتسبها من الأحياء الشعبية بالاسكندرية التي عاش بها ردحاً .. وإن أتى إليها على كبر .. مثقل الهموم .. باحثاً عن لقمة العيش .

اذا رآه رسام من هواة رسم الشخصيات التاريخية لاستوحى صورة من كافور الاخشيدي .. وان لم تكن بينهما قرابة ولا سلالة ولا معاصرة .. ولا حتى لغة تفاهم .

مرح طروب .. يضرب الدنيا بصرمة .

ويقولها في سخرية : طظ ...

وبلغة مهذبة .. ومفصحة — بالضم والتشديد .. ولو .. لا يهم .

آه يا دنيا .. ولا يهم .. خليها سايره

عرف الفن .. أو عرف بالفن . في بلد كاد .. أو كان تاريخ الفن المسرحي فيه صفراً .. تلاحقه أصفار ..

وكان من الهواة .. الشداة .. الغواة .. من الغية .. لا من الغواية ، لو كان له قسط أوفر من الثقافة .. أو استمرارية .. لعد من رواد الفن المسرحي .. رغم بلقعة هذا التاريخ .

لم يجد الجمهور الكافي .. والمجال الوافي .. قل يا شافي .. يا عافي .. وكانت تتنازعه هوايتان .

كل منهما في واد ..

تكاد أن تكونا من تقابل الأضداد

• فن التمثيـــل

• والضرب باللكمة والقبضة – وما يعرف برياضة الملاكمة .. وسبحان من جمع الهوايتين في بني آدم .. ؟؟

• هو ممثل مسرحي

• ورياضي ملاكم

ترى ماذا كان يصنع معه المخرج ، هل كان يلقنه الأدوار بأدب وتخوف ؟ لأن لغة الملاكمة لا تعرف الهوادة والرحمة : ولم نعرف في تاريخ الفن المسرحي من كان ملاكماً ..

على الأقل في جيله ومحيطه .. أو فيما لدينا من مراجع تاريخ المسرح ببلاد الناطقين بالضاد .. وغيرها من حروف المعجمات .. وحروف العجماوات المضمومة والمشمومة .

أو لم نعرف في مجالات الضرب والملاكمات من كان ممثلاً فنياً .. وضارب اليد الملاكم والمصارع .. هل له أن يكون فناناً حساساً .. ؟

ولكن يظهر أن المناخ الأول .. والجو الرياضي شجعه ..

ووجد المدرب الرياضي الملاكم .. أكثر من المدرب الممثل

وإن كانت شهرته في هذه وتلك في محيطه الشعبي . . . معروفة وكان الطليان في بلده لا يشجعون تمثيلاً ولا ملاكمة .

كان بشق طريقه بعصامية .. وعظامية .. في الصخور والأشواك وسار في الطريق رغم قدميه الداميتين .. في الطريق الوعر ..

حمدي .. وهكذا اسم عرف .. ولا يعرف الناس إلا اسمه فقط

شهرته .. وكان المجتمع يعرف بعض الأسماء ذات الشهرة في مجالاتها بالاسم .. وعلى سبيل المثال :

- الافوكاتو قدري — وهو الصحفي المناضل المعروف
- داود افندي — وهو العالم الباحث المعروف
- أبو قشة — وهو الهاشمي المكي الصحفي المناضل
- الشيخ بن مصطفى — الفقيه كامل بن مصطفى المفتّي الحنفي
- الشيخ بن موسى — الصحفي محمود نديم بن موسى

• وبعدها بجيل أو جيلين .. وإن أردت المغالطة في الحساب ثلاثة أجيال أو أربعة .. عرف اسم حمدي : أو لقب آخر عثمان عبد الباسط .. لشخصية اكتسبها أو اقتبسها من التمثيل الفكاهي الذي كان يقلد به الفنان المسرحي على الكسار .. أو بربري مصر الأول ..

وقد شارك على الكسار في اللون .. وأن كان أفحم .. أو أكثر فحامة في سحنته .. وإن كان الكسار لا يقرأ ولا يكتب .. لكن حمدي كان خريج مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية ..

* * *

والاسم بالكامل كما تشهد شهادة الميلاد .. حمدي محمد أبو بكر من مواليد طرابلس الغرب سنة ١٩١٤ م .

وعاش في فترة شبابه في عهد مظلم .. عهد الاستعمار الإيطالي الفاشي .. لا يفتح نوافذ المواهب بل يغلق كل الكوات والمسارب وكانت هناك كوة يتسلل منها نور .. هي مدرسة الفنون .

هي في الحقيقة مدرسة إسلامية ومؤسسة شعبية أنشئت بأموال الشعب .. حسنة من حسنات العهد التركي ولو كره المغالطون .. أو تجاهل الذين

أهملوا تاريخ التربية والتعليم .. كانت تربي التلاميذ الفقراء وتؤوي اليتامى .. وتعلمهم صناعة .. وتزودهم بحرفة .. وتربي فيهم الذوق الفني والصناعي .. وكان من بين طلابها هذا الصامت المكتز – حمدي – دخل مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية عام ١٩٢٤ م وظل بها ثماني سنوات .. وتخرج عام ١٩٣٢ م .

ورغم أنها مدرسة إسلامية .. وبأوقاف المسلمين وتبرعاتهم وبمجهود أهل الوطن قامت.. فقد كان مديرها آنذاك طليانيا واستولى الطلاينة الملاعنة .. حتى على مطبعة المدرسة .. وأعطوها لأحد المجندين الطليان السنيور « ماجي » وهي مطبعة « ماجي » المعروفة التي أضاف إليها وزادها .. ولكن الأصل .. والمبنى والسندى .. واللحمة .. من مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية لقد جعلها « ماجي » مشروعاً تجارياً . وبعد تخرج حمدي من المدرسة كان قد كسب مهنة صفاف حروف بالمطبعة .. درسها بالمدرسة .. وعمل أيضاً بجانب جمع الحروف في مهنة (تسفير) أي تجليد الكتب .

والتسفير تعبير أندلسي مغربي جميل الاستعمال .. فصيح .. صحيح .. وعمل أيضاً «بوهيجيا» والإضافة من بقايا الترك.. جى.. علامة إضافة .. أي نقاشا .. ومزوقاً للحوائط .. نسبة إلى البوهية .

يمزج الألوان في جردل .. ويضرب الحائط . بالفرشة .. لا برأسه وكان عمله مع مواطن يسمى « مهدي الشريف » وكان طالباً معه أيام الدراسة ثم أصبح من أهل الأعمال الحرة واشتغل مقاولاً .. وأخذ صاحبه وزميله حمدي ليعمل عنده .. لخفة يده .. لا في النشل .. أستغفر الله .. بل خفة يده في ضرب الألوان ومزجها .. وتبييض الحوائط .. وتغيير سحنتها .. وإظهار رونقها ..

وقد كسب مهارة في المطبعة وظل بها أكثر من ثماني سنوات يقرأ الحروف معكوسة .. ويصحح التحريف والتصحيف .. قبل أيام الحرب العالمية الثانية .. وفي أثناء كابوس الحكم الإيطالي .. الغابر الدابر .. وكان

هواه في تنقل الحرف .. وتبدل المهن .. من طباع ومزوق حوائط .. وأصباغ أصابعه بالحبر في الأولى والجير والألوان في الثانية وينتقل إلى عالم الخيوط الكهربائية والأسلاك والموجات غير البحرية . راقت لمزاجه .. وحلت لمذاقه .. حرفة إصلاح أجهزة المذياع على قلة العاملين بها في ذلك المحيط واكتسب مهارة في هذه المهنة الفنية الدقيقة ..

فكل من خرخش ، وخنخن له مذياع ، أو تعصلج معه أو تداخلت موجاته ، وتشابكت محطاته .. أو ارتخت مؤشراته .

كان حمدي يسرع اليه بأصابعه يجسه كطبيب إذاعي .. أو مهندس للأسلاك يختبرها .. ويعرف داءها .. ودواءها .. وعلة انسهالها أو علـــة إمساكها .. من جسة واحدة .. وتحريكة .. يصل إلى معرفة السبب والمسبب . ويسعفه بقطعة من أكداسه التي تكونت في دكانه من مصارين الخيوط .. وعروق الآلات .. وقد تعلم وتدرب في مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية قواعد ومبادئ أصول الهندسة الإذاعية .

ومدرسه ومدربه الطلياني ، لم يضن عليه بالدراسة الجادة فقد كانت

له روح علمية رغم تسلط الإدارة لقد كان من نوع نبض ضميره العلمي .

ولم يخل أهل العلم في بعض الحالات ونوادر الحالات من روح علمية .. فقد كان مدرسه إيطالياً .. ولم يكن فاشياً .. وعلمه بإتقان في غفلة من المدير المتعصب هكذا كان يروي الراوي .. والعهدة وأمانة النقل عنه .. في عنقه .. عنه رويناها .. وبسند يتصل إلى روايته .

وطوحت به المهن حتى وصل إلى باب المسرح

وشكل مصطفى العجيلي – أو الدكتور كما اشتهر لقبه – فرقة فنية للمسرح من داخل مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية أشرف عليها قنابة الشاعر .. تأسست سنة ١٩٣٦ م .

وقدمت روايات ذات إطار ونكهة تاريخية .. ومثل بها حمدي*.. وجدت هوايته الفنية مسرباً .. وكان بارع التمثيل جيد الإلقاء .. لديه مقومات النجاح في العمل الفني .

فهو لماح .. مدرك .. متقمص لأدواره .. عاشق لدوره — بدافع الرغبة الفنية .. وعرفته أوساط الجماهير المحبة للفن بأنه الممثل البارع .. الممتاز .. أو المتميز .. له موهبة .. ولكنها لم تجد تنمية ، وله اتجاه فني لم يجد مجراه ،

الفن موهبة لا شك ،

ولكن الفن أيضاً أجواء وعوامل لا شك ،

من هنا نعرف عند المقارنات لماذا يثمر الفن في ناحية أو أنحاء ؟

ولماذا يضمر ويموت بالسكتة أو بالإغماء .. في أنحاء .. وأنحاء .. ومنحنيات من تعاريج الزمن ؟! وقد مثل حمدي مع مجموعة من هواة التمثيل لم يستمروا على دربه .. ما زال .. أو كان يذكر أسماء .. عبد المجيد النعاس — أحمد البزنطي — خيري فرحات — خليفة الغدامسي — عثمان نجيم — وينطقها أهل طرابلس بالجيم من النجامة فلان ناجم — علي القروش — بشير عريبي — حسن يوسف الشربيني — وكان مصرياً مبعداً من مصر في عهد إيطاليا — وعاش في طرابلس عاملاً في الوسط المسرحي فترة .. وكان من أصدقاء حمدي .. يتبادلان القفشات والنكات المصرية .. في موجة من الضحك المتواصل .. تغسل أدران الصدر وتكنس هموم القلب .. وعمل حمدي فصولاً فكاهية من النوع المسمى (اسكتش) ولم أجد للعبارة تعريباً فلتدخل بعد اذن اللغوين والمتشددين.. كان هذا الاسكتش — من اللون الخفيف .. الذي كان متداولاً في استعراضات مسارح روض الفرج وغيرها في الثلاثينات بمصر .. وعمل حمدي أيضاً في روايات ذات طابع تاريخي

في مثل رواية – فيروز – وحلاق بغداد – مما كان مستمداً من ينابيع روايات وحكايات ألف ليلة وليلة ...

وفي أيامه الأولى لهوايته المسرحية اتخذ مع الهواة مكاناً للتمرين في بيت آل قنابة بباب البحر – في العهد الإيطالي .

وأيضاً بمسرح البوليتياما – يسوق الترك قرب باب البحر ..

مكان سينما النصر الآن ..

وهاجر حمدي إلى مصر .. واتخذ من الاسكندرية مهجراً .. ومقراً في أحد أحيائها الشعبية العريقه كان مقدمة إلى الشاطئ السكندري عام ١٩٤٣م .

كانت أول رحلة من طرابلس عن طريق البر – بعد قيام الحرب العالمية – وصحبه اثنان من حجاج الجزائر .. صحبهما من منطقة سرت قاصدين بيت الله الحرام على طريقة أسلوب زعاليك الحجاج قديماً .

خرجنا من فاس ومكناس

لا برمه ولا كسكاس

في حبك يا رسول الله

والحاجان هما أحمد قليل – والثاني محمد بن غلبون – مما يدل على وجود لقب غلبون حتى في الجزائر كما هو في مصراتة .. والأندلس .

وافترقوا في طريق العامرية – حيث ذهبا إلى القاهرة –

وهو توجه إلى الاسكندرية وفي نفس الوقت يردد أغنية شعبية قديمة : اسكندرية مريه .. وترابها زعفران

نزل في الاسكندرية بحي بحري .. بالانفوشي ..

حيث لاتزال في تلك الآونات بنات بحري الجميلات المائسات يلبسن على الوجه ويتبرقعن بتلك الغلالة الحريرية الهفهافة تلك الغلالة التي انقرضت رغم جمالها وطابعها الشعبي

وقد أوحت برسم فني للفنان المبدع سيف وانلى.. والفنان محمود سعيد في لوحة « بنات بحري »

وأين الحمامات المائسات في شطوط تونس بالغلالة البيضاء ؟

والحمامات المائسات في شط الاسكندرية بالغلالة السوداء .. ؟

وكان حي الاسكندرية يموج شاطئه بالملابس الفضفاضة سراويل أولاد البلد: والقبضايات.. أشبه بسراويل أولاد البلد من أبناء باب البحر بطرابلس.

* * *

ومن أجل لقمة العيش ودع حياة التمثيل والفكاهة والاسكتشات .. إنها لا تسد فراغاً .. ولا تسد معدة وعمل مع الجيش البريطاني في مركب حربي .. حيث يضمن لقمة العيش مع القروش التي تتكاثر وتتناثر أيام الانجليز ..

ولكن هل الحياة قروش وكروش ؟

ترك العمل في محيط المركب الحربي ، وعربدة الانجليز ..

وصخب « جوني » والكاس

وآثر العمل في إصلاح المذياع .. وعلاج خنخنة الراديو واشتغل مع –زكي أمين– من مواطني الاسكندرية في شارع الست «المسرية» .. بالسين.

وهي زاوية من آثار الصوفية .. ولعلها ست من صاحبات الخير والفضل– وكان الأسطى أو المعلم زكي أمين صاحب محل كهرباء وإصلاح

راديو وظل حمدي مدة معه .. فتح الله عليه وفتح حمدي دكاناً مستقلاً في شارع توفيق ، في ميدان المنشية ،

قرب تمثالى محمد علي باشا — ذلك الراكب صهوة الحصان الحجري والمعتمر طربوشاً ذا زر طويل كطرابيش المغاربة .

وتوارت ليال المسرح .. والاسكتشات .. وجماهير الفن .. وإعلانات اليد .. وتصفيق الإعجاب والزحام على الشباك .. بطرابلس ليحل محل ذلك زبائن وزبونات ... لم يعرفوا سوى المعلم حمدي .. والأسطى حمدي ويا عمي حمدي ... بالأسكندرية

وكثيراً ما وصل اللطف والكرم أو البذخ في الكرم إلى كلمة ولقب .— الباش مهندس حمدي ...

وفتح فرعاً لمحله ... وبدل أن يطلق عليه دكاناً .. فضل أن يطلق عليه .. مصنعا .. كان الفرع بحي المندرة بالاسكندرية وظل حمدي في عالم الكهرباء .. والموجات .. والأسلاك الموجية وأنواع المذياعات ثلاثة عشر عاماً ...

ويحتفظ في صدره بالذكريات الفنية بنثرها ويفض جرابها وخواطر نفسه مع نفسه .. أو ذكريات مع أصحابه في سمر خاطف من زحام العمل الكهربائي .. ويحتفظ أيضاً بصور مرسومة وأوراق خاصة هي بعض الرسوم والمناظر الملتقطة له مع رفاقه على مسرح البلولتياما — وهو في الغرفة المسرحية .. يستعرض مع الصور التي في الذاكرة .. والصور التي في « ألبوم » ذكريات الزملاء في الفن المسرحي والتمثيل . ترى هل أصدقاؤه على البعد يذكرونه ؟

هل يحمل أحد القادمين للاسكندرية خبراً عنهم ؟

أو هو يردد قول القائل في صورة شعرية :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا .. أنيس ولم يسمر بمكة سامر :
وهل يقصر نشاطه على الاسكندرية ؟

إن في القاهرة متسعاً للجميع .. وهناك فتح دكاناً في شارع القصر العيني أمام وزارة التجارة والصناعة .. وسكن في حي الروضة عمـــارة السمرى — وفتح دكاناً آخر في شارع سعيد الأول بشبرا قرب ميدان مسرة .

* * *

وفي هذه الفترة لم يرتبط بخيط الفن — مع أن له خميرة فنية — ونرى كلمة خميرة — خيراً من كلمة خلفية .. ، غير أنه كان على صلة بصديق له فنان هو الأستاذ عبد الحميد بدوي — وهو غير الأستاذ الدكتور عبد الحميد بدوي — القانوني المعروف — بل هو مجرد تشابه في الأسماء .. وتلاقي الحروف —

مجرد مشاركة في الاسم .. ويخلق من الشبه أربعين — ومن تشابه الأسماء والألقاب .. آلاف ومئون .. ، كان صاحبه عبد الحميد بدوي ممثلاً مسرحياً .. ويعمل في المجال السينمائي ايضاً .. أو في بعض الأحايين كان الفنان عبد الحميد بدوي يسافر خارج مصر ، وتصاحبه في جولاته مجموعة من الفنانين والفنانات المصريين وزار طرابلس في العهد الإيطالي .

وكان من ضمن فرقته — إسماعيل جابر — القانوني

ومعه فتاتان اشتغلتا معه ، منوبلجيست .. وممثلة

عرفهما حمدي وتسامر معهما .. في ليال فنية

فتحية مصطفى ... منوبلجيست

وفتحية محمد .. ممثلة

أين ذهبت الفتحيتان في خضم الزمن العاتي ؟

لا حس لهما ولا أثر إلا ذكريات فنية يجترها حمدي في أسماره الطويلة وذكرياته البعيدة — وقدمت مجموعة عبد الحميد بدوي بعض

الأعمال الفنية في فرقة مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية بإشراف ونشاط حمدي أي كان لولب الحفلات ، والرابطة الفنية بين الشعبين الشقيقين في العهد الإيطالي الذي كان يؤرقه كل ماله صلة بالعرب والعروبة ..

وتوطدت الصلة مع عبد الحميد بدوي حيث ألقى حمدي لوناً من الأفاكيه والأطراب .. واسكتشات فنية من تأليف عبد الحميد بدوي ...

واستمر حمدي بالأدوار الكوميدية

اشتهر بلون الفكاهة .. واستمرأه .. فهو يكره التجهم والتقطيب والدراما .. هل يدخل الإنسان المسرح ليتفرج .. ويفرج على نفسه أو ليدمع ويهلع ، ويتكبس أى يصيبه كابوس ؟!

واتخذ حمدي شخصية فكاهية مسرحية عرف بها .. وعرفت به فترة من الوقت ، حتّى كادت أن تنسى الناس اسمه المسجل في شهادة الميلاد .. إنه اسم لشخصية فنية « عثمان عبد الباسط »

دور الخادم والسفرجي — وهو تقليد للممثل الفكه « على الكسار » مع أن هذه الشخصية المسرحية بظروفها وملابساتها ليس مكانها طرابلس — وفي الحقيقة لم تكن موجودة هذه المشكلة في طرابلس بل هي من مشاكل الجو الذي كان يعيش فيه « علي الكسار » ولكنه تقليد من بعيد .. ونقل لبضاعة كانت من منقولات الفن ، والأغرب ولأكثرمدعاة للدهشة أن حمدي الممثل الذي سار على درب « علي الكسار » لم ير في حياته « علي الكسار » ولم يدخل في حياته مسرحية له ، فهل هو من تفصيل المخرج الذي ألبسه هذا الثوب ؟

والأغرب .. ولأكثرمدعاة للدهشة مرة أخرى ان يكون هذا عندما كان علي الكسار ما زال حياً .. يرزق ويمثل أو يمثل ويرزق .. مع وجود حمدي في هذه الأثناء على بعد فركة كعب

شغلته دكاكينه .. ومحلاته عن لقياه ومشاهدته

* * *

وعندما عاد حمدي من مصر دفعه الحنين القديم والشوق الدفين إلى إعادة مسيرته الفنية بعد انقطاع طويل وعمل في الفرقة الوطنية للتمثيل مع إبراهيم المقهور وإحسان عزيز ،

أراد ان يعيد موات الفرقة .. ويبعث فيها شيئاً جديداً

وشيء جديد تدفق في خاطره .. أراد ان يعمل مؤلفاً مسرحياً

وفعلاً توكّل على الله .. بإلهام .. أو وسوسة من شيطان الفن وكتب مسرحية « طيش الشباب » ومسرجية (طريق الشيطان) بعد عودته من مصر عام ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ م وعمل معه الفنان حسن المصري صاحبه القديم الذي مكث بطرابلس أكثر مما مكث بالاسكندرية .. وأيضاً مثل معه إحسان عزيز وآخرون كان تمثيلهم لأول مرة .. وآخر مرة .. وبعضهم استمر .. ولكن استمرار سير المتلكئ المتعثر

وحاول حمدي أن يقدم أول فنانة على المسرح بطرابلس .

وجانب آخر في حياة هذا الفنان البوهيمي المجهول لدى الكثيرين هو جانب الملاكمة .. وما علاقة الفن بالملاكمة ؟

شيئان بعيدان .. قد لا يلتقيان على خشبة واحدة

والملاكمة كانت هواية حمدي منذ عام ١٩٣٢ م

في الثلاثينات .. ومرن على الملاكمة في مدينة طرابلس .. قبل أن يولد محمد علي كلاي وعهده الذهبي في الملاكمة وهناك زنقة حسونة باشا كان هناك مقر تتمرن فيه ألوان وأجناس مختلفة .. مختلطة .. إيطاليون ... ومالطيون .. ويهود .. وإسبان — أحرام على طيوره المناقرة ؟

وتسلل حمدي إلى المقر ملوحاً بقبضته .. مستعرضاً لعضلاته طموحاً إلى أن يوجه اللكمات إلى كثير من الأنوف والأصداغ يريد أن يجعلها صاغرة تلك التي تصعر خدها .

وقبضته كانت كرماح عنترة في الساحة

وشجع بعض زملائه من الطرابلسيين على ان ينزلوا إلى حلبة الملاكمة .. ولا يتركوا الساحة والمران لهؤلاء الدخلاء الأجانب .. فكان من الملاكمين .. عبد القادر جاد الله — رحمه الله — وعبد السلام القطوس — وكان بينه وبين الطليان ما بين القط والفأر — كان ذلك عام ١٩٣٣ — واشترك في أول حفل ملاكمة بعد أن عمل حمدي على تمرين الملاكم — علي فتحي — ويظهر أن فتحي كان حقل تجارب للكمات حمدي

وفيما بعد تشجع حمدي ونازل الطليان في عقر داره أو عقر ناديهم لأن الدار داره .. وليست موطناً للطليان فلاكم هذا الفنان والرياضي العربي أمثال : اسكمبيل — وتشيني — واجديلارو — وجود شاردين وغيرهم ممن سقطت أسماؤهم حتى عند الملاكمين أنفسهم ..

وعندما تكون — بعد سنين — في طرابلس نادي للعمال عمل له حمدي قسماً للملاكمة — ويظهر أنه كان يريد آن يأخذ العمال حقوقهم بالدراع والقبضات الموجهة .

أراد ان ينشئ لنادى العمال أيضاً فرعاً مسرحياً .. ويكون قسماً فنياً .. واشترك معه فؤاد الكعبازى — الرسام الفنان — في عمل الديكور للمسرح — وكان حمدي يتردد من أجل الناحية الفنية على مسرح الميرمارى ليشاهد مسرحيات ايطالية .. والفرق الأجنبية المجلوبة .

وكانت عودة حمدي من مهجره بالاسكندرية إلى طرابلس عام ١٩٥٦ م

أما حياته العائلية .. أو مغامراته الزيجية

فهو قد تزوج بالاسكندرية مرتين ..

ولكنه زواج عرفي

أي أن كلا الزوجين العصمة في يده

تزوج عام ١٩٤٧ م — ١٩٤٨ م

الأولى اسمها نجية — والثانية اسمها ليلى ،

ولم يدم الزواج فقد طلقته زوجته سليطة اللسان وهي من فرقة الاستعراض اللساني واليدوي

اذ رفضت ان تسافر معه إلى بلده ليبيا

ولم يخلف لا صبيان ولا بنات ..

وان عاش في تلك الفترة في ثبات ونبات.. كما تقول الحكايات وأسلوب الخرافات ...

لكن بعد أن فاته قطار الزواج ..

أو سفينة الزواج .. آثر أن يغامر مرة اخرى .. وهو في أواخر شوط المسير .. فتزوج من عام ٦٨ إلى ٧١ من امرأة اعترف هو بأنها تجاوزت الخمسين .. أي نصف قرن .

خمسة عقود باعترافه هو .. واعتراف شهادة الميلاد

ولكن هي عروس تكذب الاثنين

وآثر هذا .. لأنه لا يريد خلفاً .. ولا وارثا .. ولا وليا للعهد

ورغم أنه حماها — في صقيع العمر .. إلاإنها أيضاً أبت أن تسافر معه إلى بلد سبها . في الجنوب بأرض فزان ..

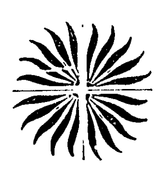
ولا تريد الغربة ولو داخل الحدود .. على حد تعبيرها .. وتبرير تمنعها .. وآثر أن يقدم لها ورقتين ... في ورقة االطلاق

• وفي ورقة مؤخر الصداق

وعاش كالشاعر المعري الذي كان عميداً للعزاب .. العازفين عن الزواج

ويهوى الرسم .. ويعزف على آلة طربول .. الآلة النحاسية التي تنفخ الأوداج ..

فتظل أوداجه في النفخ كقربة غير مثقوبة ...





أحمد الشعافى

وعلى الجابرية







كما تتلازم بعض الاسماء في الأشخاص والأماكن ، من التراث البعيد ، أو العصر الحديث يقال مثلا ، في الشعر ، شوقي وحافظ ، جرير والفرزدق . الشارف والمهدوى وفي الفلسفة الأسلامية ، الفارابي وابن سينا وفي الفلسفة الاغريقية سقراط وافلاطون في التصوف وسيرة الاولياء الاسمر وزروق في النضال رمضان وسعدون ، عمر المختار ويوسف بورحيل وفي النهضة الاسلامية الاصلاحية جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في الفلكلور الشعبي جحا وأبو نواس على بعد الزمان والمكان واللهجة والاتجاه أو فوارق الاتجاه بين جحا وأبي نواس .

وفي الاماكن قد تتلازم الاسماء أو تتداعى . في الواحات ببلادنا جالو وأوجلة ، وفي مناطق الجفارة دحمان وقاليل . وفي مصر — زفتى وميت غمر — الاقصر وأسوان . الحمام والعامرية وفي الاوصاف — زيت وحسا ، عيش وسمن ، خبزة وملح ، وفي نداء الباعة المتجولين بمصر كعك وسميط وهكذا مئات ومئات لوأردت أن تعدد في تلازم الاسماء وتلازم الصفات والنعوت ، ومرجع ذلك عند التحليل والاستنباط . إما للتعود وزحلقة اللسان . أو لصفات متلازمة فهما صنوان ، أو لطبيعة الاشياء ، والمجرد توارد الخواطر أو نوع من تنازع الذكريات والمعاني . حسب الصفات والاضافات في الحسيات والمعنويات .

وقد تلازم هذان الاسمان في محيط المجاهدين المهاجرين الشعافي والجابرية .

وقد عرفا من هضبة السلوم في أقصى الصحراء الغربية الى اطراف المنيا وما بعدها في جوف الصعيد الاقصى وريف مصر والدلتا ، هما نموذجان أو يكونان نموذجا متكاملا للأخوة الصادقة والصداقة الوفية ، لو تعرف عليهما أبو حيان التوحيدى لغير كثيرا من نظرته للصداقة والصديق ولأضاف فصلا ممتعا قيماً في كتابه « الصداقة والصديق » .

هما أكثر من شقيقين . أو على حد التعبير الأدبي في المحفوظات الأدبية – روح في جسدين أو على حد تعبير وتصوير مصطفى صادق الرافعى . يستطيع أن يقول الاول للثاني يا أنا – على أنهما من قبيلتين هذا من أصل – قزير – والآخر من – الصوالح – وكانا في كتيبة واحدة أيام الفروسية والجهاد . الشعافي ضابط والجابرية جندى مجاهد وهاجرا في قافلة واحدة وسكنا معا بعض في البدء بشط الاسكندرية احترف الجابرية البناء كعامل يومى والشعافي احترف الخياطة كمهنة لحفظ الأود . في الغربة ومشقة الطريق . وتزوج الشعافي أولا ثم تزوج الجابرية ثانيا . وصاهرا أبناء المهاجرين وكونا أسرة يعملان في دكان واحد بالتجارة بالعزبة الجديدة بالقبارى شارع الاخشيدى .

في نظام دقيق ومحافظة على الوقت وانضباط في المواعيد والسلوك ومراعاة لشعائر الدين والحفاظ على الصلوات في أوقاتها وكان كلاهما حافظة قوية وذاكرة مستوعبة لمواقع الجهاد ، ومعارك النضال التى ساهما في خوضها وان كان من طبع وتكوين الشعافي أنه اكثر تدفقا وإفاضة في الحديث والمسامرة والجابرية اكثر صمتا واقل حديثا لا يتكلم الا اذا سألت وان أجاب فباقتضاب وايجاز ثم يعود الى صمته وتأملاته الداخلية ، والشعافي مع طيب معدنه فيه شيء من الحدة والانفعال ، وتوتر الاعصاب أحيانا . ويتنرفز بسرعة أحيانا بينما زميله الآخر صبور صامت ، كتوم للسر كاظم للغيظ ومن العافين عن الناس – أقرب الى الانطواء وهدوء الطبع . كلاهما

كان في مطلع شبابه وعنفوان فتوته عسكريا في ميدان المجابهة الفعلية خاضا المعارك في مصراته وشطوطها ومداخلها عندما غزاها الطليان وطوابير المرتزقة من حثالة الباندات ، كانا شابين ونفرا مع النافرين للجهاد وكان الشعافي أعلى رتبة فهو ضابط — والجابرية جندى مجاهد ، متطوع . ولعل النظام العسكرى طبع حياتهما على الدقة واحترام من هو أكبر رتبة .

والمجتمع في ليبيا قبل أن تفسده ظواهر المادية كان مجتمعا فطريا بنى على الاحترام — وتقدير من هو اكبر منك سنا أو مقاما وعلما . وان كان المثل الشعبى لا يخلوا من مبالغة عندما يقول (اكبر بليلة يغلبك بكل حيلة) .

ولكنه احترام متبادل وعرف سائد . وتقدير متعارف عليه من غير إعنات ولا فرض ولا مواربة ولا نفاق سخيف ، بل هو بحكم أخلاقيات المجتمع وطبائع المحيط مجتمع كأسرة حكم الاقدمية في الرتبة والسن فكان الشعافي هو بمثابة الاخ الاكبر سي أحمد . أو أحمد أفندى — رابطة الأخ الاكبر بالأخ الاصغر وإن كان فارق السن ليس كبيرا بينهما .

وكان الشعافي من قراء جريدة الاهرام — أول ما وقعت عيوننا عليها في يده أو على مكتبه في الدكان فقد كان في ركن الدكان مكتب أو طاولة صغيرة وكنت أتلهف على نسخة الجريدة وأسارع لتصفحها وأكاد اخطفها من يده وهى مطوية — ولكنه يرى أن الصحف قد تلهى الطالب الصغير عن دروسه وواجبات المدرسة .

ويجب أن يهتم أولا بالواجبات الدراسية — كان هذا من قبل أو قبيل الحرب العالمية الثانية ونذر الحرب العاصفة على الابواب .

وكانت هناك مجموعة من الجرائد والمجلات نقبل على قراءتها في شغف متزايد ويقبع الشيخ عيسى الفاخرى ليتصنت في انتباه بأذنيه المرهفتين كقط نظيف وكان يشارك أبا العلاء المعرى في محبس واحد . ويهتز رأسه الصغير

حجماً لا معنى – في حركة آلية – ومذبته في يده وهى ذات يد عاجية ويهمهم ويكاد يصيح عند الخبر الهام . أيه عظيم – إيه رائع – . ! !

وتغلب عليه اللهجة الاسكندرانية المختلطة بالليبية–حاجة كويسة خالص – وكان الشعافي هو كاتب الحسابات والمسئول عن عملية الجرد السنوى والمبيعات والمشتريات من كبار التجار بالجملة – سوق الميدان – السكة الجديدة – المنشية ... الخ .

وهو المسئول على الرد على الرسائل والمكاتبات . سواء الكتابات المتعلقة بالتخليصات الجمركية أو المكاتبات الاجتماعية من التبريكات والمعايدات والتهاني أو المجاملات في التعازى والمواساة .

وكانت أكداس البريد ترد إليه أهمها رسائل المجاهدين في المهجر مراسلات ومنشورات هيئة الدفاع عن برقة – طرابلس – مراسلات بشير السعداوى – وعمر فائق شنيب وفتى بوغيلان .

وقد وزع العمل في الدكان الذى كان بمثابة ملتقى أو نادى عند العصر والمساء حيث كان يأتي كبار المهاجرين المجاهدين من شخصيات ورجال لها اسماء حفظها تاريخ النضال وأسماء طواها الزمن طى السجل للكتب أو حفرت في قاع الذاكرة وما أوسع وأعمق ذاكرة الزمان !؟ أو هوت ساقطة في ذاكرة الزمان في عمق أعماقه..أسماء تقرؤها أو تقرأ عنها أوتسمع بها أمثال . أحمد السويحلى – أخو رمضان – وسوف المحمودى – وولده عون وسوف دفين الاسكندرية مثل عمر بوحبيل ؟ وعمر بودبوس وعلى القن ومحمد الروياتي ، وعلى النالوتي ، ابراهيم دغدنة وبعيو بيت المال وكبلان ، وهى فئة كانت تعد من الصف الأول أو الطبقة الأولى من وجهاء لا يعملون كعمال في الشركات الأجنبية ولا يشتغلون بالتجارة بل هم على حد ذلك التعبير المتداول والاصطلاح السائد السائر – أعيان . وجهاء وساسة . ومشايخ عرب. على حد تعبير ابن البلد.. وأحمد الشعافي من درجة هؤلاء وجاهة وثقافة سياسية متوسطة وعملا تجارى أيضا يكد بيمينه وشماله قد

ينزل الى ساحة العمل في الدكان يبيع للزبائن والزبونات من بنات البلد المرتديات منديل أبو أوية أو المدندش بالترتر – يا عمى أحمد حتة جبنة .

أو يمد الاطفال الصغار الطبق ملاحقين أو متطاولين بأيديهم البنك والحاجز الخشبي . – ياعمى أحمد شوية عسل وطحينة . أو بمليم شاى . ومليم سكر وكان المليم وحدة عملة لها أثرها الفعلى والاقتصادى كان المليم يأتي بتموين لابأس به . سجارة كوتاريلي . سمسون معدن الخ وهناك عند الدكان الدكة الخشبية المستطيلة التى تنتقل في الشتاء عند ناحية الشمس – وفي الصيف الى ناحية الظل أمام منزل خالتك الحاجة أم حسن التى أصلها من مراكش استوطنت الاسكندرية وبقى لها من المغرب الحدة والشدة – ولهجة لا تستطيع التخلى عنها رغم أن لها قرابة نصف قرن في بلاد استوطنها المرسى أبو العباس وابو طاهر السلفى . وبيرم التونسى وعبد العزيز جاويش .

وهى ذكه أو مقعد خشبى مستطيل من خشب سميك يصلح للسفن أو أبواب القلاع يتسع لجلوس خمسة أنفار أرجلهم متدلية في الارض . من متوسطى السمنة . أو ستة أنفار من رفيعى الوزن ورهيفى الجسم .

وعند هذا الدكان وعلى تلك الدكة الخشبية والمقعد المستطيل جلس وتوارد عليها شيوخ وفرسان ومجاهدون وأساتذة وطلاب وعمال ومجهولون ومغمورون ومنهم من طلب الاستعمار رأسه ومنهم من طاردته اكثر من دولة ومنهم من تضخم ملفه في قنصلية الدوتشى . وهو يجوع يوما ويشبع يوما لعفته ومنهم الذى دخل باب التاريخ ومنهم من خرج من باب ونافذة التاريخ .

ألوان وانماط من المواطنين فيهم الشاعر الشعبى الذى لم يتقاض في حياته مليما أو دانقا أو سحتوتا أو فرنكاً على شعره بوحى من الفطرة الفنية .

وبأحساس من صدق وطنية كان ينظم الشعر الشعبى ويرويه وماأدراك مامحاولات بن دلة ابن الجبل الأشم ورفاقه وأيضا مر على هذه الدكة الخشبيه الشهيد الشاب الذى سعى الى فلسطين من أوائل الشهداء هناك الشاب م أبودبوس

فيهم المدرس والواعظ وشيخ الحارة ومن تزيتت يداه من براميل القطران والجاز من شركة شل وشركة فاكوم . ومنهم من غبرت يداه ووجهه وقفاه من شكائر الدقيق أو شكائر الاسمنت والجبس في المعمل أو المخزن الذى يعمل به . ومنهم الشاب الشهيد بودبوس ومنهم السويحلى وبو حبيل وقصيبات وباعة الكسكسى عند الفجر – وكان الكسكسى بالسكر والسمن يباع في الاحياء الشعبية على عربات يد ، والتوقيت عند الفجر ولست أدرى سر هذا الاختيار للتوقيت المبكر لعله عامل طبي للصحو الباكر والصحن الحلو الساخن.

أو هو تعود عن طريق الصدفة في الاختيار . في ذلك المجتمع الصغير كان أحمد الشعافي هو قارىء الجريدة بطريقة مسموعة واضح الحروف والنبرات وله ايقاع وما زال صوته متهدجا وان أغضب سيبويه شهيد اللغة وضحية النحو وطقطق في قراءته عظام الفارسى والبليغ نفطوية .

ونتف في غير رحمة ريش بن عصفور ولكنه كان يهتم بالموضوعات الوطنية في الجرائد والمجلات يقرؤها أولا ولا تخلو قراءته من تعليق واستنباط ورؤيا لمستقبل ليبيا على ضوء هذه الاحداث العالمية وانتظار لسقوط جبروت موسليني .

وبعد قراءته للاخبار السياسية لا بأس أن يفلى الجريدة أو يمشمشها ويمصمصها وان كانت كلمة يفلى ويمشمش ويمصمص ليس مكانها هنا فلنقل يتابع القراءة . أو يفحص ما فيها من حوادث داخلية وخارجية اشياء تتعلق بتشمبرلين ثم خلفه تشرشل وحوادث الخوذات المقلدة وقضية اخذت ضجة في أيامها تزيف النقد .

وقضية السطو على البنك الاهلى وقضية أحمد سالم الطيار والممثل وقضية مقتل الراقصة بعنق زجاجة في صالة بعماد الدين . وكانت من خدينات زكى طليمات . عندما كان الفنان في عنفوان عفرته إنها الراقصة امتثال فوزى.
وقد يقرأ هو أو غيره الاشياء المتعلقة بالفن وهذه الاجواء همسا على انفراد .

وكان الدكان من أملاك خالتي أم شحاتة الاسكندرانية التي كانت تمثل أصالة بنت شاطيء الاسكندرية في شخصيتها المتكاملة ويتوافد على دكان أحمد الشعافي أو ندوته جمع من هؤلاء المهاجرين الشيوخ الذين احاط بهم الوقار غير المصطنع بملابسهم الزاهية ونفوسهم الابية الصافية والطواقي الحمراء ذات الذؤابة من فتائل الخيوط الحريرية السوداء المتدلية على الأكتاف تلفت نظر الأطفال والنسوة في الاحياء الشعبية في أعماق وأطراف الاسكندرية ينزلون جماعة ويجلسون جماعة وكان الكرم ودماثة الخلق موزعة بصماتها على الجميع ويلتقون في بيت أحمد الشعافي وعلى الجابرية على قصعة رشتة كسكاس على لحم بتلو أو قصعة بازين لحم علوش وتوابله ولوازمه ثم حديث الوطن البعيد هل يعود هؤلاء المهاجرون ؟؟ أو يرقد بعض منهم عند عمود السوارى الاثرى أو أم قبيبة في طرف المتراس بالاسكندرية . ؟؟

وكانت قنصلية إيطاليا تغرى هؤلاء بالعودة وتوزع مجلات مثل ليبيا المصورة ولكن كان هؤلاء الأحرار المهاجرون ضد دعايات ودعاوى الطليان ومطامع المتطلينين وعند ملتقى دكان الشعافي والجابرية ودكاكين غيرهما أيضا من المهاجرين من ابناء ليبيا احتدم الجدل واحتد النقاش والتحم الحوار وارتفعت أصوات وهم يتناقلون الانباء من وراء أسوار البلاد .

مع أن القصر الملكى في عهد فؤاد كانت له صلة بالطليان أو بالاسرة الحاكمة في إيطاليا عائلة فكتور عمانؤيل لكن الاحرار الشرفاء من ابناء الشعب كانوا مع قضية المهاجرين ونضالهم ومنهم أيضا الامير عمر طوسون الذى آزر عمر المختار ورفاقه .

وكم قرأت سطورا من الانباء والاخبار وما بين السطور أو ما وراء السطور من الأخبار والأحوال . اهتمام بالسياسة وأحوالها قد لا تجده عند طائفة أخرى . وهم تجار وعمال كانوا يشكلون نمطا عجيبا من طينة وأصالة هذا الوطن العربي المسلم في الحفاظ على القيم والمثل . بينما كانت هناك فئات وأنواع من التجار والسماسرة الهلافيت من بعض البلدان الشرقية أو تجار

اليونان يبيعون كل شيء من لحم الخنزير الى الجبنة والنبيذ المعتق والبسطرمة والبولوبيف الى تهريب الدخان وتهريب أشياء أخرى غير الدخان من الضباب الازرق وأنواع من الممنوعات والمحرمات شرعا وذوقا وقانونا ومن أهل اليونان من وصل الى مركز مالى مثل جانكليس الذى غدا مليونيرا بمزرعته النموذجية وكرومه وعصير كرومه .. وهناك أنواع وأشكال ساروا في ركاب الحماية الأجنبية والرعاية للقصر أو لغيره من أنواع تجار القطن والبورصات وارتكبوا أو ركبوا كل موجة موصلة الى الهدف المالى والثراء غير المشروع وتكونت منهم على الشاطىء السكندرى فئات من بعض الشوام واليونانيين والقبارصة والنماردة تجار الخشب والقطن والمضاربات وأسهموا مع تجار من اليهود وغيرهم من الطوائف .

تلك جماعات وأنماط يعرفها التاريخ العلنى والسرى لتلك المرحلة من الناحية السياسية والاقتصادية .

ولكن هؤلاء الشرفاء الاحرار هؤلاء المهاجرون من ابناء ليبيا هؤلاء المحافظون على دينهم ووجدانهم نوع آخر . صنف آخر . لهم فعلا حس تجارى ونشاط تجارى لكن وقفوا عند حدود الشرف وراعوا حدود الله واحتفظوا بطهارة الوجدان ، وصفاء الذمة في أباء واعتزاز .

وقد يحلو للانسان وقد ابتعدت الصورة . وغدا الجميع في سجل الزمن أن يقارن بين هذه النماذج من تجار شرفاء مثل الشعافي والجابرية من تجار الاحياء الشعبية في أحلك الظروف لقضية بلدهم .وبين أولئك الاجانب وأصحاب القبعات والرطانات والضمائر الصدئة أولئك التجار الاجانب الذين تاجروا بكل شيء حتى بالشرف والقيم وعند الموازنة والمقارنة يزداد الاكبار والاحترام لهؤلاء المجهولين العاملين لقضية الوطن في صمت .

أحمد الشعافي كان ينزل إلى سوق المدينة صباحا في السكة الجديدة والميدان حيث تجار الجملة ومخازن البيع ليبضع منها ويوصى على الانواع التى يريدها ثم يأتي بها صناديق وجوالق وربطا وأكياسا ورقية أوخيشية –من الخيش–

عمى فرغلى على عربته. وعمى فرغلى الفلاح الاسكندراني ذو العمامة البيضاء على طاقيته ذؤابة مستطيلة كاهل السنة متدلية على عنقه وكتفه مثل « السبكية » التابعين للشيخ خطاب السبكى الذى انبثقت جمعيته الشرعية في حى المغربلين والحيمية بالقاهرة . وكان السبكية منتشرين من الدخيلة إلى النجيلة .

وكان فرغلى يجر عربته حمار هزيل صبور ويكون بجانب أجرة عمى فرغلى أيضا رغيف من الخبز الساخن مسقى بالسمن مدرورا عليه شوية سكر بدرة الناعم الذى كان يوضع في الاعياد على الكعك وأنواع الغريبة . وتقطع عربة فرغلى وحماره المسافة ما بين الميدان والمنشية الى ناحية القبارى والعزبة الجديدة وعزبة باشا والورديان والمتراس والمكس في رحلة يومية موزعا البضاعة على أصحابها البقالين المهاجرين – أو المغاربة كما كان يطلق عليهم .

ولا بأس من تناول كوب شاى الأخضر المنعنع – أو الشاى الاحمر بحبات من الكاكاوية أو الفول السوداني (بلهجة ليبيا كاكاوية) وكان الشعافي عند تهيئه للنزول للسوق يرتدى لباسه الذى يصر على أن يكون مكملا له الشال الصوف الذى يلفه على كتفه . وتحت الشال الطاقية الطرابلسية الحمراء ذات البسكل .

وجلسة الشاى الاحمر في الصباح قبل الساعة السابعة بأدواره الثلاث وفي الليل بعد العشاء الشاى الاخضر موزعة العملية لصنع الشاى الصباحى – الجابرية – والشاى المسائى الشعافي – والاكل سويا في مواقيت منتظمة – وتوزيع العمل بدقة كأنها عقلية أوربية منظمة أو كأنها دقة الفيلسوف الألمانى كانت في ذهابه وجولاته وانضباط عمله .

كانت حياتهم منظمة مرتبة في غير رتابة مملة . زهاء عشرين عاما بالاسكندرية حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ودورية الصباح في الدكان للجابرية ويهجع هجعة القيلولة قليلا ثم الدورية للشعافي ويتسلم الدور من الجابرية لأن الشعافي عليه وردية السهر والجابرية عادة ينام مبكراً ليتسلم في الصباح الباكر ويسهر الشعافي ويمتد به السهر إلى ما بعد الثانية عشرة أو الواحدة ليلا في هدأة الليل حيث يكون السهر وتتناثر الذكريات عن الوقائع والمعارك

والاطوار السياسية لتلك الفترة التى تقرأ بعضها في كتب الدراسات والتاريخ بلا تفاصيل ولا جوانب خفية..ولكن كان لدى أمثال هؤلاء من المعانين المشاهدين التفاصيل الوافية والدقائق عن خفايا الحقائق . بل هى ثروة تاريخية وذكريات ضاعت في هاتيك الايام وتبددت في السهريات كانت في حاجةالى كاتب أمين ومسجل دقيق منصف ليت ، وهل ينفع شيئاً ليت . ؟!

وعلى جلسة الشاى الأخضر تكون قراءة تلك المطبوعات والنشرات التى كان يرسل بها المجاهدون خارج ليبيا وداخلها وخاصة رسائل جمعية الدفاع عن برقة — طرابلس ، تلك الرسائل التى كان يرسل بها من مهجره بدمشق المناضل بشير السعداوى وصحبة من المهاجرين مثل فوزى النعاس وعمر فائق شنيب ، ولا زلت أذكر ذلك الكتاب ذا الغلاف الاخضرالذى وزعه المجاهدون ضد ايطاليا وما قاله وطلبه بشير السعداوى ويرن فيأذني صوت أحمد الشعافي وهو يقرأ في تؤدة وعلى مهل وحوله تتحلق مجموعة من المهاجرين عمالا وتجارا وانصاف أميين ويبهرهم كلام المناضل ، وينصتون في انتباه ممزوج بالاكبار والامل في يوم العودة للوطن .

وعلى الجابرية كزميله مستقيم حسا ومعنى لم يدخن كلاهما في حياته سيجارة ولم تعرف شفاههما الكأس وألوانها ومشتقاتها ، سوى الماء القراح ، أو الشرب الحلال الزلال .

ولم يدخل الجابرية ولا الشعافي في حياته سينما أو مسرحا ولا جولة ترفيهية بل هى استقامة من العمل الى البيت طيلة الحياة وهذا لا يمنع من فضفضة النفس والدعابة البريئة والسهر الحلال وبحكم سماعهم دروس الدين والمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها كانت صلواتهم اداء في

أوقاتها لاقضاء بعد فواتها وبعض المشايخكانوا يجلسون في الدكان . والمنتدى المسائى بمثابة صالون ثقافي من هنا كانت لديهم نافذة فكرية فقهية وحفظ هؤلاء المحافظون الكثير من أحكام العبادات والمعاملات والتاريخ الاسلامى والطرائف الادبية والروايات الشفاهية .

وثقافة الاستماع والرواية أو الادب الشفاهى كان لوناً سائدا في تلك المجتمعات . وهناك مجموعة من طلاب العلم والدارسين في معهد الاسكندرية الديني يترددون عليهم عندما كان المعهد بالقبارى وهؤلاء علماء وطلاب علم وكلمة من هنا ، ولقطة من هنا ونكتة من هنا وفائدة من هنا والمثل يقول (الميه ما تمرش على عطشان) كانوا في التجارة يعملون ليل نهار طوال السنة صيفاً وشتاء وربيعا وخريفا حتى في أيام الجمع الا وقت يحرم البيع فلابد من السعى اليها تطبيقاً لقوله تعالى (إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فأسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع) .

والشعافي والجابرية لم يأخذا اجازة ولم يعرفا ما يسمى «بالويك اند» وحتى البحر على قيد خطوات منهم يشمون هواءه كل يوم ولكن لم يغطسا فيه من غطستهم في (ابوشعيفة) والجزيرة وقصر أحمد لم يعرفا شواطىء البحر الابيض ومغاطيسه ولاتصييف المصطافين وبالتالي لم يرتديا «التبان» — ملاحظة — لغوية وفائدة قاموسية (التبان هو السروال القصير يطلق لغويا على سروال السباحة والعوم) ما يعرف بـ مايوه — . وضربت طائرات الالمان شاطىء الاسكندرية وتهاطلت القنابل حتى على الاحياء الآهلة بالسكان وضرب حى القبارى بطوربيد الماني في الغارات الجوية وقرب المنزل كانت سلخانة صغيرة وكركون أى مركز شرطة صغير وتوالت الغارات رغم الخنادق والكمامات وإطفاء الانوار والفوانيس الزرق وأكياس الرمل وكثرة المخابيء لكن عيون الالمان حمراء وخاف الناس من الالمان لا من حلفائهم الطليان فقد كان أسارى الطليان بالطوابير فرجة وشماتة للناس أجمعين خاصة المهاجرين وبقايا المجاهدين .

وهجر الناس الاسكندرية عروس البحر الى أحضان الريف وهاجر الشعافي والجابرية الى الدلنجات بالبحيرة .

القرية أو البلدة التى كان لديها من الشعراء روائع المبدعين ومن المفاليك الذين هرب من طريقهم الحظ . حظ الدعاية وصولجان الشهرة

أحمد محرم وكان فيها من الليبيين بعض العائلات منهم عبد الرحمن الزقلعى. وجو الدلنجات نفسيا واجتماعيا يناسب أهل طرابلس وهى ريفية عربية بها عائلات ترجع الى الشمال الافريقى. وكانت تسمى لديهم -طيبة الاسم- فأن الدلنجات كلمة ثقيلة على الذوق عند بعضهم ومكث الشعافي والجابرية بالدلنجات سنوات طوالا لم يبرحاها الا لدمنهور واحذر ان تذكر المثل الشعبي في سوقها الف نورى .. ولا دمنهورى ، فيمسك بخناقك أهل السوق فكلهم تجار اقتصاديون شطار باللغة الفصحى واللهجة العامية .

ولم يذهبا الا للضرورة للقاهرة والاسكندرية أو التوجه الى الاراضى المقدسة لاداء فريضة الحج ولم يقف الشعافي في مركز شرطة الا مرة واحدة دعاه مأمور مركز الدلنجات أيام الحرب وظل الرجل يسأل خير إن شاء الله .

فقد هرب أخوه الذى جندته ايطاليا إكراها هرب من الاسر فقد سيق إرغاما مع ألالاف ليغزو بهم الطليان ووجدها الليبيون فرصة وهربوا من معسكرات الاسر. من التل الكبير وغيره وكان عنده عنوان أخيه وطب عليهم ذات عشية وكان العناق الحار ودمعات الوفاء وآوى أخاه ولم يبلغ عنه رغم شدة القانون أيام الحرب والاحكام العرفية وظل سنوات وأخيرا استدعاه مدير المركز وطلب إعادة الاسير وتسليمه لسلطات الانجليز وظل الرجل يبحث عن أخيه مترجيا المعارف والوسطاء في كرداسة وابى رواش ومعمل الخشاب وبعض الكتبة من المترجمين في الجيش الانجليزى ولا فائدة . وقالوا له — أحمد الله انك لم تحبس بتهمة إخفاء اسير أيام الحرب ومرت أيام مسرعة ومتباطئة وحارة وباردة .

وأصيب الشعافي بمرض خطير — ذلك الذى حار فيه الطب الى الآن ويوم أن يكشف الطب جذوره وعلاجه الجذرى سيكون عصر به يؤرخ علمية وحضاريا أكثر فائدة للانسان والعائلة الانسانية من الهبوط على القمر أو اقامة حفل تعارف على سطح المريخ مثلا كان ذلك المرض الفتاك يأكله من الداخل وقالوا إنه بسبب صدمة حزن وهزة ألم مفاجيء على فقد ابنه البكـ

وظل الرجل يذوب ويشحب . قطرة . قطرة . حتى غدا كعود الخيزران .
ومن رآه اشفق عليه اين تلك الوجاهة والصوت الذى يدوى زائرا من

الزئير كان يرى ابنه عكازه في الحياة يحنو عليه ويتطلع الىحلو الامال في حياته .

وذهب بالشعافي المرض العضال ووري التراب بالدلنجات ، وطويت صفحة ضابط مجاهد انتهت حياته بقالا في شاطىء الاسكندرية وريف البحيرة ومرت سنون وظل صاحبه وزميله كالرئة الواحدة يشعر بالفراغ وصدمة فراق العمر ورفيق الجهادين . جهاد النضال وجهاد لقمة العيش ويشاء القدر ان تكون نهايته أيضاً مرضاً أقعده نتيجة صدمة ألم وحزن وكان رقيقاً لم يتحمل حواراً مع مأمور مركز فيما يتعلق بشؤون التموين كان عزيز النفس كريم الأصل مرهف الحس ـ أنوفاً .

ووقع على الارض وحمل حمله بررة من أهل الريف الطيب والبلد المضياف وظل قعيد البيت مفلوج النصف على سرير صابرا مؤمنا . صبر أهل الايمان وعزم أهل اليقين حتى لفظ انفاسه هناك بجوار زميله رفيق السلاح الذى يعتبر شقيق روحه وزميل عمره .

لا يدرى بهما أحد من أهل بلادهما التى ساهموا في نضالها ومعاركها طويت تلك الحياة بلا وسام ولا كتابة ولا ادعاء ولم يذكرهما التاريخ وقد ساهما في معارك يذكرها التاريخ في الزحام والخضم طواهما الظل .

وربي الشعافي والجابرية ابنائهم تربية طيبة ورزقا بذرية صالحة .



عبد الرحمن الزقلعي

دائرة معارف فى سهرية



عملاق في ضخامته ، من بقايا العماليق طولا . وعرضا .

هشوش ، بشوش ، قد لاتظن ولايخطر على بالك – لأول وهلة – عند ما تشاهد ضخامته ، وتلمح هيئته انه يحمل تلك الروح الخفيفة ،وظرف النفس ، والدعابة الحلوة .

يتزيا بزي العلماء .. له وقار غير مصطنع ، واحترام غير مزيف وتقدير من معارفه غير متكلف، ..

هو جعبة من الذكريات،قاموس للحوادث . والمشاهدات ودائرة معارف للمعلومات العامة .. والأشخاص والمشاهدات ، عرف طيلة أجيال متطاولة.. الخبايا والنوايا .. وما في الأركان والزوايا ..

طاف بعواصم أوربا في جولة سياسية .

وطاف أيضاً بجوف القرى في أباعد الريف .. وفي واحات الصحارى . من الزنتان والرجبان ودحمان ومن سيلين الى اجدابية والكفرة وجالو وأوجلة وصحراء سنتريس .. الى روما وباريس والفاتيكان واسطامبول وبلاد الباغوش والماغوش والماهوش ولبس القفاز الأبيض في حفلات دبلوماسية

ومقابلات إمبراطورية وذهب الى طنطا بلد السيد البدوى وصاحبه عبد العال..

ونواحى ابى حمص .. ثم استقر به المطاف في كفر الدوار ودمنهور ..

والدلنجات .. وما حواليها ..

اكل الفالوذج والبغاشه .. وتناول العشاء مع الباشا وارتعد من البرد عندما عضته الحاجة بنيابها القاسية حضر دروس الإمام محمد عبده بالرواق العباسي وعاصر تلامذة الأفغانى —ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش..

اكل المهلبية والقشطة .. والياغورت .. من مأكل يلدز وزوار يلدز.. وأكل التمر والصيص .. والفكريس .. والدشيشة .. والعسلوج . في سوق الجمعة والعمروص .

يتحدث عن ذكرياته في طلاقة وفصاحة وتثبت .. بلا تضارب في سرد الذكريات .. ولاتناقض عند المقارنات .. يذكر الأسماء والألقاب ، والنعوت والأرقام والأماكن وحتى الهوامش ، والشكليات . والجانبيات ..

ويستحضر من غير إعنات — حتى الحوار الحرفى الذى يكون مضى عليه ثلاثة أرباع القرن أوما يقاربه .

سواء كان حوار فكاهة عند حائط سوق من أسواق العطارة ، وزنقة الدباغ . وسوق الرباع والفنيدقة . او حوار في قصر الإمبراطور الإيطالى في الرحلة الرومية ايام سفرته السياسية أو حوارا في قصر عبد الحميد السلطان او حوارا في صحن الأزهر — حفظه الله — أى الآزهر من عوادى الازمان.

ويذكر الشيخ عبد الرحمن الزقلعى ذكريات الرواق والصراع النبابيتي.. أو التقاذف القباقيبي بين أتباع الشيخ عليش وخصومه .. في تيار المد والجزر لهاتيك الأجواء ،

ويذكر مفاوضات المجاهدين في وطنه أيام المصاولات

درس في مكتب طرابلس بالمدينة القديمة ..

وفي المدرسة الرشدية .. وفي جامع أحمد باشا القرهماللى وفي مدارس الأتراك .. وفي الجامع الأزهر ..

ووظف بالخمس — من ساحل الشاطىء الطرابلسي

وكان موظفا مع زميله بشير السعداوي .. وكان معه من المعجبين بالزعيم الوطنى الغيور مصطفى كامل ..

وكـــان الاثنان .. السعداوي .. والزقلعى .. كما حكيا في أسمارهما وذكرياتهما .. يلتهفان على صحافة مصر في تلك الأوقات من مطالع هذا القرن .. جريدة اللواء .. وجريدة المؤيد وما يكتبه الأحرار العرب من المسلمين المتحمسين مثل الشهيد عبد الحميد الزهراوي ومن على شاكلته وعندما كانت إيطاليا تمهد لغزو طرابلس كان عبد الرحمن الزقلعى مع نخبة من شباب جيله يمثلون الطليعة الواعية ذات الحس الوطني والادراك اليقظ .. مع بشير السعداوى الذى كانت تختمر آوان ذاك —خميرة الزعامة الوطنية لديه ..

فعمل الاثنان على القيام بحركة أحتجاج ومعارضة لزيارة البعثة الايطالية التى كانت برئاسة الكونت سفورزا عام ١٩١٠ م وكان ظاهر البعثة او حجتها أنها تقوم برحلة ذات طابع أثري .. ودراسة علمية . والكشف عن معدن الفوسفات، ولكن كانت هناك بواعث ونواياااستعمارية، فقد كانت تقوم بعملية تمهيد ورسم خرط وتصوير مناطق .. بل وجس نبض لبعض العملاء .. مما هو معروف في التاريخ السياسى والوطنى..وعقدشباب المنطقةمؤتمراً وطنياً وقاموا بمظاهرة احتجاج..كان ذلك عام ١٩١٠ وكان لعبد الرحمن الزقلعى دور ذو أهمية عند وقوع الغزو الإيطالى في أكتوبر ١٩١١ م.

وحمل السلاح في تلك المناطق وعرفه المجاهد عمر النعاس في منطقة لبدة عند ما كانت من متاريس الجهاد ..

ولا غرابة أن يخوض غمار القضية الوطنية فقد ساهم بالمظاهرات والخطب الحماسية — بشهادة جيله — والمناقشات الحادة وفي اواخر العهد العثماني وأوائل الإحتلال الأيطالى اكتوى بنار السياسة ..

وعرفت صفحات حياته الإبعاد — والمراقبة — والتهديد — والهجرة ومتاعبها ..والغربة ومذاقها .

ودفع الضريبة عن طيب خاطر .. كان كبير العزم ..فلم يعرف الشكوى أو التبرم ..أو « التنقنيق » والمن على الوطن ..بل كانت بسماته أكبر من جراحاته ،

وإيمانه اكبر من صدماته ...

كانت ذكرياته عن بشير السعداوى ورفاقه لا تنضب إذا أفاض فيها وتدفق ..عندما يجلس ليستعرض سوالف أيامه ومواضى أماسيه .. وحلو ذكرياته . أو غوابرها ..

وغرائب من خفايا الوقائع ..

محدث من طراز ممتاز ...

مسامر من جيل مضى ..ذو طابع مميز بين المسامرين مثقف ..بمستوى ثقافة عصره ..

ثقافة تحمل مضامين الاطلاع — والتعلم — والتجربة — (وإن كانت كلمة « مثقف » ركبها عفريت المصطلحات .وطارت بركتها ..وغدت من الكلمات التى تتمطط ..وتتمدد ..وتتقلص ..وتنكمش ..وصعب على أهل الفن ضبط إيقاعها ..) المهم بالتأكيد ..هو مثقف ..

مر على الأمهات ،

نقصد أمهات الكتب المعروفة في عصره ، وامتداد عصره .لكن ليس فيه جمود ..ولا جحود ..ولا هو بالكنود ، ولم يشرب من بئر ذات الكنود ،

ليس به تزمت ، عفيف ..طاهر اليد والوجدان ، كان يستطيع بما عرف من شخصيات وحكام – أزلام – وزلمات بلهجة الشام – أن يستغل – لكنه عزوف عن المال ، زاهد في المناصب . غير طامع فيها بحكم تكوينه الثقافي أو تربيته الصوفية ، والصوفية ليست مرقعات وسلبيات بل عزة نفس ،وهمة وصفاء ..وطهارة وجدان ..وتجارب الحياة هى التى تصفى النفوس ..

فقد سمعت عنه كثيراً ورأيته ..وحضرت « سهرية » اسماره ..وأنا كنت في مطلع شبابى ..وهو كان في أواخر أيامه .. ومنتهى مطافه ..أيام أن كنا بالمهجر ..،أو الهجرة في الهجرة ،

فقد هاجر المهاجرون مرتين ،

مرة الى الإسكندرية ، وصحراء مصر ..أيام زحف طوابير الفاشية عندما كانت دكتاتورية الطليان تبيد الشعب ،

وعندما كملت أشواط الجهاد وتغلب الطليان على البلاد .. هرب المهاجرون وأهل البلاد هناك من من غارات النازية وجنود رومـــل .. من أصحاب الأحذية الثقيلة وهى تزحف بعد العلمين وسيدى عبد الرحمن ..

وهاجروا إلى منطقة الدلتا ..

وكان نصيب هؤلاء الصحاب والأقارب .منطقة البحيرة ..هناك في « الدلنجات » ..

ولكن عبد الرحمن الزقلعى كان مهاجراً الى ..الدلنجات ..قبلهم هو وأخوة – كان بين الأخوين عموم وخصوص مطلق كما يقول المناطقة من الأزهريين ،

يجتمعان في مادة ،

ويختلف كل منهما في مادة ،

يجتمعان في شكل الزى والهجرة ..وهدوء الحال ،ولكن عبد الرحمن

بحر من الذكريات ..جعبة من التجارب والحقائق ..شاهد من شواهد التاريخ الوطنى والحياة الاجتماعية للبلاد ..فارس مجلى في عصره ..

عالم بفنون شتى ..عمل في حقل الصحافة والخطابة والمصلات الاجتماعية ،

وعرك وفرك ..السياسة والكياسة ،

لكنه تهرب من الزعامة والرياسة ،

ويتذكر أيام حلقات الدراسة وأيام السعادة والبآسة.. وكان من شيوخه ومعارفه الشيخ فالح المهنوى الظاهرى الحجازى المهاجر في ليبيا والذى أصلح وهذب وشجب — من التشجيب ..لا من الشجب الاحتجاجي — كتاب أحمد النائب (المنهل العذب) ،

وكان أيضا المؤرخ النائب والصحفى عثمان القيزانى من خلانه وأبناء

جيله .. وشتان بين عبد الرحمن الزقلعى وأنواع من زملائه الآخرين .. وأبناء جيله المتوارين ..

هو يمتاز عنهم بأنه فيض من الذكريات .

والجيل يولد أنواعاً .«والبطن تجيب صباغ ودباغ ». ،في أسماره يذكر زميله في الرحلة الرومية ..عبد العزيز العيساوى ..ويذكر اسطامبول : وليالى اسطامبول ، وأمسيات اسطامبول ..وان كان لم يبق منها لدى الفلاحين وأهل البلاد الا شيئان ملتصقان بهذا الاسم ، الجبنة الأسطامبولي ،والكنبة الاسطامبولى ..وعلى التاريخ العفاء والهباء ونفخ الهواء ،

ويذكر أيام ربات الجمال والدلال وما وراء حكايات من الشرق وقطار الشرق في هاتيك الأيام التى كـــان بها أبو الهدى الصيادى ، وظافـــر المدنى .. وولى الدين يكن ، والمويلحى .. وعبدالله النديم في كتابه اللاذع المقذع

المسامير ..هل تتوارى منها أو منه بعض أساليب الصحافة المعاصرة؟! وكان في انسجامه وسمره يسرد تلك الحكايات والقصص التى لو وجدها فنان مبدع لأخرج منها بالريشة ألواناً ..وأصباغاً ..أو بالقصة لوجد سدى ولحمة لأقاصيص فيها بدائع الروائع .

ويذكر تلك الفترة البعيدة السحيقة من تصارع التيارات في مداخل البسفور .. مما يصلح أن يكون موطن دراسة اجتماعية وسياسية ذات أبعاد ومبعدات وبهارات ..ومبهرات فقد كان شاهد عيان لها ..أو قريباً من عدها و كان من المعجبين بكفاح عبدالله النديم وأسلوبه ومغامراته ، وكانت لديه ذكريات عن ظافر المدني خصبة طويت مع سجل حياته .

وكما يذكر رحلته إلى أوربا – وهى رحلة سياسية للمفاوضات ولا وقت فيها للتصعلك والتفرنج هو يذكر ايضا رحلة الشباب والفتوة في دار الخلافة ثم الأهم من كل هذا في المناطق والأحياء .والأنحاء « الباب العالى»

ويذكر إخوانه في وفاء ويغلف حديثه بالحب ولا نشم منه رائحة للحقد أو الشماتة أو السم الذى يقطر أحيانا من أهل المعاصرة والمنافسة عندما يتحدث بعضهم عن بعض بل لم تكن المعاصرة لديه حجابا..بل هى عين الرضا عن أصحابه أو كما يسميهم إخوان الصفا وخلان الوفا ماسمعناه ولا سمعه غيرنا يذكر سيئة لصديق أو مثلبة لإنسان .. كأن العالم كله خلق في نظره على خلق حسن ..او كأن الأجيال جلبت على الفطرة والبراءة ،أو كأن عينيه لا تقعان إلا على ما يحب من الصفات فلم ينس أصدقاءه وزملاءه .. شط المزار – أم بعدت العهود والديار ، لم ينسهم في سمره الطيب وحديثه العذب ومراسلاته ومكاتباته ومعايداته .. بينما نسيه وأهمله كثير من الصحاب والرفاق عندما تسلموا مراكز وقيادات بل ومسئوليات جساما في عصرهم وبلدهم وغدا بعضهم من أهل الحل والعقد ،والربط والفك ،لم يذكروه– ولم يلتفتوا إلى هذا العفيف النزيه حتى ذلك الذى في فترة – تملك حكماً ، وغدا مسئولا ..في غوابر من الأيام ..ومنهم من أثرى وأصبح في قصور

ودور والزمان كساقيه يدور ..وهو في قرية نائية عاش مع سطور التاريخ وصفحات الذكريات ،

في قرية ..أو قرية كبرت فيما بعد إلى مجلس بلدى والسياسة ..أو هوس السياسة كالفن عند أصحاب اللطعات الفنية ان تركت ميدانه .أو ابتعدت عنه .لا يبتعد عنك ،تطاردك هواجسه ،وشياطينه ، وتؤرقك بشكل ما ، وكان يتمثل ذلك ، أو تبقى من ذلك الميل ، متابعة نشرة الأخبار سيما الرئيسية منها – أو الرئيسة على ضبط وايقاع المتحزلقين من اللغويين ،

وكانت النشرة الخبرية في موعد الثامنة والنصف مساء ، وقراءة الجرائد ذات الطابع الإخبارى السياسى مثل جريدة الأهرام – والمصرى، ومازال أمام ناظرى متمثلا الشيخ عبد الرحمن الزقلعى رغم الثمانين وما بعدها التي كان يحملها على كتفه .. وما احتاج إلى ترجمان ..يتوكأ على عصاه لعلها بقية من عز إسطامبول ومنشة من التى كان يستعملها الوجهاء والعمـد في الريف . ويأخذ مكانه عند شجرة عتيقة لا يعلم أحد من غرسها منذ عشرات السنين كانت ترسل ظلالها ..عند محطة الدلتا في ذلك القطار الذى يأتى ويذهب بلا مواعيد .ويتوقف على المحطة كما يشاء وكان يجلس عند مقهى عمك « رشاد » وألاحظ الشيخ عبد الرحمن قادماً فأهب لتحيته ويجلس طالباً فنجان قهوة من بعد أن يرد التحية بأحسن منها ،كان طلبه فنجان قهوة لا يزيد الطلب ولا ينقص ، وعندما تعلن الإذاعة بموسيقاها التميزية عن نشرة الأخبار . يرهف الشيخ العجوز سمعه بكل تثبت واهتمام ويتابع الأخبار الخارجية . والأنباء العالمية ثم يبدأ لديه دور التحليل .. والتعليل ، والأستنباط والاستخراج للأخبار ..في جلسة السهريّة وهى غالباً ما تكون في بيت الشعافي والجابرية بعد العشاء على موقد الشاى على الطريقة الطرابلسية الذى قـد يستغرق صنعه وقتاً طويلا ..ولكنه وقت كان يذيبه السمر العلمى والحديث السياسى .وأطايب المفاكهات ..وطرائف النوادر وتصبغ عليه ذكريات هؤلاء جواً أدبياً ..وإطاراً فنياً ..فيه الطرافة والإفادة .والقصة ذات الإثارة،

وكانت جوالة في آفاقها ..أسماراً مشرقة ومغربة .. موغلة في القديم البعيد ، قد تسمعه يقول لك ..— ياه هذه قريبة ..حادثة واقعة لها أربعين سنة فقط .. بس ..؟!

* * *

وكنت أسترق السمع مشدوهاً لشيئين .

* لبعد الزمان

* ولقوة ذاكرة هؤلاء ..

* ثم لشيء آخر الحلاوة والطرافة والجدة في هذه الموضوعات طرافة ومنوعات ودسامة وفوائد علمية .

قد تذكرنا بمطالعات كشكول بهاء الدين العاملي أو ألف باء ليوسف البلوى غير أنها مشاهدات ووقائع لا مجرد مطالعات ومسموعات وقد تكبر حلقة السمر وتتسمع فيأتي إليها المدرس في المدرسة وقاضي المحكمة .. وعمدة المنطقة، وهناك في الحق عمدتان — عمدة الريف وعمدة شيخ العرب وعلى ماأظن كان اسمه ..بومقرب ..ويظل السمر والجدل طويلا غير ممل ..منوعاً غير ثقيل .. حلواً عفوياً .غير متكلف ودائرة الجلسة ، وزمام الأمر في يد أو فم الشيخ عبد الرحمن الزقلعي . فهو أكبر المسنين سناً ..وأكثر الجالسين وقاراً

وأعمقهم تجربة . وأقواهم ذاكرة ..وأوسعهم صدراً ولم يكن هناك مسجل ، وإلا كنا سجلنا للتاريخ الأدبي والنضالي شيئاً من الحقائق وصوراً من الحياة النابضة فكان يعرف تاريخ المعارك والرجال والناس من أقصى البلادالى أقصى البلاد ..ومن العهد العثماني الأخير وأيام الجهاد ..وعاصر محمد عبده وجماعته عند ما كان عبد الرحمن طالبا في الرواق بالأزهر

وذات ليلة كان ضيف صهرنا المهاجر بالدلنجات شيخ جاء من الصحراء .. عبد السلام الحبوني ..وكان مهتماً بتاريخ القبائل وكان بصدد

تأليف كتاب عن الأنساب العربية في مصر وليبيا ،وكان ينشر فصولا في مجلة تسمى ..زهرة الشرق ..على ماأظن ..وفي تلك الليلة – طال السمر حول موضوع تشعب العائلات والقبائل في الدلتا والصحراء وبلدان الشمال الأفريقى وبلاد الشام والجزيرة

وكان الرجل موسوعة ..ولكن بعد صمت لم يطل ..وهنهنة وهمهمة يسيرة ..برز له الشيخ عبد الرحمن الزقلعى وتصاول معه في الميدان .. فإذا به يفوقه علماً ودراية ورواية ..وسنداً ..وسلسلة ..وإحاطة ..بعلم الأنساب وتفرع البطون والأفخاذ .. وتشابك المضارب والعشائر .. والخوولات والعمات ..أو العمعمات وإذابه ينتقل إلى قبائل القوقاز وما وراء النهرين. وما بعد السدين ..إيضا .. وإذا به خضم علم ، مما فاق وبّوج ولا أقول « بوش » على معلومات العلامة النسابة الحسابة عبد السلام الحبونى ..وغيره.. رحمات الله على هذا ..وذاك ..

ولن أنسى ذات مرة في عام ١٩٤٨ – وقد عدت من أحدى جولاتى في ليبيا .. وجئت لزيارة أصهارى .

وقد سمر معنا الشيخ عبد الرحمن الزقلعى وأخذويسأل عن أهله وذويه وبقايا صحابه ومعارفه .. وكان الحنين يدفعه إلى المزيد من السؤال والتعليق .

وكانت جولتى الأولى مع هيئة التحرير لمقابلة اللجنة الرباعية الدولية لاستفتاء الشعب ..وطال السمر وذهب إلى بيته في عزبة قريبة من بيت أصهارنا المهاجرين هناك فقد كنت في بيت أختى الكبرى ، – وإذا بالشباك الخشبى في جوف الليل عليه نقرات بعصا وهو يواصل الطرق والدق.

– خير .. من ؟

وأجابه بكلمة :

– قتلوه ..قتلوه ..!!

– من هو ؟ وأصابنى ذعر للكلمة المفاجئة المفزعة في جوف الليل ..

– قتلوه الملاعين .. قتلوه .. ! !

وإذا به سمع خبراً وهو في طريقه الى بيته بعد انفضاض جلسة السمر – ولم يطق الرجل العجوز أن يحتفظ بالخبر الى الصباح مع أنه ستعاد اذاعته صباحاً .. وينشر في الجرائد بالتفصيل تلك الجرائد التى تأتى من القاهرة صباحاً ولكنه بحكم تتبعه واهتمامه بالأخبار قطع وهوالرجل العجوز الوقور المسافة من العزبة التى يسكنها ، رغم الكلاب المتهارشة في الطريق ..وعاد إلينا يطرق الشباك ..ويطلعنا على الخبر

– قتلوه الملاعين !

– من هو ..

– لقد قتل برنادوت .. الوسيط الدولى ! !

قتله اليهود .. وكان من أهم وأخطر الأنباء في تلك الأيام وأخذ كعادته يعلل ويحلل .. ويستنبط ..

وبعد سنين طوال .. وتطورات وأحداث ..مازالت تطن في أذنى عبارات قالها ..وتصورات تصورها ..وقعت وحدثت وكأنه ينظر بمنظار الغيب من بعيد ..

وهناك مواهب وإحساسات لا تورث

والله موزع المواهب والملامح النفسية والجسدية والحسية والمعنوية..

وتوارى من مسرح الوجود .. شأن الإرادة الإلهية ..

وعندما خرجت من سجن « بورتا بينتو » كتبت مقالا عنه نشرته بجريدة طرابلس غرب يوم ٣١ اكتوبر ١٩٥٢ م عدد ٢٨٣٢ ولعله المقال الوحيد الذى نشر عنه في العالم آنذاك .. أو بعد ذاك

بشير الجواب

الشاعر والشمعة الذهبية





عاش حياته بالطول والعرض

ورأى الليالى الزاهيات وشرب الكأس حتى الثمالة

شرب من الكأسين كأس الرفاهية والتنعم .

وكأس المرارة والبهدلة .

كان في مطلع شبابه وفترة صبوته (دون جوان)

لعله كان الدون جوان الوحيد في عصره ببلده في أبناء جيله مثل (هارون الرشيد) في تلك الصورة التى صورها بعض الناس ونسجتها أخيلة بعض الغربيين في أقاصيص ألف ليلة وليلة

وان كان هارون الرشيد في الحقيقة خليفة مفترى عليه مظلوما يحتاج إلى رفع قضية ورد اعتبار ذلك النقى التقى الخاشع لله صوروه زوقوه بما شوهه .

وكان صاحبنا هذا في مطلع شبابه لديه ثلاثة أشياء افسدت وتفسد حياة الناس كما صور أبوالعتاهيه في زهدياته أو في خلاصة تجاربه .

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أى مفسدة

والجدة – بفتح الجيم ان لم تعلم – هى الثروة والمال –أعطاك الله–
وكان لدى هذا النموذج هذه الثلاث متجمعة :

* شباب متفتح فائر
* وفراغ مهول قتـــال
* ومال وعقار وفيه الذهب والنضار

أضف إلى كل هذا عدم الارتباط بالمسئولية – على حد تعبير المثل الطرابلسى الدارج – يلعب في بطن ثــور –

وعلى هذا كان الفنان الشعبى بارعا في رسمه للمثل وتصويره .

أذ لو لعب الانسان أمام رجلى الثور لدهسه وداسه .

وبرطع الثور مالم يكن من مصارعى الثيران في أسبانيا

وهذا لم يخطر ببال صاحب المثل السائر والدائر .

وانطلق في شبابه ساهرا في حوازته – أيــام السهرات والحوازات .

كان أول ليبى في ليبيا يمتطى ويمتلك سيارة خاصة ملاكى .

كانت في سيرها وسلوكها – جمزى – بلغة الأحصنة .

يوم كان كان الأغنياء – ولا نقلب النون باء – وحضرات الوجهاء

يركبون الكاليس (عربات صغيرة فيها مقعد لنفرين يجرها حصان مثل عربات قدماء الفراعين التى نشاهدها في الرسوم)

وعلى الدنيا السلام ياسلام على العز ياسلام
كان يجلب أعتق وأغلى الخمور من مالطة وروما .

يوم أن كان بعض الشاربين يأتى من « جنزور » بعبار لاقبى يجلبه شمعون وحواتو على حمار هزيل أو في دهاليز الحارة وعند سيدى عمران يوم أن

كانت فئات من بنات الليل يقبعن في الزقاق الملتوى كان هو يذهب إلى تونس التى كانت لياليها في (الويك اند) مثل سهرات باريس بالنسبة لباشاوات

الربع الاول من القرن العشرين .

وحورية الراقصة يجلبها أحد القواد من الكوليرات وكانت عشيقة المارشال ذى اللحية الخفيفة (بالبو) عشيقته أو خدينته كان الشاعر البوهيمى على صلة بها .

راقصة وشاعر ماعسى ان يكون بينهما من علاقة وصلات !؟

من أجل عطائه وبذله وبوهيميته في مباذله .

والسهرية التى يعدها منافسة لصاحب القصور والدور .

والسيف المسلول والطائرة التى تحط في المطارات الخاصة ..

والفنادق والاستراحات في حضن الجبلين جبل نفوسة غربا والجبل الاخضر شرقا وعاش وهاص بالبو ونافسه الشاعر البوهيمى وقالوا – والعهدة على الرواة من مشاهديه وعارفيه إن الشاعر الثرى في أحدى السهرات الملاى بالعطور والزهور والوان المشموم والريحان والنسرين والبنات فراشات الليل على ضوء القناديل ملتهبة متحرقة يتضاحكن ويتغامزن في مرح يتراقصن كالفراشات ويحلوله الجو ويأتى العناد الشيطانى أوقمة العبث الشهوانى فيضع كومة من جنيهات الذهب بمقدار الشمعة طولا .

جنيه فوق جنيه وتشعلها بثقاب وتضىء وتلتهب .

وتظل معه إحداهن مسامرة منجذبه إليه أو معه .

مادامت هذه الشمعه مضيئة حتى إذا اكتمل ذوبانها – أى الشمعة – في آخر الليل أو منتصفه عندما تشهق شهقتها الاخيرة وتترنح ذبالتها ويترنح هو متعتعا متهتها ولها في هذه اللحظة الشهقانية أن تمديدها برضاه وحسب الاتفاق المبرم شفاهيا

وباتفاق في الصحو – لتأخذ هذه الجنيهات الذهبية التى هى مكدسة بطول الشمعة قامة ذهبية وقد تتكرر الليالى والسهرات في اوساط الغوانى. وقد اشتهر في ذلك المحيط هذا (الدون جوان) الثرى القادم من طرابلس ابن أحد الباشوات

والذهب يسقط عروشا ويسقط نفوسا ووهجه قد يعشى أحيانا أجمل الجميلات وقد يسقط الأنوف والجباه ويرغمها ويمرغها في الوحل وحل الرذيلة عند ضعاف النفوس .

وكيف لاتسقط غوانى الليل وفراشات السهريات !؟

كيف لايحترقن ويتهافتن على تراقص هذه الشمعة الذهبية ؟

كان يمتلك حوازات وبساتين وورث أملاكا في المدينة في أخصب انحاء

البلاد عندما كانت تجود بالزراعه وتثمر الفواكه قبل ان تصبح احجارا تناطح أحجارا ومساكن تزاحم مساكن !!

كان له الفراش الوثير والخدم والحشم

توارثت الاسرة حتى الخدم والده من اعيان البلاد

والأعيان من ذلك النوع يعدون على أصابع اليدين .

«قائم مقام» سحنته الجميلة الوضاءة ولباسه ذو التشريفة القادم من اسطامبول ومرتب القائم مقام بالجنيهات الذهبية والليرات العثمانية أو بندقي ولويزى واشياء يعرف مصطلحاتها سوق الصاغه .

كان خطه جميلا أنيقا وثقافته عند مقياس عصره ومصره لابأس بها . هذا الوالد الباشوى الخطوات كان في مركز قائمقام يوم ان كانت القائمقامية مركزاً مرموقا .

لايناله إلا أصحاب المقدرة والحظوة وذوو الاتصال الوثيق بالباشا الوالى أو باتباع السلطان في دار السلطنة وعاصمة الخلافة .

وهرع اليه شعراء يمدحونه شعراء من طرابلس وشعراء من بلاد الشام سمعوا بالقائم مقام الجواب مدحوه بقصائدة قد لاتهز وترا شعريا ـ لكن المهم لديهم بلغة العيون والبطون والجيوب . المائدة الممتدة وهز الجيب بما تيسر

من عملات ذهبية يسيل لها لعاب المداحين والشعراء المفاليك ولاتزال احدى هذه القصائد التى طبعت بماء الذهب .

نعم بماء الذهب بمداد الذهب مطبوعة بالحروف وناظمها ومنشئها الصحفى الشاعر السورى الجوالة الرحالة عبد المسيح

الانطاكى مدحا للجواب الأب أى والد صاحبنا هذا والقصيدة كان يحتفظ بها الجواب الابن عند رأسه دلالة على مجد دثر وطلل من أطلال العز ،

* * *

كان يرتدى أفخر الثياب ويلتقم أفخر الطعام وأشهاه .

الحياة ماهى والمعيشة ماكينونتها .

إنها لقمة هنية وسهرة ممتعة وعلى الدنيا العفاء .

وكان ينظم الشعر من ذلك النوع الذى لم ينضج ولكنه نظم يسمعه للجلاس هو من هواة الادب يقرأ الشعر ويحب قديمه أجود الشعر أعتقه كاجود الوان من العصير عند أصحاب المذاق .

كأن يروى ألوانا من طرائفه .

كان من مثقفى عصره يوم أن كانت الثقافة في بلده كوات محددة ونوافذها وأبوابها معدودة .

يتشوق لشوقي ، ويحفظ لحافظ ، ويزهو للزهاوى .

وكان أكثر شعره غزلا في الغادات الملتفات عربيات وروميات .

حوريات آخر الليل ، صائد الفراشات في وهج المصباح أو في جنح الظلام
سهرياته ومباذله ظلت زاده في الذكريات يرويها ويستشهد ببعض الخلان
شهود عيان لسهرات زمان .. آه يازمان .. آه يازمان !!

جلله الشيب وأحناه الزمان وقطب وعبس وتولى

ولكن ماشابت الذكريات بل هى على مرور الأيام تشب ...

موقده أتون الذكريات دمعا جافا وآهة حرى !!

وباع الأملاك وذهبت الحوازات وتراكمت الديون ، الديون هم بالليل
وذل بالنهار !!

والهم والذل يسقط دولا ، ويهد جبالا ، ويسحق حتى الفرسان !!

فما بالك بمن سلاحه كلمة ، وقوسه كلمة ، وفرسه كلمة ، زورقه في خضم
التيارات كلمة ، وذخيرته الحس المرهف والشعور الهفهاف ؟!!

إيه .. آها .. أواه ياريا ح الزمن ، رحمة بالضعاف !!
هل في عروق قلبك يازمان دفقة من حنان ؟!

شاعر أضاع الثروة فتبددت كماء سال من بين أصابع طفل على الشواطىء
الهادرات !!

ياريا ح الزمن قد غدا الشاعر كومة من الذكريات .

ينثرها لديه غالية قطرة قطرة بمقدار .

ثم ينثرها مبعثرة حفنات ثم أكداسا أكداسا رخيصه رخيصه
ثم لاسامع لها ولا مقدر لقيمتها أو أثمانها .

وقد دفع فيها المال والشباب وعرق الليل في وقدة الذكريات في غفلة من الزمن الذى أغفله .

قتل الذل والديون وتراكم الهموم الشاعرية ،وذبلت الأماني في الرياح طوحت بها خلف الآكام والبطاح ..، قبض ريح !!

وتفرق الجلاس والخلان ... جلاس الكاس والطاس .

وتوارت ضحكات الغواني والأوانس .

وبقي وحيدا يجنح للعزلة لاعزلة الفكر المنتج ...

بل عزلة التأمل في ليال لن تعود !!

قبض ريـــح !!

ذهب الربيعان ... ربيع الفصول الزمنية وربيع الشباب

ولكن ربيع الزمان يعود على كر الفصول شأن الطبيعة .

أما ربيع الشباب فلن يعود شأن الحقيقة .

قبض ريح وأطاحة عواصف .

وتسرب الماء من بين الأصابع .

ولكن ظل ينظم الشعر هواية وهوى بمقدار وفي حدود .

شعر قد لايدخله في زمرة الشعراء المبدعين .

لكنه يخرج به عن نطاق طائفة عاشرها وعايشها كان يعد عند المقارنات والحسبات والحسبان من أهل الأدب والذوق وشاعر من شعراء المجالس والأسمار وشعراء المشافـهات والحكايات والمرويات .. فيه لهجة دعابة وعربدة هجاء وقرصة النقد لاذعة .

وان أغضب الصرفيين والنحويين وحتى العروضيين .

وإن حافظت على القافية والنمط والاقتفاء .

قد يدخله في باب شعر السهريات وشعر الذاتيات .

من ذلك اللون والقالب محدود الأنفاس والانطباع .

وقد تكون مساحة انتشاره وتأثيره لاتتعدى حلقة الجلاس ، وظلت لطعة الادب أو حرفه الأدب واكاد اقول منزلقا لعنة الأدب علامة من علاماته لدى محيطه ،

لكنه لم يرق الى مستوى معاصريه الأحمدين .

أحمد الشارف وأحمد رفيق .

وكان يحترم الشارف ويراسل بشعره رفيق .

وظل عزباً لم يتزوج ... هل هى ردة فعل عنيفة ! ؟

أو هو نوع من الزهد بعد ضياع المقومات ؟

أو هى حصرمة في عين الثعلب تحت الدالية في قصة الدوالى والثعلب.

أو شبع ممتلىء تجشأ حتى عف عن الطعام الذى أبشمه ؟

* * *

خصلتان من معدنه الاصيل لاينكرهما عليه إنسان عرفه من بعد أو قرب.

* كرامة واعتزاز يأنف من الشكوى

* وطنية صادقة لاتشوبها شائبة

ولا تلحق بها مشينة عائبة

يكره الطليان والمستعمرين ، وله حس وطنى عربى .

وظل بلا عمل يقتات القوت العادى بعد الموائد والخدم والحشم ، وظل وحيدا بعد ذهاب الأملاك والحوازات والليالى الساهرات .

وظل بدل السفر إلى البلدان البعيدة حبيسا بلا حبس

يجوب الأزقة والشوارع ، ولكنه في الخمسينات من القرن .

كان محتفظا بزيه الأنيق ، المعطف الغالى من أجود الأنواع :
والوردة الحمراء والفل يضعه في عروة السترة (الجاكت)

وكم يتضايق في أيام الزمهرير ، لأن المعطف لا عروة فيه للورد والفل .. فهل يكتفى بالمشموم والنرجس في يده .

ولايحلق شعره إلاعند حلاق رومى درءا لثرثرة اللسان التى هى من لوازم بعض اصحاب المقصات طقطقات اللسان وطقطقات المقص .

ويتعطر ويتبختر ويقف متطلسا بطليسانه وأرجوانه في شارع العزيزية وعند مقهى الجادة (الكورسو) أو مقهى « صوردي » وتمخر مواكب الروميات وأسراب الغزلان ويكتفي بمجرد النظر من بعيد .. شاعر يريد أن يستوحي جمالهن .

ولعله يقارن — في دخيلة نفسه — بينهن وبين من كن في أحضانه واهتز بهن سريره في غوابر الليالي المترعات .

وهو يسمعك إذا انطلقت به الغزاله قصيدته التى استوحاها من البحر — من شاطىء طرابلس . ومصيف قرقارش قصيدة — جورجنبوبللى — وهو يسمعك قصيدة أخرى من الادب المكشوف العارى قصيدة السرير ، وقد يسمعها لك مرارا ولا يمل من تكرارها حتى حفظها منغمة محركة كل من يتحدث معه في سهريات طرابلس ،

هو عفيف النفس شموخ لا يرضخ حتى لأقاربه — وهم على يسر من الحال — رفض أن يقدموا له طعاما أو خدمة وهجرهم .

أو تبادل معهم الهجر — في أيام المواسم والاعياد .

لايريد أن ينطوى تحت خانة — عزيز قوم ذل —

وبحث عن عمل ووظيفة وهو الذى لم يعمل ولم يتوظف طول أيام الشباب وأوقات الصعكلـــة .

وعمل في جريدة حكوميــة كانت تصدر في ورقة واحدة ذات صفحتين الموظفون بها اكثر من أعمدة الجريدة وصفافو الحروف بها أكثر من عدد القراء ــ على رأى أحد الخبثاء الكتاب .

وذات يوم تشاجر مع والى طرابلس أيام عهد الولايات ،لأنه طلب منه أن يكتب عنه ، وعن جولته ورحلته في الدواخل ولكنه رفض وصرخ في وجهه قائلا .:

ــ أنا ابن الجواب .. وأنت ابن من ؟

كان والدك لا يصلح موظفا عند والدى .

وكانت مشاجرة صريحة لاتخلو من فضيحة .

كيف ..ابن العز وابن القائم مقام في عهد السلطان يكتب ويمدح ويتقنبع لابن شيخ فقيه لحاس أقلام أو لحاس صوانى لايليق .

ونزل من الدرج غاضبا لاهبا وطلق الوظيفة .

وظل عاطلا كاد أن يقتله الجوع في صقيع العمر .

وبحثوا له عن عمل . قالوا أنه عمل قريب من الثقافة وعالم الأدب والعلم وهو في وسطهم معروف بأنه شاعر الحب والليالى السواهر .

هاهو مشرف على مكتبة زراعية في منطقة سيدى المصرى وهى مكتبةغنية بالكتب الزراعية العلمية ونشرات وقوائم عن التربة وزراعة الطماطم والخس والبصل والجرجير والمعدنوس والسنارى والبنجر ونباتات انقرضت وأنواع من الفواكه والخضروات نسمع بها ولا نراها وبعيد عن ذوقك .. ومذاقك

وكتب ودراسات عن نبات البعلى والمياه الجوفية .

من زراعة الحنظل والسقوطرى الى زراعة الورد والياسمين وأشجار البلوط وأنواع القرفة والصمغ والجمارى .

والى غير ذلك من معلومات وحقائق تريد نوعا خاصا من الاخصائيين وفي تلك المكتبة لم يـوجـد متردد مطالع أو مستعير راغب .كانت مكتبة تعتبر في سوا لف أيامها ثروة علمية مطمورة مغمورة .

وهو الشاعر رهيف الحس في وسطها لابد أن ينفض الغبار ويزيل السوس والعتة والارضة خوفا من انقراضها وبحكم الفراغ او بحكم تزجية الفراغ امتدت يده الى الكتب والنشرات ودوائر المعارف الزراعية .

وفي أثناء وجوده بالمكتبة التى ظل في ركنها مركونا سنوات زعم لناأنه اكتشف طريقة لمعرفة المياه في باطن الأرض بمجرد ان يثني ويلوى ويحني عودا معينا يقوسه ويثنيه ويمسكه من طرفيه بحالة أو بشكل تقوسى ويمشى خطوات فاذا انحنى قليلا قليلا فهو دليل على وجود الماء في جوف الأرض ولو كانت صلبة صخرية أو متربة طينية .

يراهنك على الحفر ولو في أرض صخرية جرداء .

سيتفجر منها الماء ،وقد يكون نهرا أوعينا أو بئرا حسب الظروف ، ولكنهماء انحنى له الغصن اللين في يده .

وكان زملاؤه يضحكون والمؤدبون منهم يبتسمون .

والأكثر حياء وأدبا يصمت صمت الحيرة والاندهاش .

وهو في حماس أهل الاكتشاف يؤكد صدق اكتشافه وماندرى صحة هذا من عدمه فلسنا خبراء في هذا المجال على كل حال .

وضحك كثرة من الناس كثيرا أوسخروا من نظرياته واكتشافه، ولو صدقت أو لو كشف سرها لوفر على بلاده فيما بعد — ملايين ما أنفق على البحث عن الماء ، والله اعلم .

واثناء وجوده في الجريدة كانت إداراتها تقع في مبنى من أوقاف مدرسة الصنايع الاسلامية — أزيل المبنى القديم الآن —

وكانت تحت المكتب مباشرة خمارة إيطالية كان آخر الليل يأخذ منها زاده ويسهر وحده، وكان يتظاهر بأنه لا يشرب أمامنا وعاق المعطف وكانت ليلة شتوية قارصة متهاطلة الامطار ووعد نفسه بليلة عزليه خمرية يطرد بها البرد والهم واشترى من (المزة) حوتا وزيتونا وجبنا ولوازم النقل وامتدت يد أحد الاصدقاء من زملائه المشهورين بالدعابة وتدبير المقالب وأخذ من المعطف الزجاجة الصغيرة الملفوفة في ورق الجريدة ووضع مكانها زجاجة حبر وعندما ارتدى الشاعر معطفه وتحسس الجيب من الخارج اطمان وانطلق الى بيته في زقاق بشارع أبي الخيرو أغلق الباب أو كما يقول الفصحاء - الرتاج -

وقال في نفسه للزجاجة وسائلها هيت لك. واوقد شمعة كأنه يريد أن يستعيد قصة الشمعه القديمة والمطر يتهاطل ثم يتواصل متدفقا كأفواه القرب (وإن كان هذا تشبيها باردا قديما من الروايات القديمة)

والجرذان يقفز في الحجرة الرطبة وصب السلاف وعهده به أصفر أو أحمر وإن كان من نوع - الفودكا - فهو أبيض واذابه المصبوب ازرق نيله حبر ازرق وكان سخطا عارما صبه على الزمن وعلى ذلك العابث الملعون المجهول ولعلهم مجموعة تآمروا عليـه عكننوا مزاجه وأطاروا صوابه .

وهو يريد ان يطيره بطريقة اخرى وغلقت الخمارة ابوابها بعد الموعد الرسمى القانونى بساعتين او اكثر ولا يمكنه ان يعوض هذا الليلة التى استعد لها نفسيا وتصيد لحظاتها في تصوراتـه وقاطع اصحابه الذين تآمروا عليه اياما واستمرت المقاطعـة .

وقطع العلاقات او جمدها شتوية كاملة .

ثم عاد الى الصفاء والوفاء ، وان سجل هذا في قصيدة هجائية يذكرها

زملاؤه من جماعـة — اخوان الصفا — وخلان الوفا — وذات يوم جاء شاعر شاب — أتيح له أن يكون فيما بعد من شعراء المرحلة — وكان أوان ذاك مبتدئاً والقصيدة جيدة ، وكان أن احال العاملون في الجريدة القصيدة ...

بل أحالوا القصيدة بحذافيرها والشاعر برمته وحذا فيره إلى حضرة الشاعر القديم الكبير ،وأغلق الباب وأخذ يستجوبه ويستنطقه كأنه محلف أو مستنطق في تهمة أو قضية شا ئكة .

س : من أين أتيت بها ؟

ج : نظمتها .

س : احلف بالله العظيم ثلاثا .

ج : والله العظيم هذه قصيدتى .

س : اعد الحلف واضبط صياغة اليمين ، لابد أن يكون الحلف بعقد الهاء ... والله هكذا !!

ج : والله العظيم هذه قصيدتى

س : لا بل أنت سارقها خاطفها!! كثر السطو ونهب الشعر في هذه الأيام سرقونى حتى أنا !! أحلف مرة اخرى .

ج : هذه قصيدتى من نظمى أنا .

س : في هذه الايام قلت لك كثر لصوص المنازل والسطوح ولصوص الشعر أكثر !!

ج : هذه قصيدتى ونظمت غيرها .

س : قل لى من أين أخذتها ؟

وبعد سين وجيم ــ والشاب يحلف ويكاد يقطر خجلا وحيرة قال ·

ــ أما أن تنشرها أو تردها لى .

وأقسم المحلف المحقق المدقق محرر الشعر بالجريدة ألا يرد قصيدة الشاب حتى يتحقق من الأمر . وكان التحقيق بطء بقة عجيبة أن يحتفظ بالقصيدة عنده

في درج المكتب ويطالع دواوين الشعر ، فإذا لم يجدها هناك أو ما يشبهها فهى حقا وصدقا له – ينشرها وإلا عند ذاك يفضحه ! !

وكانت طريقة عجيبة فريدة .

وهذا الشاعر الشاب الذى أمدنا بالروائع هو صديقنا المرحوم على الرقيعى

وكم في الحقائق من طرائف وعجائب ! !

وكنت حاضراً هذه الواقعة أو الموقعة وطالما ذكرناها في أسمارنا متفكهين متذكرين سوالف الأمسيات .

وعندما ألفت كتاب (غومة فارس الصحراء) أرسل لى رسالة يعتب على

وهاج مدافعا عن العثمانين وكيف ينسى الناس جمائلهم .

وكان يحتفظ للعثمانيين بجميل

وكيف حافظوا على الاسلام في شمال افريقيا أيام قرصنة أوربا .

وقد كان في رسالته ونظرته محقاً في جانب ومخطئاً في جوانب ،فالفساد

والإهمال والجباية بالسوط والتمرد عليهم كان موجودا في تلك الفترة – وهذا موضوع مكانه الدراسات التاريخية .

. . .

وكان يكره الشعر الحديث ويراه منفلتا .

ولايكتفى بالنقد الهادىء بل يصل إلى أسلوب الحوار العنيف ولهجة السباب ،وإذا اشتد الهيجان والغليان قد يصل أحيانا إلى التلويح بالقبضة ومسك الخناق والتهديد ... كان يراه ظاهرة سيئة وجناية على الأدب العربى

وكان ينظم الشعر ، ويسمعه لأصدقائه ويطرب سعيدا بنشره يوم عيد صباح مبارك عندما تنشر له قطعة .

وعندما تنشنش في برواز .

وذات مرة في إحدى المناسبات نظم قصيدة ، وكان أن حفرها في زنكوغراف – أكلشيه – كان يطبعه ويحفره رومي يسكر ودوما (الرمانة في الماء) سكران يتباطأ ويغالى في الثمن ومن جيب الشاعر دفع الثمن للوحة الزنكوغرافية والقصيدة« الأكلشية » – وكان المفروض أن القصيدة تنشر محفورة على حساب الجريدة ولكن عاكسه رئيس التحرير بحجة عدم إمكانية الحفر الزنكوغرافي .

وذهب الى السنيور وتراطن معه بالايطالية التى كان يجيدها ونقده الثمن مقدما ومعه رشوة متمثلة في ذلك المقطر المحرم في زجاجة يسيل لها لغاب أبي نواس ومن على شاكلته من زمرة المتطوحين ،وحفرت القصيدة الطويلة بخط جميل في زنكوغراف ، وكان طولها بالتمام والكمال حوالى مترا

إنها كأسطوانة الاصمعى في أسطورة وزن الشعر الأسطوانى .

والأسطوانة العمود الرخامى الذى مثل عرصات لبدة وصبراتة الأثريات (وابحث عن أسطورة الاسطوانة الرخامية في مراجع الأدب ونوادره) فتش معى – كان طولها طول الجريدة التى تطبع في مطبعة السنيور ماجى دفين طرابلس .

والحفر على نوع من الزنك الثقيل ،وملصق بخشب ثقيل من النوع الثقيل خشب زان لايثقب الابشق الانفس وإدماء الاصبع .كان منظرا مثيرا أوطريفا أوأمثولة من الأمثولات لشاعر وهو يحمل اللوحة الثقيلة يبحث عن رئيس التحرير الذى اختفى وابتلعته الأرض آخر الليل .

ورفض العمال أن يأخذوها وإن كان المصحح الكسول المتثائب فرح بها ، لأنها محفورة على زنكوغراف وخشب .. شيء جاهز .. اعمدة متكاملة .. صفحة بحذافيرها لاتكلفة مشقة القراءة والتصحيح ، والمصفف الطباع طبعاً وطبيعى وطبعى فرح بها لأنها لاتكلفة عناء تبعثر الحروف وصفها .

كل شيء في المحفور لايتعب و إن أثقل جيب الشاعر ..
وحمله مشقة حملها بالمعنيين .

وكانت الصدمة أن رفض رئيس التحرير — غير التحرير — إنزالها بحجة عدم وجود مكان لها .

والمناسبة تكاد تضيع ، وأخبر الناس جميعا في محيطه بأن له قصيدة ستنشر غدا وإن غدا لناظره قريب ، ووقف الرجل مهوش الرأس، مهوش النفس ، وفي يده اللوحه التى تذكرنا بعمود الرخام الذي حفرت عليه القصيدة التى تحدى بها الشاعر الراوية السلطان الراوية كما تروى الروايات والاقاصيص في طرائف وأسمار الأدب العربى .

«راجع مرة أجرى وانبش كتب الادب لعلك تعثر على الحكاية الأصمعية»
ونعود الى الرجل في مسارب المطبعة نجده واقفا يبكى — يبكى فعلا وما أحر بكاء من شارف السبعين وان انكر هذه العقود — ومزج دموعه بشتائم .. كيف ترفض قصيدته ؟!. وهنا تبرع أحد عمال المطبعة وازاح على مسئوليته بعض المواد ووضع مكانها القصيدة الزنكوغرافية المحفورة ولم يرتح الرجل الا بعد ان شاهد عجلات المطبعه تجرى وتقذف بأعداد منها واستلم نسخا، ووضعها تحت إبطه وانطلق مشرق النفس فرحة الطفل البرىء بلعبته.. ولكنه لم يطبع ديوانه في حياته ، وتبعثر شعره على لسان الرواة والسمار والخلان

* قصيدة السرير • قصيدة جورجنبوبللى —

* الوردة الحمراء — العطر — القرنفلة وسبسبة الشعر واللون المختار

ووقفته عند الكورسو او الجلوس على مقهى الكورسو — وأحيانا مقهى صوردى، المقهى الذى كان قطعة فنية وتحفة كانه من مقاهى أوربا في لمساته وجوه ، فيه لمسة من ذوق فقده أهل الفن والذوق !!

كان في وقفته يستعرض وجوه الحسناوات وقد يكتفى بالنظرات

والتأملات من بعيد كالنباتي المحرم عليه الاقتراب من اللحوم ترى هل أصيب بصدمة او عقدة من النساء بعد أشباع وتخمة ؟

وحركوا مشاعر دفينة لديه بالقفشات والمداعبات واحيانا بالتحايل والمبالغات في قارص اللذعات . وذات يوم وبعض الاصدقاء جلوس بمقهى (صوردى) حيث الهدوء ولمسة الجمال والفن — كان بعضهم جالسا هناك وإذا به يمر ومعه أحد أصدقائه من تجار العقارات والسماسرة .

وناداه صاحبه .

— تفضل ياأستاذ فلان

ولوح بيده عجلان لهفان قائلا :

لا .. لا .. انا مسرع ، عندى مهمة

وكان لابسا ثيابا جديدة ومتعطرا متأنقا وفي قدمه حذاء لماع ، وعلى فمه ابتسامة يبدو عليه المرح أكثر من القلق والتوتر .

وقال صاحبه الذى كان يرافقه :—

— هو ذاهب للدخلة ... العروس تنتظر

— هكذا بلا إعلان ولا زمزامات ولا دعوة ولا أحد يسمع ؟

اهو زواج سرى ؟! ان الاعلان عن الزواج مطلوب عرفا وشرعا وقال :

— لا إنها ثيب وليست بكرا .

المهم أنه تزوج من سيدة تكاد ان تناكفه عمرا وأراد أن يستقر ، ويبنى عشا ولو في آخر الشوط — ولكن يبدو أن معاشرته ومخالطته وامتزاجه بألوان من النساء اشكالا وألوانا وأجناسا ومللا ونحلا من الشقراوات والحمراوات والبيضاوات — والسمراوات — والكحلات ،والسوداوات — والسمينات

والرفيعات والقصيرات والطويلات والمكركبات والمتأرجحات والثرثارات والصامتات والطليانيات والانجليزيات والروميات والاعاجميات والمصريات والتونسيات والليبيات والمغربيات والكبيرات والصغيرات والناضجات والمسكرات والمتزوجات والأرامل .. الخ الخ ...

اتصاله ومعرفته بكل هذه الطوابير والأنواع في عالم النساء جعله يشك في سلوك الانسان ويغلب جانب الشك والريبة .

والشكوك والريبة دوامة ملعونة .قد يظلم أهل البراءة والطهر وكم فى دوامات الشكوك والريب من ضحايا أبرياء وأطهار اصفياء ! !

وأغلق عليها الباب والشباك وذهب لعمله في مكتبة الزراعة وعاد العريس وهو فرح بزواجه متأملا عروسه التى لم يرها ولم يتأملها جيداً ليلة الدخله لم يبحلق ولم يحدق ويتفرس فقد امتزجت الثمالة آنذاك بالاندهاش .

ولكن هاهو مشمر عن الساعد مفتوح العينين. ولاحظ على المقعد الكرسى قرب عداد النور موضع القدم حذاء وهاج وماج ،أو تهرج وتهوج وتموج.
س — ج— هذه عفسة رجل لاعفسة أنثى — هذا حذاء بالغ راشد لاحذاء طفل صغير — عفسة رجل دخل للبيت وفي غيابى ياللهول ! !وصبت صواعق السماء على رأسه لابد أنه رجل لئيم دخل ليتفرس ويفترس عروسه وكان منه تحقيق مرعب وفي يده عصا وكادت أن تفعصه دفاعاً عن نفسها المسكينة وبغريزة حب البقاء والدفاع عن النفس وبعد أن افهمته أوّ حاولت أن تفهمه الحقيقه دكت رأسه في الحائط وأصبح الصارخ هو ، والمستغيث هو . أهذه عروس أم غوله غولة ؟ غولة نهار ! !

لقد كانت مظلومة برئية فقد دق الباب وكان جابى عداد النور وطلب منها أن يقرأ العداد فهو لسنوات لم يجده ،لأنه اما غاط في نومه أو خارج من داره ودخل الجابى واخذ مقعدا ووقف عليه ليطول العداد ويفرز رقمه ويسجل الحساب ..هذا كل ما حصل ،لكن من يلين رأس هذا الشاك الشائك؟

وطلقها ... أخصر طريق وأقصر ، حتى إن المباركات والمهنئات من قريبتها دهشن وماتت الزغردات في حلوقهن ! !

دهشن لعروس ليلة أو نصف ليلة .

وتبرئة لذمته أعطاها المؤخر مضاعفا وسرحها مصحوبة بقصيدة هجاء وعاد إلى عزوبته ،إلى وحدته والجرذان يلعب على اكداس الجرائد والمجلات والكتب . ولايسمح لاحد أن يزوره حتى إن احد اصدقائه طلب منه يوماان يدخل هاتفا في منزله فالدنيا حياة وموت ، ومرض وطوارىء ولا يعلم الانسان مخبئات المقادير ، ولكنه غضب وطرم لهذا الاقتراح التشاؤمى وظل وحيدا في حجرة رطبة معتمة . الموقد الفحمى يطبخ عليه وحده ويشرب الشاى وحده ومرض ولم يشعر به إنسان وغدا وحيدا .

وكان لابد من سحابة الاكتئاب كل همسة يؤولها كل كلمة هى شوكة جارحة كل نظرة مؤلمة ولم يخرج وانزوى ولم يره البقال الذى تعود أن يراه يوما بعد يوم يشترى الخبز والطعام واعتقد انه مسافر او في إجازة وفعلا كان في سفرة ولكنها بعيدة ، وإجازة ولكنها أبدية .. لقد مات الرجل وحيداً ! !

واربعة ايام وبضع ساعات مع الايام الاربعة وهو ملقى على السرير مكبا على وجهه وحيداً حتى في لحظات الغرغرة ودلت حاسة الانف عليه حتى اضطروا الى تكسير الباب ليجدوه في حالة لاتوصف وسار في جنازته عدد محدود ، ولم يكتب عنه إعلان وفاة ، ولم يعلم به حتى المنتفعون ببقايا إرثه عندما كشفت الايام عن بقايا إرث مطمور ! !

ومضى شاعر وأديب بوهيمى ، والله يرث الارض ومن عليها ، ،

محمود الرخصي

شاعر يموت في ملجأ





أديب فنان ، وشاعر متصوف ، أنيق في ملبسه ، وجيه في مظهره ، يقطر ، شياكة ، وأناقة ، كأنما هو يشترك في معرض ، أو مدعو لحفل به جميلات يرقبن .

وهو دوما كان مستعدا لحفل الرشاقة والأناقة ،ذواقة بالحس والطبع والتعود في اختيار الحجم واللون والنوع وأحدث الازياء (دون جوان) ولكن نسيه الزمان ولم تنسه النسوان . هناك من هو ذواقة بحاسة الشم للزهور والعطور والنسرين وما اتصل وتفرع من هذه الأنواع .

وهناك ذواقة بالعين للالوان والاشكال ..أشكال التناسق والتوازن وجمال متحرك أو جمال ثابت .

وجمال ناطق أو جمال لا يثرثر .. صمته يزيده حسنا ، وهناك ذواقة بالادراك فيما يختار من قراءة وسماع .. قراءة كتب وسماع ألحان وترانيم وتراتيل وأنغام .

وحكاية اللون والشكل والنغم قد يكون أمرها أيسر ،وفيها تربية ذوق ومذاق ونسميه حسا وأحساسا لكن ألعن هؤلاء وأولئك من الذواقين المستطعمين .

وأكثرهم جمهرة وكثافة وشعبية ذواقة البطون ،ذواقة البلاعم، ذواقة الهضم والقضم والمصمصة والمشمشة والتحلق حول البرم والقصاع ، يعرفهم الجزار والخباز والطباخ والبقال والخضار .

ويعرفهم آخر المطاف أطباء الأمعاء والبطون وأصحاب المغص.. ولكن صاحبنا كان ذواقة بحاستين من أرقي الحواس .

ومبعث الرقة في الادراك والاحساس .

ذواقة باختيار الملبس ومظاهر الأناقة .

نظيف أنيق يعرف معادلات الجمال في التنسيق والانسجام وراحة العين والنفس .

وهو ذواقة في الحس والمشاعر ،مرهف الحس في الكلمة والايقاع والنظم ،فهو شاعر أديب يختار ما يقرأ .. وما يروى ومايرتوى به من الشعر..

كان يختار الوردة الحمراء في سترة الجاكتة ، أو في عروة السترة يوم أن كان هناك ميدان لصناعة السترات .. يترك شقا صغيرا .. يمكنه من إدخال ساق الوردة لتكون مطلة من السترة .

كانت الوردة الحمراء لازمة له مع ان اختياره لهذا اللون لا علاقة له بالشيوعية والمتشيعين ..انما هو مجرد اختيار نباتي جمالى وليس اختيارا اتجاهيا أو انتمائيا ، لا موسكويا ، ولا مسكوفيا ، ولا بيكينيا ، وأيضا الطربوش الفاتح اللون المائل على جنب من جنبات يافوخه ، يتأرجح زره ويتمايل حسب ايقاعات مشيته .

كأنما هو عسكرى أحيل على التقاعد ، ذهبت رتبته وبقيت مشيته . حاد البصر ، وان لم يشترك في مسابقات للنظر .

حاد الكلمات ، وقد يدفع الفوران النفسى الى سلاطة اللسان وحرافة الكلمات .

عنيف اللهجة إذا حاور .

عنيد إذا داور ، شموس اذا ناور في الكلام والخصام ، لكن هل من وجهة النقيض أن يكون انطوائيا هروبيا ، اعتزاليا ، (ولا صلة له بمذهب المعتزلة) ....

رغم مظهره الأنيق ، وظرفه الظاهرى ، ودقة مشاعره في أختيار الوردة ، وقد تكون وردة المساء غير وردة الصباح .

ومن لباس حسب الفصول والمناسبات .

واختيار لون الحذاء وربطته .

ولكن سلم الناس من يده ، وان لم يسلموا من لسانه احيانا ، حاد ، حاد ، الى درجة الفوران والغليان ، .

قد يكون هذا في الدم وراثيا تحتار في تعديله والسيطرة عليه حتى أرقي المعادلات والثقافات ، وقديما لم يخطيء ولم يجانبه الصواب من قال : الطبع يغلب التطبع .

وحرارته الغضبية لا تخضع لمقياس عادى من مقاييس الحرارة الأنفعالية

هل يحتاج هذا في ظواهره الى محلل نفساني ؟؟

هل للعزلة أثر ؟؟

هل دفعته العزلة الى هذا ، أو دفعته ظروف للعزلة ؟؟

ولكن سؤال يطل ، من شاهق وحالق ، ويطل من قريب . ومن أمثلة غير بعيدة المنال .

من نوافذ التاريخ ، أو من رصيف المعاصرة .

ألم يكن هناك في الساحة الواسعة الفلاسفة والعباقرة والادباء ، وأصفياء الفكر ، وأصحاب الالهام الفنى ، أحيانا وأحايين يلجأون للعزلة ، والهروب

من ملاقاة الناس والكلام مع الناس، وأحيانا وفي بعض الظروف والحالات حتى مجاملة الناس !؟

وليس ولا بد أن تكون العزلة في قعر دار ، أو خبايا كهف .. بـــل قد يكون في السوق ، أو في الشارع وهو في عزلة ؟

لكن صحيح هذا ، وفرق كبير بين عزلة وعزلة ، عزلة الفن ، وعزلة الانطواء ، عزلة الانطواء والتأمل ، وتشرب الوحى الفنى والالهام الفنى ، وعزلة الانسلاخ والتألم .

أو ما نستطيع أن نطلق عليه — التآكل الداخلى — وقاك الله شر هذا وخطورة ضرره ؟

وبين هذه الأنواع من العزلة وصنوفها خط دقيق قد يكون كخطوط الطيف أو هو مزلق من مزالق الخطوط الوهمية ، أتراها من ناحية الدوافع الخفية ، هى من عزلة صدمة الحياة ؟ أو لصراع لقمة العيش ، ولقمة العيش قد تبهدل في وحلها أكبر الادمغة ، وأكبر الملهمين المبدعين . لديها سيان سواسية الناس .

يتضارب موج الحياة، والموج قد يدفع الى قاع سحيق ، أو الى شاطىء ملآن بالصخور، والاوحال، صراع .. لقمة عيش كسبها من تعليم الصبيان والعناية ببراعم الطلاب — مدرس حر ، ومدرس خاص، وفقيه « مودرن » يرتدى ملابس الوجاهة والاناقة.. لا يرتدى جبة ولا عمة ولا قفطانا ..

ويعرف ويجيد أصول التنغيم والترتيل والتجويد.. عصامى ، انفرادى ، لكن رغم لهب الانفعال بعرق الوراثة فيه طيبة قلب ، وصفاء نفس ، وصوفية أكسبته اعتزازا ، أو اعتزاز أكسبه صوفية .

تجوع الحرة ولا تأكل من ثدييها .

ويجوع العزيز ، المعتز ولا يطلب من أحد كسرة خبز ، ومع أناقته

وميوله الشاعرية ومع حفظه لقواعد وضوابط الترتيل والتجويد جمع ايضا الاتجاه الرياضي ، ولا نعني به رياضة القدم واليد والمصارعة والملاكمة والمباكسة ، والتي لا تتطلب مواهب عقلية وفكرية بل شيء من الفراغ ، وشوية اهتمام ، ومواصلة وآلات وأدوات ، ومرن ، ومصاريف وفراغ أو تفرغ ، تجد ما تريد أن تجد ، لا نقصد هذا .. فهو مجال لايميل اليه أهل الفن الشاعرى ولكن ميوله الرياضية كانت بالمعنى العلمى والاصطلاح الحقيقى لرياضة الفكر .

إنها علوم الرياضة الحساب وما يتفرع منه ، وعلوم ومعادلات الجبر والكسر ودقائق مصطلحات وتخريجات العشريات والقسمة والحاصل ، والمتحصل ، والمعقدات من العمليات الحسابية يسعف بها طلابه والمحتاجين الى علوم الرياضيات والمحاسبات والمعادلات .

هو من أسرة ساحلية ، نشأ وتربي بمدينة طرابلس. هاجر الى تونس وكسب بها معارف وأصدقاء يوم أن كان هناك بمدينة تونس أدباء السور ، أو جماعة السور وأيام شباب ابي القاسم الشابي ، وكان من اصدقائه والمقدرين له .

وهو كان متديناً ، بينما بعض زملائه من أهل الادب ورفقة الفن قد يغفرون لانفسهم أشياء ، ويستبيحون أشياء في براح ومراح .
لكن محمود الرخصى كان متديناً ، متنسكاً ، متمسكا ، يحفظ القرآن الكريم ، ويحافظ عليه ويجوده ، نغمة وترتيلا ، ويخطه خطاً أنيقا .

وقلما تتجمع لدى الشعراء الأدباء جودة الخط وجودة الأداء، لكنه خطاط جميل الخط ، جمع في اهتمامه بالقرآن خطاً وتجويداً ، بين قراءة المصريين تجويدا ، وخط الاتراك إجادة .

وهو الليبي ، أو على حد تمسك مصطفى بعيو بالضبط في الكلمة القديمة

هو اللوبي ، الذى عاش في طرابلس وقليلا من الأيام في الشام وبلاد الأتراك وكثيرا من السنين في تونس ، كان خطاطاً ماهراً ، يوم أن كان الخط الأنيق ندرة وطرفة وقلة ، يوم أن كان المجد الخطى ، بالثلث والرقعة والديواني لأمثال نجيب هواويني بك ، خطاط الأمراء ، ومكتشف التزوير ، وسيد ابراهيم ، وهذا الرعيل .

كان يبزهم ، ولكن كتاب اللافتات قلة في الشمال الإفريقى ،فكان رزق الخط ، كسم الخياط .

كان يخط القرآن في أجزاء وربعات بدافع التبتل والروح الصوفية في إيمان عمربه قلمه ، في بلد له نمط من الخط المغربي. الدال المعرقة. والفاء من تحت نقطة، والقاف نقطة واحدة من فوق، وهكذا يكون صعب القراءة عند المشارقة الا للمتمرس المتعود ، وهل الناس كلهم متمرسون متهرسون ؟

إنه اشبه بخط التسبيب والحجابات .

قد درس في تركيا ، قبل أن تخلع رداء الخلافة ، وقبل أن تطمس الحرف العربي ، ولعله استفاد من هناك إجادتهم للخط العربي والاهتمام ببعض المأكل والحلويات ، وسبحان الله ، له حكم خفيات في كثير من المفارقات بمقدار ما جنت بعض الظروف والملابسات على لغة العرب في بلاد الاتراك ، فقد أفادوا العربية خطاً وتنسيقاً وتجميلا .

* نزل القرآن بالأرض المقدسة .
* وقرأ وجود في مصر .
* وحفظ وكتب خطاً في تركيا .

وظل رغم وجاهته وأناقته عزبا طول حياته لم يتزوج .

وهو الشاعر الذى أسمع الناس في محيطه أشعاره وغزلياته وتأوهاته ، في شعر نشره ، وفي شعر طواه .

لم يبن عشا ولم يتخذ عروسا ، اذا لماذا كانت أناقته ووردته الحمراء ، وحفاظه على مظهره للاناقة واللطافة ، والهشاشة ، والبشاشة ، أهو حب عذرى من بعيد ؟

وهل تعرف بنات فرنسا حبا عذريا ، أو هوى قيسيا ؟؟
أم كان غزلاً فيه فلسفات أم زهد غير مقصود ...
زهد الثعلب عندما يرى العنب حصرماً في عيونه ؟
أم هو نوع من الاهمال ، تكاثر وتزايد إلى حد الارتباك وفوات الأوان؟

وقد يكون الجواب الآن نوعا من التخمين ، وضربا من الاحتمال الذى لا معنى له .

والذى رواه الثقاة من معارفه أنه كـان في شبابه فتوته (دون جوان) تتهافت عليه الفرنسيات والاوربويات سائحات ام غير سائحات ، ولكنه لم يكن عربيدا ، ويصب لوعته وحرقاته في صور شعرية . وإن عاتبه بعضهم

من شيوخ التزمت من أصحاب الوجوه الحربائية والعفة الكلامية والثرثرة الببغائية .

وقد يدافع عنه أصحابه مستشهدين قائلين ، والشعراء« يقولون مالا يفعلون . »

وكان يعرف الفرنسية ، يطل منها على المشافهات أكثر مما يطل منها على المقروءات .....

وشيئاً من الايطالية — رغم كراهيته ونفوره من الاحتلال الايطالى ، الا أن أصحاب الفكر والثقافة يرون أن الفكر والفن والثقافة شيء ، والاستبداد والاستعمار شيء آخر ، وهو مقياس حضارى منطقى .
نلعن موسلينى ومن على شاكلته من الطليان .

لكننا نحترم ونقدر إبداع دانتي ، وعطاء برنادللو ، وفن الرواية لدى البرتومورا فيا .

نلعن تشرشل ومن على هيئته وسيرته الاستعمارية .

لكننا نحب ونقرأ ونعتز بعطاء شكسبير، وشيللي ، ودكنز ، وبرناردشو ،

نلعن المستعمرين الفرنسيين لكننا نقرأ أنا تول فرانس ، وهو جو ، ولا مرتين ونهضم ما أعطى من روائع خالدة جوركي وتشيكوف وأدباء السوفيت وان كنا غير شيوعين مذهباً .

وكان يعرف التركية عندما كانت بصيغة الحرف العربي .

وإن كانت لغتها غير شاعرية العواطف فيما يؤكد بعض الشعراء وبجانب هذا ، أو قبل هذا ، يجيد ويتعمق لغة آبائه وأجداده . لغة المهد واللحد ،

وهو يتفصح بها لا تكلفا أو تقعراً بل ممارسة وعادة. فصيح بالسلق والسليقة .

وهو من المدافعين عن الفصحى قراءة وكتابة ، وملاهجة ومناغمة كان يحفظ (الشاطبية) ، وهي من متون علوم التجويد وفنون القراءات، تحوى بضعة آلاف من الأبيات المنظومة ذات مصطلحات فنية ، صعبة التركيب لايحفظها إلا الاذكياء المتمرسون على الحفظ والتسميع ، ولكنه لم يكن جهم الاسلوب ، مع أنه انطوائي النفس أحيانا .

وعرف في أوساط الأدباء في طرابلس ودمشق وتونس والجزائر أيام جولاته وهجراته بأنه شاعر ، أديب ، ذواقة للفن .

ونشر محمود الرخصي في مجلة ايولو التي كان يصدرها الشاعر أحمد زكي أبو شادى بالقاهرة .

وهو الليبي الوحيد الذى نشر شعره على صفحات مجلة أبولو ،والقصيدة بعنوان أنا وصورتي . كما نشر رثاء لصديقه الشاعر أبي القاسم الشابي .

ونشرت صورة محمود الرخصى شابا أنيقا رقيقا ، بين الزهور ، في مجلة ابولو ، في سنة ١٩٣٤ م . ص ٦٣٣ واشارت انظر ص ٥٨٩ ، حيث قصيدته ، كل هذا للاهتمام بشعره أنذاك في مجلة لها كثرة الرواج وآلاف القراء.

وعندما نقول : إنه الشاعر الطرابلسى الوحيد الذى نشرت له مجلة ابولو نقصد الشاعر الذى أرسل لها بنفسه وكان على درب الحياة .

يرزق ويشعر ويراسل ، والا فقد سبق للمجلة أن نشرت قطعة مختارة للشاعر مصطفى بن زكرى في ص ٣٢٣ – شهر ديسمبر – ١٩٣٣ – مطلعها – (دعاك الهوى فأجب من دعاك) .

جمع الشاعر قصائده ومقطوعاته في ديوان ، وهيأه في بضع كراسات ثروة العمر ، وخلاصة المشاعر ، وقدم في زيارة أو دعوة ، أو جس النبض لمدينة طرابلس ، مسقط رأسه ، ومقطع سرته ، وهبط المدينة ، أو مدخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، ونزل في فندق من الدرجة العاشرة ، في شارع خلفى ، بمنطقة أبي الخير كان يسمى الفندق المركزى ، لم يشعر به أحد من أصحابه القدامى .

بعضهم طواه الثرى ، وبعضهم اصابته لطعة العصر.. الانزواء والانطواء وبعضهم أثرى حتى بطر ، وبعضهم أدعق حتى توارى ،وشعر بالغربة في وطنه .

ليت صورة التحنان ظلت من بعيد ، لم تفسدها العودة ، ولم يشوهها واقع الحياة المرير ، في جفاف المجتمع ، وغربة الشاعر والفنان في بلده وبين أهله !!

والصدمة الصامتة من أشد ألوان الصدمات !

صدمة الصامتين على مضض ، المتبخرة أحلامهم في جفاف الواقع .

ما أحلى الأحلام من بعيد !!

ما أروع الشوق في ديار الاغتراب !!

ما أمر غربة الإنسان في وطنه ! ! وتكاثرت ديونه ، وتكدست همومه ، وترك الحقيبة والديوان الشعرى ، رهينة ، حتى يعود من سفرته ، فقد عاد إلى هجرته مرة أخزى .

وضاعت الحقيبة والديوان ! !

الحقيبة شلاتيت لاتهم ..تعوض، أو لا يهم وجودها ، أما الديوان .. وعصارة شاعر فنان ، والثروة الشعرية ، فشيء لا يقدر ولا يعوض ، كما ضاع ديوان أحمد الزدام .

وعندما التقيت مع محمود الرخصى في تونس بعد أوبته الثانية سألته فدلنى على الفندق واسم الخادم هناك وأعطى علامة وأمارة ، وحاولت أن أستخلص الديوان من براثن الضياع ، بأى شكل ، وبأى ثمن ، وسألت في ادارة الفندق وبكل بساطة وسهولة ،أو بكل تغليف وصعوبة ، مع تأتأة وفأفأة ، عندما مل السؤال وصيغة الحاح وتكراره ، قال الموظف الادارى .

*— وآش فيها دفتر وراح ، خلاص يا أستاذ ، ضاع ، ضاع .. راح هر والشنطة .

وسكتنا سكوت الألم ، الذى لا أمل في البحث عنه الآن .

وعاش حوالى الثمانين ، ولكنه احتاج الى ترجمان وحنان فلم يجد لا مترجما ، ولا صدرا حنونا .

وعمل موظفا في إدارة تابعة للأوقاف بعد أن تجاوز مرحلة الاحالة بمراحل وفي مكتبة الاوقاف مكث فترة يعد الفهارس المهملة في الرطوبة القاتلة والسن له حكمه ، وكل شيء يمكن أن يكابر فيه الأنسان إلا حكاية زحف الزمان وغضونه وقوارص الدهر ، والزمن لا يخفى بصماته .

وذهب الى ملجأ العجزة ، ومكث فترة بملجأ العجزة بقرقارش ونقل منه إلى ملجأ العجزة بزاوية الدهماني ! ! !

وتوالت الليالى والايام متشابهة في مدها وجزرها ، وتفتت العمر على صخرات اليأس المرير .

لا كتاب ، لا قصيدة ، لا ندوة الا أحاديث مجترة كانت دون مستواه، ومات بغصة الفن والأدب !!!

ومات وفي صدره غمغمات من نشيد يلهج به لنفسه وترمغمود في بحة الألم، حتى ليلة العيد لا سائل ولا مواسى !!

لم يذهب أحد من أصدقائه ومعارفه في موكبه الاخير ورحلته الأبدية ، ودفن في مقبرة سيدى « الهاني » .

ولم تشر إلى نعيه جريدة ، ولم تنشر عنه صحيفة ، ولم يسطر احد عنه سطرا حتى سطور المجاملات والتعازى ، وطواه الصمت الابدى ، وبقى اسمه في مجموعة ابولو محمد حسين الرخصى .

ودع الحياة في يوم ١٠ من فبراير ١٩٧٥م

وهذه قصيدته (انا وصورتي) نظمها قبل أربعين عاما في وداعه لشاطىء الحياة ، أتراه كان يرثي نفسه قبل الآوان ؟!!

انـــا وصورتي

أيها التائه ما بين الشجر ضاع عمـــرك
بين آمال وهم وفكر طال غمـــرك

.. ..

ما الذى أملت من هذى الحياة ثم فـــزت ؟
لم يكن حظلك الا بالشقاء قــد خســرت

هذه الاعوام مرت كالسحاب دون جدوى ...
ما الذى ترجوه من باقي الشباب غير بلـــوى؟

هكذا العمر تقضى بالنصب والشقـــــــاء
بالتعلات تقضى والتعب والرجـــــــاء
أين آمال ينميها الغرام ؟ أين ضاعـــت؟
أترى الدهر دهاها بالسقام فتـــلاشـــت

.. ..

كان بين جنبيك فؤاد مفعم بالغرام
خيم الحزن عليه مظلم كالغمـــــــام

.. ..

كان حلم ضاع في صخب الحياة وتناثـــــــــر
اترى ترجع من بعد الوفاه والمقابـــــــر

.. ..

أيها البأس لاتبك على ما فقـــــــدت
هو ذا العيش عناء وبلا لو علمـــــــت

.. ..

انما الدنيا عذاب وشجون وهمـــــــوم
وشقاء وبلاء وفتون وغمـــــــوم

.. ..

أيها الباكى على آماله كن شفوقـــــاً
حسب هذا القلب من أحماله كن رفيقـــاً

.. ..

لم تبكى ؟ لم هذه العبرات ؟ قد فنيـــــــت
ويحك القلب فتى في الحياة قد شفيـــــــت

روح النفس بأزهار الرياض تتسلـــــــى
ودع الناس على آت وماض تتقلـــــــى

.. ..

قد أضاعوك فدعهم لاتمل للأناســــــى
لا تمل تسعد ، وألا فتضل وتقاســــــى

.. ..

انشق الزهر فيكفيك العبيق واحفظنهـــــا
هى من أم وفي الأصل الشقيق لا تخنهـــــا

.. ..

ربما ذا الزهر من قلب وديع قد تولــــــد
أو فؤاد كان في هم مريع وتبــــــدد

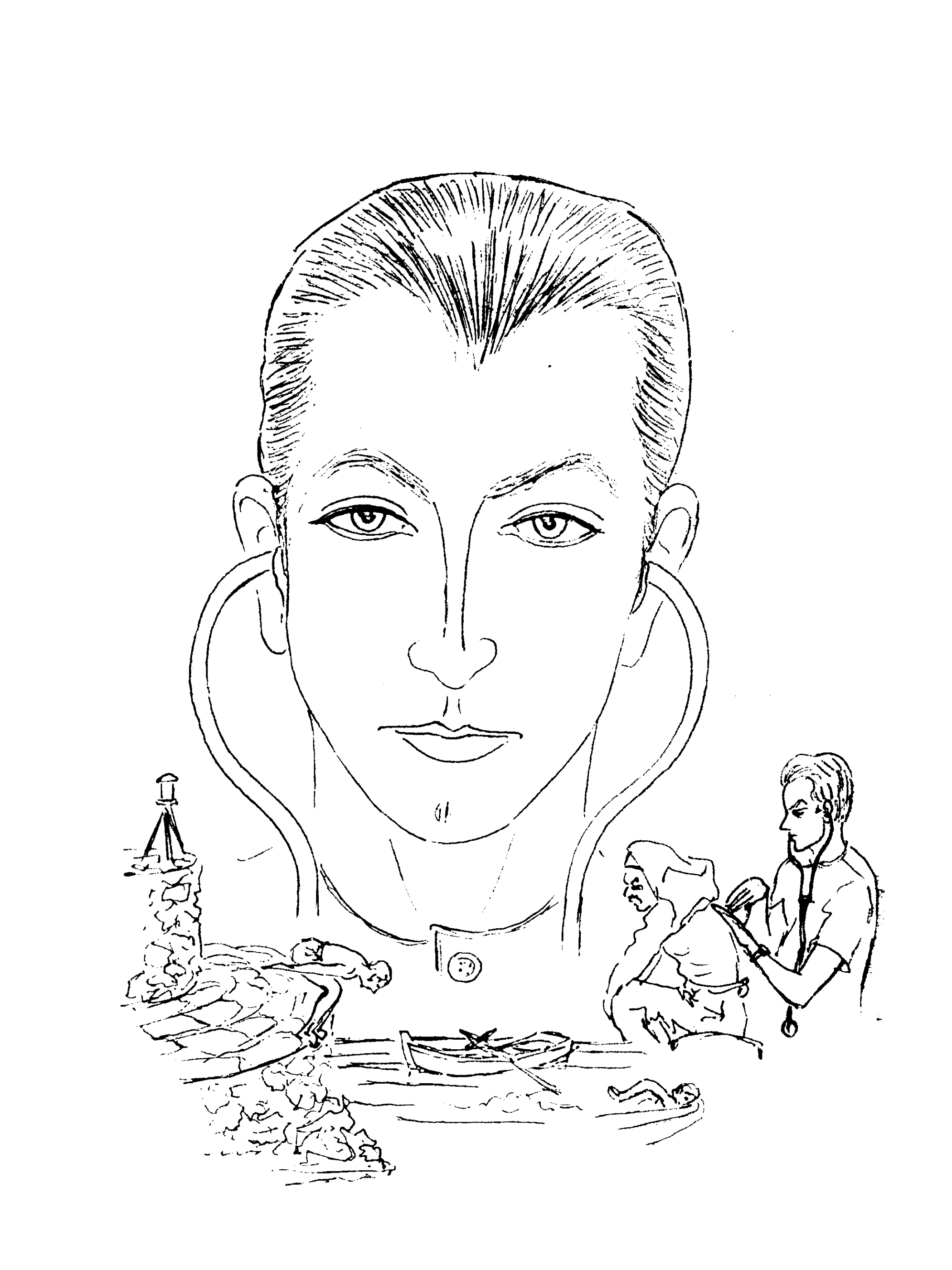




سعيد طوقدمير

مستشرق ولكنه من المدينة القديمة







سهل النطق متداول كثير الروجان في أسواق الأسماء ،

أما ذيله ولقبه ، أو بقية اسمه فأعجمي مطمطم ، عسير النطق ، غريب على الأذن ان لم تتعود عليه ، فيه طقطقة الطاء ، وقلقلة القاف ودمدمة الدال ، متداخلة ، طاء وقاف من أقصى الحلق . والدال المدمدمة .

وهو مواطن طرابلسي صميم ، وكما يقول عن نفسه عندما يخبط صدره ويشهق تلك الشهقة (المدينية) :

– يا حسرة ، من قعر الخابية !!

فقد كانت إقامة العائلة بزنقة الريمي ، بكوشة الصفار ، في المدينة القديمة ، وكانت العائلة تقضي فترة الصيف بسانية « العيون » ومكانها الآن شارع المعري ، واستقطع منها ايضاً الميدان البلدي القديم ،

ولد سعيد اثناء زيارة والدته لأهلها باسطامبول عام ١٩٠٦ م .

قبل الغزو الإيطالي بخمس سنوات .
وعاد في اللفة ، بعد أن قطعت صرته هناك ، وهو يمص إصبعه دون العام .

فقد تزوج والده – داود افندي من ابنة محمد فريد باشا

الذي كان متصرفاً بجبل نفوسة ، الجبل الغربي وأيضاً متصرفاً بساحل الخمس حيث لا يزال جامع فريد باشا قائماً هناك إلى الآن بناه جد سعيد طوقدمير .

وأبوه من الشخصيات العلمية المعروفة. خدم الفكر العربي الإسلامي في طرابلس الغرب .

وقدانتقل من المدينة القديمة قفزة إلى ضفاف البسفور وحدود القوقاز .. في أواخر عهد سلطان الخاقين والبرين . والبحرين . السلطان بن السلطان ابن السلطان .

وهو عربي الوجدان والأصل والمفصل .

تركي الدماغ ، مسلم العقيدة ، طيب السلوك ، أديب في شروده ..
فنان في تصرفاته ، تلمح فيه هيمان العالم ، وتلمس فيه كرامة المعتد بنفسه إلى درجة العناد .

باحث سرقته عيادة الطب ..
وأصابع تجيد مداعبة المبضع والقلم ..
شخصية علمية فيها عدة جوانب جديرة بالاهتمام .
لكن بعدت عنها الأضواء أو بعد هو عن الأضواء .
عزوفاً واعتزازاً منه .

ومن ناحية أخرى قد يكون من نوع الإهمال وعدم التقدير من مجتمع متخلف سواء كان هذا أم ذاك أو كليهما ..

فالدكتور سعيد طوقدمير ذو وزن في كفة التقدير والميزان ،وفيه من ملامح ومناهج الاستشراق والاستغراب الكثير ،وتتنازعه عوامل واتجاهات علمية:

قلم الكاتب ، ومبضع الطبيب .. ودقة الباحث وهيمان الفنان .. وشطحات البوهيمي الفيلسوف ، محاضر ممتاز من طراز فقدته المنابر والمحافل العلمية ، متحمس — ولا أقول متعصب — للاسلام في مظهره الحضاري .

فتاش غواص ، حفار نقاب يبحث عن الكلمة إما في أعماق قاموس ، أو في قعر مدينة وداموس — أشبه ما يكون بمناهج وأساليب المستشرقين وجهابذة المستعربين . كانت أحاديثه حتى العابرة ، وأسماره العادية ، تصلح ان تكون مواد محاضرات علمية أو رؤوس مواضيع لدراسات وبحوث .. يتكلم بسعة اطلاع وعمق تفحص وإدراك .

موسوعي من لغة ، ولهجات ، وحفريات أثرية ، وغرائب الطرائف إلى فتوحات وتاريخ وسلاطين ومغامير وغزوات وتراجم أعيان وأعلام والأنهار والجسور والسدود والنبات والفلك والطب والجراحة والدورة الدموية والحالة المعنوية وتقلص الشرايين واسباب الروماتزم ووجع المفاصل والزائدة الدودية والنواقص الفيتامينية وما لا يخطر على بال ، ويأخذ بالبلبال .

متى قرأ كل هذا ؟ أين قرأ كل هذا ؟ كيف سمح له وقته بكل هذا ؟

أسئلة قد لا تهم أثارتها بمقدار ما يثير إعجابك وتقديرك عندما يتدفق محاضراً ومتحدثاً وكاتباً ومسامراً .

ملامحه امتزجت فيها ملامح آسيا بأوروبا ، لكن هناك عجمة قد تدور قليلا على طرف لسانه وتتسلل أثناء حديثه من طريقة ربط بعض الجمل ، أو نطق بعض الحروف حتى يقول صاحبه الذي يحاوره :

— متى هبط هذا المستشرق البلاد ؟

وحزقتنا النكتة أو القفشة على رأي إخواننا أهل الظرف واللطافة ، المشارقة ، وقلت له :

ــ ان كان هذا مستشرقا ، فأنا مستغرب :

أي مستغرب لك أو مستغرب منك ، وإن كانت النكات والقفشات لا تشرح ــ وللأمانة والتاريخ الأدبي ،وحتى التاريخ الفكاهي والعلمي أمانة ، هي نكتة أبدعها ،ولفظة اقتفشها المرحوم استاذنا الشاعر إبراهيم ناجي ، قالها ارتجالاً ذات مرة في ليلة من ليالي القاهرة ومن فمه سمعناها ومن هنا بتوارد الخواطر وتداعي الذكريات ذكرناها ، بالسند المتصل عنا نحن الرواة هنا عنه هو رحمه الله ، المهم وأما بعد هذا التطوح

فسعيد طوقدمير ليبي قح عربي صراح بالصاد لا بالضاد وبالحاء لا بالخاء ، وإن كانت فيه من العجمة لحمة من ناحية الخؤولة والجدات من ناحية الأم أو العالم الإسلامي في ظل التاريخ والعقيدة والأنساب أسرة واحدة ولو كره المستعمرون والغافلون ومن في ذيلهم .

مسلم صحيح الإسلام عربي الوجدان .

ولكنه شأن جيله ومن آوي إلى ذلك الجبل الذي كان يودأن يعصمه من الماء ، شأن تلك المرحلة تترك هناك ، وكسب لقباً جديداً .

سعيد طوقدمير .

سعيد ، كلمة عرفناها تفاؤلاً في بيت أهل المولود .

والمشتقات والمضافات من مادة س .ع . د كثيرة جارية سارية .

سعيد وسعد ومسعود وأم السعد وأخوات هذا الاسم ، وما أخذ منه

تبركاً وتفاؤلاً .

يسعد سعدان سعيد بالتصغير للتدليل والترجيب

سعدون سعادات يسعد الله صباحك . وإن كنت في المساء . يسعد مساك .

وان كنت صغيراً تزأط يا سعدودك .

لكن أين الجزء الثاني من الاسم . من أين الطقمرة ؟ أو الطقدمرة ؟

هذه : وضحك ملء فمه وقال :

– لطعة من لطعات ذلك المناخ في فرض لقب بصيغة ذلك العهد قالوا في أول غمرته . فرض . فرض عين . وفرض أنف . لا فرض كفاية .

فاختار – وهو اختيار إلزامي :سعيد بن داود افندي لقب طوقدمير – تركيب مزجي غير عربي.

طوق = مطعم

دمير = الحديد

أي الصلب أو الحديد المطعم .

وهذا الحديد .أو الحديد المطعم لا صلة له بمهنته ولا بمهنة أبيه وأجداده – إلا إذا كان من قبيل المجاز والاستعارة، أي الإرادة الحديدية أو الإرادة الفولاذية .

وكان والده في طرابلس قد اتخذ له عند مولده من الأسماء :

النعمان بن سعيد محمد داود ، هكذا شهادة الميلاد ، وشهادة الأهل والجيران والأقارب والخلان .

النعمان بن سعيد يصبح طوقدمير . ألا يذكرك نطقه بلقب أهل الكهف قطمير ؟

وتعلم التركية من والديه والعربية من عائلة أخته .

فقد كانت أخته زوجة للشيخ مصطفى ذهني الكعبازي المدرس العالم .

ودرس الإيطالية في صغره بمدرسة الرهبان « الفرير » التي كانت كائنة بزنقة الاسبانيول ، باب البحر قرب جامع محمود .

وهاجر مع والده ثم عاد معه والتحق سعيد بن داود بالمدرسة الإيطالية الثانوية (الجنازيو) شارع ميزران .

وحاز الامتياز والتفوق في جميع المراحل على الطلاب الطليان أصحاب اللغة أنفسهم . وكاد يحرم من الذهاب إلى الجامعة بروما ، شأن أبناء الوطن ، لولا تدخل الرهبان ، وشق طريق الدراسة والتفوق والامتياز .

وقد شفع له جوازه التركي ،وإلا لحرم من الدراسة كما حرم الكثيرون وسافر إلى روما ودخل كليه الطب ، وتخصص في الطب الباطني والجراحة وتخرج من جامعة روما عام ١٩٣٣ م .

وكان قد ذهب اليها عام ١٩٢٥ م .

وكان من بين الذين تلقى عنهم دراسة الطب البروفسور فروغوني الطبيب العالمي ،وكان يقول عنه لأصحابه (الدكتور سعيد في الطب الباطني عراف وفي الجراحة نقاش) .

وعندما كان في جامعة روما فاز بمسابقة لكتابة القصة القصيرة بالإيطالية ونشرت في صحف إيطاليا وأذيعت في الإذاعة .

وكانت أصابع سعيد في الطب مثل الأشعة السينية.. تكشف بوضوح وسهولة موطن الداء ونقطة العلة ، واشتغل في مستشفى جراح باشا في اسطامبول شارع — باى اولو — وعرف بخبرته في إزالة الزائدة الدودية بسرعة ومهارة .

واستغرق عمله في تركيا من عام تخرجه ١٩٣٣ حتى عام ١٩٥٣ عشرين عاماً في مجال الجراحة والطب وروائح واباط نــزلاء المستشفيات وتأوهات وبسمات الناقهين .

واستدعته بطرابلس ما كانت تسمى « النقطة الرابعة » لشهرته في مجال الطب ، لبعض التجارب التي أجراها لمصالح شركات كبيرة على بعض العقاقير الجديدة ،ولكنه لم يستقر مع هذه المؤسسة ،وترك راتبها الكبير المغري لغيره.. وكانت هناك ملابسات وظلال حول هذه النقطة في خضم تلك الأيام فآثر تركها وعمل في إدارة الخدمات الصحية آملاً أن يقدم خدماته لبلاده ، ولكن لم يدم في عمله طويلاً لبعض التدخلات فقدم استقالته ثم طلب للعمل في مؤسسة الضمان الاجتماعي ،وكان عمله هناك في المجال الصحي مع عمله في عيادته الخاصة إلى أن توفي بطرابلس ٨ مايو ١٩٧٠ م وحسب رغبته في وصيته حققت أمنيته في دفنه بجوار الصحابي منيذر حيث والده داود افندي وشقيقته ..

* * *

وكانت سنواته في طرابلس ٥٣ ــ ٧٠ السبع عشرة عاماً حقبة خصبة حافلة بالنشاط « العلمي » .

حواراً ومحاضرة ومقالاً وبحثاً وتعليقاً .

وكان يجيد الحوار والمحاضرة بلغة الشاعر دانتى .

وفي جمعية دانتى بطرابلس .. ألقى عديدا من المحاضرات والندوات حتى إنه فاز في إيطاليا بجائزة أدبية لتفوقه في لغة دانتى الشاعرية ...

ونشر على صفحات جريدة ــ الجورناللى دى تريبوللى ــباللغة الايطالية..

ونشرت له مجلة الأفكار التى كانت تصدرها جمعية الصداقة الليبية التركية .. والتى يرأس تحريرها الأديب الشاعر راسم قدرى ...

والدكتور سعيد طوقدمير ..يجمع في مقالاته بين العمق العلمى وطرافة العرض .. وحسن الاختيار .. والاسلوب المتميز الذى ينم عنه ..ويوضح ملامح الاتجاه وملامح المضامين بروح علمية .. دفاعا عن قيم الحضارة

الإسلامية . وكانت بعض المقالات والدراسات تحدث موجة من الأخذ والرد والنقاش العلمى الجاد ....

كان مستقيماً في سلوكه متواضعا ... فيه ميزة الفنان العالم ..

طفولة وبراءة ..رغم ما يكتنفه أحيانا من عناد وصلابة ..و — نشفان دمـــــاغ —

وقد استقى دراسته العربية أو ميله للأدب العربى خارج نطاق المدارس الرسمية . ولعل مرجعها الى أيام تردده على مدرسة عثمان باشا بطرابلس .. وكانت هناك أيضا ندوة حـوش السلعة بناحيـة قوس الصرارعى ..

وكان يتردد عليها مجموعة من هواة الأدب وقراء المجلات العربية التى تصلهم عن طريق التهريب والتسلل .....

وفي ندوة حوش السلعة ..رغم عيون الرقيب وآذانه ..قام نوع مـن التبادل الثقافي والاحتكاك بين مايتلقاه هؤلاء بلغة الطليان وما يدرسه هؤلاء من لغة أهل البلاد .. لغة الوطن والأهـــل لغة الأدب العربى .. كان في مثـل هذه اللقاءات وهو طالب يأخذ منهم ويعطيهم ..يستفيد ويفيد .. ماذا عندهم وماذا عنده من معرفة ومطالعات ؟.ولو استمرت مثل تلك الندوات لكانت نوعا من الصالونات الادبية ..او التيارات والاتجاهات المدرسية .. لكنها مجرد موجة لطمتها صخور الواقع الاستعمارى ..آنذاك ..

وانتقلت الدورة والسهرية من حوش السلعة بقوس الصرارعى، الى المصيف الى — راس المول — حيث كانت مشويات الاسماك من سنارة وشباك صيادين مهرة .. وعطاء من أهل الاحتراف للصيد ..مثـل الصياد.. المليتى و— ابوشاقور — والشويخ — والعريبى — وغيرهم من صيادى شاطئ طرابلس .

كان يسرد ذكرياته هذه لأصحابه في سمر التاريخ لندوته وأهلها

وقد فتح عيادته الصغيرة المتواضعة .. شكلا ..لامضمونا ..

يستقبل فيها زبائنه ..المرضى ..وأشباه المرضى ...

لكن كان في عيادته أطرف طبيب شهدته طرابلس التى كانت تموج بأطباء أروام باستثناء الطبيب عاشور طبيب الاسنان والأضراس الذى كان منذ نصف قرن أشهر طبيب في عدن وانتقل من عدن ،الى طرابلس ،وفي يده ورقة طبيب ، وفي خرجه عدة يمكن بها خلع الاسنان ، وقلع الاضراس كلها .. أن اردت خلع أسنانك والاستغناء عن اضراسك ، وكانت عيادة الاسنان فوق جامع سيدى حمودة من عمارة الاوقاف .

وكانت عيادة الدكتور سعيد طوقدمير قرب الكلية الفنية في الممر المواجه لها من جانبها الأيمن شارع هايتى قبل انتقال الكلية وهى في مبنى خلف مدخل مقهى البونبانيرا

وكان الدكتور طوقدمير اذا حس أوجس أو شم منك رائحة العلم ولطعة الفن استمر معك واستمرأك ، وترك المبضع وكتابة الروشتة وسماعةالقلب وطفق يحاضر في اصل الكلمة وجذرها ومفصلها وبنيتها في قاموس الفيروزبادى أو قاموس لاروس — أو دائرة المعارف البيريطانية ، أو قانون ابن سينا ومصطلحات الخوارزمى ،وقد يترك الفحص والجس في صحة الزبون وذراعه او جوفه ويبحث عن صحة الكلمة ويجس اصلها ومفصلها وهويتها ومن أين جاءت ؟ وأين راحت ؟ وتعربت ام تعجمت وغمرت أم شهرت وهل تعممت أم تبرطلت وتبرنطت وتبرطعت !!

ومتى دخلت البلاد وسارت في الاسواق .

وعنده في ركن عيادته اسعافات أوليه عاجلة ،اقصد قواميس ومصادر ومراجع اولية تسعفه مبدئيا ،أو مسكنات لغوية من نوع الاسعافات والاجابات اللغوية العلمية التاريخية /

ثم بعد ان يشبع دراسة وبحثا — ويقتل الموضوع او يحييه بحثا يدخل

في موضوع المرض وتشخيصه ، وان كان ذراع حضرة الزبون ممددة والظهر عارياً ، وانتظار الزبون على المنضدة الطبية طال ... يعتذر في أدب ورقة ..بأن العلم والادب سرقه وجذبه وسرح به ، وآفة العلم والفن السرحان والتوهان وتطويل الخيط في الابرة احيانا

ويعود الى الفحص من جديد أو من نصف الطريق .

وهناك فى الممر والدهليز وقاعة الانتظار حضرات الزبائن والزبونات يتململون ، وتتنمل ارجلهم وتتخدر أيديهم .

ويداعب عيون بعضهم نعاس الملل من الانتظار .

ويظنون أن تطويل الزبون عند الدكتور سعيد (وهى عندهم أسهل من كلمة طوقدمير) انما هو تطويل من العناية والاهتمام وجدية البحث والفحص والتحليل والتحريم ، بينما هو قد استغرق في لجة علمية وأخذه خضم آخر في الفحص والتحليل في جذر علمي حضارى قد يكون حفرية لغوية او مشكلة فلسفية او تحليل نبات ربما انقرض شكله.. ،سبب رحلة بعض الطيور من قارة الى قارة وكيف وجد الرادار في أجنحة الخفاش ولماذا اسموا مرض الكوليرا بوكماش؟ ولماذا انقرضت فاكهة العناب من تاجورا .. وانقرض نبات السلفيو من الجبل الأخضر ... كان يوزن بالذهب ولكن رغم قلق الزبائن والزبونات من طول الانتظار والتلهف على المثول بين يدى الطبيب وسماعته التقليدية واصابعه السحرية واسئلته الحنونية فهم من ناحية اخرى يطمئنون نفسياً عندما يطول الفحص يؤكدون ان الدكتور لابد انه طبيب جيد وخبير له عناية واهتمام فلا يكشف بسرعة ولا يكلفت الزبون مشى حالك

بل هاهو يمكث في الفحص والكشف اكثر من ساعة .

ولا يعلم هؤلاء المنتظرون المساكين ان الساعات قد تضيع في تصوير وحديث عن شيء بعيد عنهم .. والعلماء فنانون ويقال قديما وحديثا .. الفنون جنون !!

فاذا كان الطبيب على شاكلة هـذا العالم الفنان الفيلسوف فالضحية هو الزبون ، فهو يحاضر للزبون في أى مادة يدرسها .

ويتحدث معه عن هوايته إن كان من أصحاب الهوايات .

وهو يريد ان يجعل من الزبون المريض صديق علم ...

لامجرد مريض يتأوه ، ومشتك يتاوى ويتكحكح .

وإذا علم انك من ابناء المدينة القديمة سألك :

من اى حى ومنطقة ؟

واذا ذكرت له الحى والمنطقة سألك :

– من أى شارع انت ؟

واذا ذكرت له الشارع سألك

– من أى أسرة ؟

واذا ذكرت له الأسرة لا يستبعد –ان كانت من الأسر القديمة العريقة– أن يقول لك :

– ابن مـــن ؟ وفرع مـــن ؟

فهو نسابة رغم هجرته التى طالت في بلاد البسفور والدردنيل ومرمرة اوالبلاد التى شعارها قديما : الذئبة التى يرضعها ابناؤها . ودهاليز باريس رغم طول غيابه هناك –لازالت ذاكرته تحتفظ بالأنساب والتفرعات .وكان لايجاريه ولايباريه ولايسايره في هذا النوع الاالشيخ العيساوى بوخنجر ..فقد كان من طراز فريد في هذا النوع من الاهتمامات .

ذاكرته النسابة لا تقل عن ذاكرة ومعلومات القلقشندى في ايامه وانسابه او صاحب بحر الانساب مع ملاحظة الفوارق ،وعوامل المفارقات . وهى ذاكرة لا تقل عن ذاكرته الادبية والفنية .

واحيانا يقول لك الدكتور سعيد جدك .. ابوك .. امك .

وذات مرة وقع في مأزق — وكاد يلطمه أحدهم ولا داعى لذكر اسمه فلا نسمح له بدخول التاريخ من هذا الباب — ولنقل هكذا — احدهم — من غمار الناس — كاد أن يلطم الفنان العالم كفا لولا أن الله سلم — فقد دار هذا الحوار الذى نختصره بلا ابتسار — انا اعرف املك فلانــة —

وذكر الدكتور بعفوية وصدق اسم تلك الأم وكانت اسماء النسوة في تلك الفترات والمجتمعات من الامور غير المستساغة .. وصمت صاحبه على مضض ولكن المضض زاده امتعاضا عندما قال له الدكتور على ملأ ومسمع من الناس :

— امك كانت حلوة !

وتململ صاحبه وهو يكاد يصفعه والعيون تبحلق وتكاد الشفاه أن تزوم زومة قد تطيح فيها الرقاب ، ثم رماه بثالثة الأثافي عندما قال :

— انا اعرفها كنت معاهـــا !!

كيف ؟..وهب الرجل واقفا مكشرا مزمجرا كقط شرس ينقض بمخالبه غاضبا وبادر الدكتور باعتذار أو باعتذار من نوع : عذر اقبح من ذنب

— امك حلوة كنت ألاعبــها ..!!

وهنا انفجر الرجل في وجهه لان الحديث كان امام الناس

— أنت تعرف أمى ياصعلوك ؟

— نعم كنت ألاعبها وهى صغيرة تحت السلم .. أمك كانت حلوة

ويقطب الزبون حاجبيه ويكز بأسنانه ولكن تلافي الموضوع قائلا :

! كنت انا واياها صغيرين في الزنقة نلعب معاها منذ خمسين سنة !!

ولعل من أهم ما قام به في المجال الثقافي تلك الدراسات الموضوعية في ميدان الابانة والدفاع عن قيم الحضارة الاسلامية ، ودورها الانسانى وشرحه للاجانب — بلغتهم وبمنطقهم — وبأسلوب علمى بالوثائق — معانى الفتح

الحضارى الاسلامى والفتوحات بأوربا وتحقيقه التاريخى عن البطل محمد الفاتح .

وعن تأثير الثقافة الاسلامية في لغة دانتى ، ودراسات دانتى ، وعلاقة الشعر العربى بالفكر الأوربى ..

وتاريخ الصيدلة في طرابلس غرب .

مجموعة من المحاضرات والدراسات والبحوث ذات أصالة ودسامة تذكرنا بشكل ما ، وفي اطار ومنهج ما بأسلوب الاستاذ الاديب الدكتور بشر فارس مع فوارق عديدة .

لكن بحوث هذا وذاك عليها طابع الاناقة والاستشراق والغرابة والطرافة .

وكان الدكتور سعيد طوقدمير يجيد العربية بفروع لهجاتها .. ومن لغات الغرب الايطالية والفرنسية ، ومن لغات الشرق الأسلامى — التركية والفارسية والبربرية .

ومن لغات الاقدمين — اللاتينية ، وشيئا من الاغريقية .

وكان لايحب النزعة الغربية والموجات الإلحادية .

وينفر من الطورانية ويراها ردة حضارية .

هو ابن داود افندى ولعله بجهده وتعدد مواهبه ونشاطه يبرهن على تدعيم نظرية توارث الذكاء ، وان كانت نظرية لا تصدق في كل الحالات .

وقد يقال : الثقافة لاتورث ولكن ، يؤثر بشكل ما المحيط الثقافي

الثقافة والمواهب قد لا تورث .

ولكن الانسان يتأثر بالمحيط في البحث والدراسة والميول .

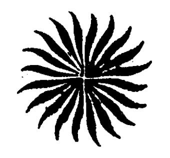
الفكر العلمى والموهبة ليسا بالوارثة وحدها .

والا ..فأين أحفاد واولاد الفارابى وابن سينا والمتنبى ومهيار وبشار وابن خلدون وما ركونى ودانتى ؟ هل من اصلابهم واولاد احفادهم نظراء لهم ؟

وكم من نوابغ من سلالة جهلة !

وكم من جهلة بلداء من سلالة نوابغ !!

ولكن مع ذلك للمحيط أثره، وللبنات الاولى تأثيرها هى قضية لاتقبل جدلا ،وهى قضية علمية قد يثيرها الابن المثقف النابغ الدكتور سعيد طوقدمير ابن الباحث المثقف داود افندى .. وهل تصدق نظرية : ابن الوز عوام ؟!



عيشة الزنتانية

قبضية

من طرابلس على شاطئ الإسكندرية







أشهر اسم من المهاجرات في محيط المهاجرين بالاسكندرية .

قطعت رحلتها سيراً على الأقدام من بلدتها الزنتان .

أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر في أقسى الظروف إلى شاطىء الاسكندرية التي سبق أن اتخذها موطنا ومقراً المرسى أبو العباس والإمام الشاطبي من الأندلس ومغاربة وليبيون آخرون .

كانت هائمة في الصحارى في رحلة شاقة محفوفة بأنواع الأخطار يعضها الجوع ، ويحرق جوفها العطش !!

وعرفت أسماء مناضلين وأسماء تجار ووجهاء .. في ذلك المحيط المترامي الاطراف المتسع الأرجاء .

يقال فلان فيعرف اسمه ، ولكن لابد من إضافة لقب إليه ليتميز وصفه فيعرف .

أما هي .. هكذا .. خالتي عيشة .

وأحيانا .. عيشة الزنتانية .

كفى بهذا دلالة وإشارة .

امرأة لها شخصيتها وقوة إرادتها .

مع أنها كانت عاملة في مصنع لحلج الاقطان بمينا البصل بطرف الإسكندرية .. بين آلاف العاملات في دنيا تحتاج لقمة العيش فيها إلى العرق الشريف .

عرفت العمل الذي هو عطر من مداد الملائكة وعرق تسبيحهم .

طويلة القامة .. رافعة الهامة .

قوية الصوت .. مجلجلة النبرات مدوية .

لكن في قوته نبرة لها في الأذن طعم خاص .. ونكهة ذات تميز عن كل الأصوات .

رغم قوته ليس فيه خشونة، ورغم أنه لامرأة ليس فيه تغنج الدلال ولا ميوعة الأنوثة .. صوت يترجم معنى الاعجاب به ألى لون من التقدير قد يرتفع ألى درجة المهابة .

ترى لو كانت مطربة ؟

لكانت ذات لون خاص في عالم الغناء والإطراب .

كانت فاحصة النظرة كأنها فارس .. قوية الذاكرة .

حافظة .. لاقطة .. مستوعبة حتى لأدق التفاصيل .

أمية .. لا تقرأ .. ولا تكتب .

لكنها تحترم المثقفين وتجالس المشايخ ، وتروي عنهم طرائف من المشافهات ، وألوانا من طرائف المعلومات .

قال الشيخ فلان ، وسمعت الشيخ فلانا وكما روى فلان .

كانت موطن الاحترام لدى الجميع .

تعرف وتزور المنازل منزلا منزلا من الحضرة للمتراس ، للقبارى لمحرم بك والانفوشي..، من التاجر الثري صاحب العمارة إلى بائع الكسكسي المتجول الواقف بعربته فجراً عند المصانع يقدم للعمال طبق الكسكسي بسمن وسكر بنصف قرش أو بمليمين .

كانت عيشة الزنتانية من الوثائق المشافهة تعرف معارك الجهاد بالتفاصيل وتعرف الفرسان والابطال ، وهي تفتخر بأنها كانت تزغرد في الساحة بلهجة تماوجت فيها الانفعالات تقول :

يا حسرة بعد زغردة البارود و تحمس الفرسان تزغرد للشاربين في عرس أو طهور وتنطلق زغردتها مدوية ..

لم أسمع في حياتي أقوى من زغردتها .

زغردة خالتي عيشة الزنتانية تعجز الحروف والكلمات عن ضبط إيقاعها وإن كانت زغردة أمي ، وأنا طفل في أذني أرق .. لكن زغردة الزنتانية كان لها طبع مميز وملمح به تعرف من سائر أنواع الزغردات .

•—والزغردة موهبة خص الله بها النساء وليس كل النساء .

وزغردة خالتي عيشة الزنتانية لاتقدر عليها حتى محترفات الغناء من العوالم في الزفاف والاعراس .

وتنطلق إلحاحات النسوة في عفوية وصدق .

• — والنبي يا خالتي عيشة زغرودة كمان .

• — وحياة المحروسة بنتك زغرودة تاني .

وتدعو إحداهن للمزغردة بصفاء البال .

— وإن شاء الله تحجي وتزوري النبي يا خالتي عيشة وتنطلق متواصلة متحمسة متفاعلة .. و .ر.و.ر. و...ووو... ووو ر.رر ... ووووو ر.ر.

ملاحظة (لايمكن كتابة الزغرودة بأحرف الهجاء).
(ولم يكن هناك تسجيل لأسمعك إياها)

ولكن هي على كل حال كأنها آ ة اغنية أو لحن موسيقى طعمه ووقعه يسمع ولا يوصف ، ومعذرة مرة أخرى فاتنا ان نسجله .. فاتنا لسبب يغني عن كل المعاذير والاسباب .

– لم يكن التسجيل على الأشرطة موجودا آنذاك بل ولا المذياع في ذلك المحيط .

* * * *

ما من مناسبة في محيط البيت بالاسكندرية أو الريف أو الصحراء إلا وكانت خالتي عيشة سباقة .

وبتعبير اللهجة الليبية « فزاعة العرس » وهي تحضره من أول مراحله الى زفة العريس ، من مفاوضات الافتتاح والفاتحة .

إلى تكسير الجرة على عتبة الدار التي دخل فيها العريس إلى كن عروسه والتلويح بالمنديل الأبيض ،وتشرف على لوازم العرس من طعام وإدام وطرب ومشاغل ومشاكل وتقوم بدور الخاطبة والتعريف في كثير من الحالات تطوعا لبناء العش وتكوين الأسرة وضم الشمل لرأسين في الحلال .

تعرف البيوتات والطفلات حتى يكبرن ويصبحن مطلب الخطاب :

كل ذلك تبرعا بلا مقابل إلا راحة الصدر وبسمة الأمل في محيط المهاجرين ..

وتقوم بفض النزاع بين الرجل وزوجه إذا شجر خلاف أو احتدم نزاع .كانت حمامة سلام ورسول وئام وملطفة لأجواء الحدة والانفعال وتحفظ من الحكم والامثال والآيات والأحاديث ما يجعلها ترطب القلوب وتهدىء النفوس وتطفيء نيران الغضب الملتهب .

وإذا غابت عن البيت لا ينشغل عليها أهلها وصهرها وابنتها الوحيدة لأنها قد تتعشى في « المتراس » وتتغدى في « العزبة الجديدة أو الورديان » وقد تذهب « لكرموز » أو حي محرم بك أو قد تزور احد الاقرباء الراقد عند « عمود السواري » أو يخطر لها أن تذهب إلى الصحراء العامرية أو الحمام في مريوط وهي اينما حلت موطن الترحيب والاكرام ..

أينما حل بها المقام لاتحمل حقيبة بل « بقجة » .

والبقجة أو البخشة نوع من قطعة القماش الكبيرة مكونة من عشرات القطع ذات الألوان .....

كأعلام دول هيئة الامم الآن أو أعلام الجامعة العربية كل قطعة من لون تضم فيها حوائجها والصرة فيها كل اللوازم للسفر والترحال .

وقد رأيت في بلاد اليابان شيئاً من هذا يستعمله أهل اليابان مثل صرة أو بقجة خالتي عيشة الزنتانية ، حذوك الصرة بالصرة مع اختلاف البلدان والاصقاع والمضامين والاشكال ..، تزور مرضاهم مواسية سائلة في بيوتهم أو مواسية عند مستشفى المواساة بالاسكندرية أو المستشفى اليوناني .. ان كانوا من أهل المقدرة واليسار — أو المستشفى الميري العام ان كانوا من عباد الله العادين ، وهي بصدق واخلاص تحذر المرضى أن يذهبوا إلى المستشفى الطلياني فهم إعداء الوطن ،وقد يسممون المريض اذا عرفوأنه من من طرابلس ومن المهاجرين .

وعندما تمر خالتي عيشة الزنتانية عل القنصلية الايطالية بالاسكندرية لابد من بصقة على رصيف القنصلية وجدارها ان أمكن ولعنة من لعناتها تصبها على العدو اللعين .

وذات مـرة كادت أن تمسك بخناق الحارس الشاويش ذي الشنبات المفتولة والمبرومة بعناية ، وهي تبصق على القنصلية ، وأمسكها مسكة شاويشية من ذراعها .

•— أيه يا ست .. بتفى عليا ؟

•— وشهق شهقة عسكرية شاويشية

•— لا يا شاويش انا نتف على القنصلية

وأذهله الجو اب وكانت عنده بندقية أسندها على الحائط وصاح فيها بعد أن فتل شاربه وهز حاجبيه في حركة عصبية لولبية !!

•— طيب والقنصلية عملت لك إيه ؟

ووضع يده في وسطه

ماذا تقول له وعلى صوته تجمهر البعض من المارة لهذا المنظر الداعى الى التساؤل :

•قال الشاويش :

— دى جناية وجريمة سياسية دى أهانت الهيئة الدبلوماسية (نطق كلمة دبلوماسية بتداخل الحروف وزحلقتها)

وزاد تجمهر بعض الفضوليين . وسمع المارة والمتجمهرون طرفا من الحوار بين هذه المرأة التي لايشك أنها من بلدهم فهي تتكلم كاسكندرانية عريقة وكانت يدها أقوى من يد الشاويش .

كادت تصرعه !!

وأفلتت منه بقوة مخافة ان يطالب القنصل الايطالي بها باعتبار بلدها مستعمرة . لو تطور الأمر وعرفوا أنها ليبية .

وهرعت تاركة حضرة الشاويش مذهولاً مدهوشاً أو مندهشاً .

•— والا .. إية ياولاد الحكاية . إهانة دبلوماسية . والبولتيكا مره حتة مرا بتف على القنصلية كل يوم ؟

حاجة غريبة ياولاد ؟

ما يكونش عندها وش في دماغها ؟

وإلا أنا غلطان ياولاد : إيه الحكاية أنا عايز أفهم .

وقال أحد الخبثاء ـ ولا تخلو جمهرة المارة من خبيث متسكع أو نطع متطوع ـ

•ـ لا .. يا شاويش دى بتف عليك إنت

وبرم شاربه أو زاده برماً وهو يتبرم من الإهانة

•ـ بتف عليا ؟ اكبر إهانة في الحكومة وشاويش الحكومة

وتضحك خالتي عيشة وهي تروي في اسمارها مع المهاجرين حكاية شاويش القنصلية الطيب ـ والبصاص الخبيث فقد كان يلاحقها بصاص ـ أي جاسوس ـ على جماعة المهاجرين يقيد خطواتهم ويرصد نشاطهم ولاداعى لذكر أسمه هنا فقد يكون من الذين أدرج اسمهم في قائمة المجاهدين بالواسطة في إحدى الفترات. وذات مرة كادت تخنق بيديها القويتين عنق أحد أتباع الطليان عند مـا وجدته يقوم بترويج دعايـة وإغراء لإعادة المهاجرين إلى بلادهم بنشر دعايـة الطليان وأكاذيب الفاشيست بأن المزارع ستعاد اليهم وأطبقت عليه حتى كاد يلفظ أنفاسه .

و من يومها لا يحس بوجود خالتك عيشه الزنتانية إلا توارى ، وكلما شاهدها أطلق البصاص ساقيه للريح ، وان لم تكن هناك ريح او لعله أطلق الريح . رعباً وفزعاً .

* * *

وذات عرس كان التصفيق داوياً .

وشطحات الشتاوة ورقصة الحجل من الرجال ، وكانت عيشة الزنتانية واقفة تشاهد هذا وسخرت من لعب الرجال وشاشت ، وعجبت ساخرة

ان يظهر الرجال فرحتهم بالتصفيق والشتاوة وصاحت وقد وضعت يدها في وسطها .

— عيب يا رجاله لازم من بارود

وما هي إلا لحظات صمت حتى قطعتها زغردات رصاص متوالية ،

فقد أخرجت من حزامها تحت ردائها مسدساً أطلقت منه طلقات فوق الرؤوس في الهواء معلنة الفرحة ومشاركة الرجال بهجة العرس ، وزغردت النسوة لهاته الجريئة

وانكمش الرجال خوفاً من التحري وجريمة حمل السلاح وإطلاق البارود والرصاص في المدينة وفتح الشاويش فاه وعيونه وهو الواقف مع المتفرجين وقال في لهجة استغراب وتعجب وحيرة المحتاس :

— الله الله . ايه ده . دى واحدة ست بتضرب نار ؟

وحاولوا ان يزحلقوها من الفرح ومكان العرس خوفاً من القبض عليها

ولكنها ضحكت ضحكة مجلجلة وقالت في عناد وتحدي

— ماجابتاش أمه اللي يشد خالتك عيشة

. . .

كانت في محيط المهاجرين تعرف أسرار الناس وخفاياهم

لكنها غير واشية ولا نمامة .

بل هي كتوم للأسرار ، أمينة على الأخبار محافظة على سمعة الناس داعية للوفاق .

وخالتي عيشة الزنتانية كانت تستعمل النشوق

(وهو فصيح كعبارة السعوط والنفة)

ولعلها الوحيدة من النساء الليبيات المهاجرات التي لها حق النشوق الجيد وتسحقه بطريقتها ، وتضيف إلى مادته الدخانية النشوقية شيئاً من مسحوق العنبر يكسبه رائحة معينة . وقد ترى الشيخ الوقور يمد أصابعه يستعير منها تنشيقة أو تعطيسة وتضرب هي على الحق الأنيق ضربات خفيفة باصبعها ، وتقدم له التنشيقة أو التسعيطة أو التعطيسة كما يسميها أحد الفقهاء .

. . .

وهي طوافة جوالة لا يستقر بها مكان إلا عندما عملت تحت وطأة الظروف لتكسب لقمة عيشها بكد يمينها ويسارها .

واشتغلت في مؤسسة الاقطان أو حلج الاقطان بالاسكندرية تنقى القطن وتنظفه مع فئات العاملات الصغيرات والكبيرات وتدندن أثناء العمل بأغنية ليبية في لهجة كانت تعتبر غريبة في ذلك الوسط ، وكانت تكتسب الاحترام في محيط العاملات بحسن أخلاقها ودماثة سلوكها ، وينادونها : المعلمة عيشة .

وكانت بمثابة رئيسة لنقابة العاملات وان لم تكن لهن نقابة في ذلك العهد البعيد ، وكانت اشتراكية قبل بزوغ الاشتراكية في ذلك المحيط . فهي تأخذ بيد الضعيفات والمفلسات وتقف مع مهضومات الحق ، وتسلف المحتاجات وتسأل عن الغائب وتدافع عن الحقوق .

وتوزع من جيبها الخاص بينهن مناصفة عند اللزوم .

وكان صاحب المحلج أيام سيطرة الأجانب من أولئك الخواجات أصحاب اللكنات والبرانيط ، أو هو من ذلك النوع الأجنبي ديناً ولهجة عرفته سمساراً شواطئ ومحالج الاسكندرية وحوض البحر الأبيض .

وقالت خالتي عيشة في نبرة مقارنة وتحسر .

— هربنا من رومي ، وطحنا في رومي !!

ولم تفهم العاملات الريفيات لهجتها ومقصدها

فقد هربت من أروام الطليان ، ووقعت في استغلال أروام الانجليز والأجانب .

وكانت بثوبها الأسود النظيف تخرج من معمل القطن وقد علقت فتائل القطن بثوبها بشكل واضح جعلها كقنفوذ خرج من شكارة دقيق أو كقط كبير خرج من معمل جبس .

أبيض في أسود ولا تخجل ان تمر على دكاكين مواطنيها المهاجرين وهي على هذه الحالة فالعمل والخدمة شرف .

وقد تقف عند دكان الشعافي والجابرية على هذه الحالة وتحتسي كوب شاي أو كما تنطق شاهي ان كان وقت صنع الشاي في المساء عندما تمر .. أو في الصباح عندما تذهب لعملها باكراً

ولديها نشرة أخبار قد يعقبها تعليق أو تحليل للأخبار العائلية ، ولكن والشهادة لله وللتاريخ وللأمانة وكانت بدون جرح ، ولا إثارة ، ولا تشف ، ولا إيعاز أو أيغار صدور .

وأحياناً تكفي على بعض الأخبار قصعة أو برميلا.

* * *

وزوجت ابنتها الوحيدة من مهاجر تونسي ، أحد العمال بالاسكندرية وشعرت بسعادة الأمومة مضاعفة عندما رزقت ابنتها مولودة وغدت هي جدة .

ومن من المهاجرين لا يحضر حفل زواج بنت خالتك عيشة الزنتانية ؟ ان كان مهاجراً لا بد ان خالتك عيشة أم العروس قد سلفت أهله جميلاً . حضرت عرس أمه أو أخته أو قريبته .. ولا بد أنها غنت وزغردت وضحك أو لعلع البارود من مسدسها العزيز لديها ،

ولعل صهرها كان أخوف الناس من هذه المظاهرة .

فحماته – أم زوجه – حاملة سلاح – فهل معنى هذا إظهار الفرح أو اعلان لتهديد ومخافة ان تغضب فتبحث ابنتها عن زوج آخر لا يخاف من حمل السلاح ، خاف ان يعكنن مزاجها السلاحي فهي تريد ان تظهر أن في بني عمك أو عمتك سلاحا أو رماحا ، وهي ترى أن عرساً بلا طلقات بارود ودوي رصاص بارد لا طعم له ولا رائحة .

وكانت كأبناء الزنتان سريعة الجواب ، ذكية ، حاضرة النكتة ، لاذعة الجواب ، حارة النقد فتطلق على الناس أوصافاً ونعوتاً فتغدو لهم ألقاباً ومسميات ، متعارفة ومتوارثة

ويا ويل من أصابه رشاش أوصافها اللاذعة !!

كلمة عابرة ووصفة أو عبارة قد تكون أشد من قصيدة هجاء !!

وكان من ركزة كلامها ، ولازمة حديثها كلمة

– يا حليلي ايه يابا . با

* * *

وكما تشارك في الأعراس بالبهجة وتقدم الخدمات والوقوف مع أهل العرس كأنها أم العروس فهي ايضاً تشارك في النائبات .

تراها في المآتم والمنادب أيضاً تنوح بالطريقة المثيرة وتحفظ من النداءات المبكية والقصائد الدامعة ، عندما تقرن رأسها برأس زميلة لها من النادبات النائحات ، وترسل من القول ما يثير الشجن ويسيل الدمع وتنوح بصوت مؤثر مما يسيل مدامع أقسى القلوب وأشجع الصابرين . وكانت تتطوع بهذا بينما كان يوجد في المحيط الشعبي بالاسكندرية وغيرها نادبات نائحات بالأجرة يرتزقن من مثل هذه المناسبات ،لكنها متطوعة صادقة في تطوعها .

وقد أتيح لي في طفولتي أن أسمع غناءها الشجي وبكاءها ذا الدموع نشيطة حيوية ، تتدفق نشاطاً وحيوية .

تستيقظ مبكراً مع الطير ولا تحب أن تشرق عليها الشمس وهي في فراشها وتهزأ بالكسولات النائمات المترهلات .

وترجع أسباب ترهلهن ومرضهن إلى النوم متأخراً ، وتطالبهن بأن يستنشقن الهواء العميق الصافى في الصباح الباكر قبل ان تفسده أنفاس الناس ومداخن الاسكندرية .

ترى أن استنشاق هواء الفجر صحة ، وهي نظرية صحية وقاعدة صادقة مجربة في جميع القارات . والأزمان

. . .

وكانت هذه السيدة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب مرتفعة الحس الوطني تعرف تاريخ النضال الوطني وفرسانه ورجاله .

تعرف الناس بمواقفهم . كانت تعرف وتحادث وتحاور .

— سوف — وعون — وأحمد السويحلي — وعمر بوديوس — وبوحبيل — رابراهيم دغدنة وعمر الميساوي . تعرفهم وتناقشهم وتعتز بالجهاد الليبي .

وعندما كنت طالباً في المدرسة الأولية صغيراً وأردت الانضمام إلى سلك الأزهر برواق المغاربة ، ولا بد ان يسجلني شيخ الرواق — أحمد الرجيبي — ورددت اسمه — وسمعتني أو سمعت أهلي يتحدثون عن هذا الشيخ قالت :

— سلم لي على الشيخ الرجيبي

— أتعرفينـــه ؟

— ايه يا بابا . يا خليلي . هذا حضر مؤتمر غريان

— سمعت بمؤتمر غريان ؟

— ايه حضره فلان وفلان

وذكرت أسماء كأنها تقرأ من صحيفة ، عجب هذا وهي عاملة في مصنع قطن تأكل خبزها بكد يمينها ويسارها .

* * *

وتأتي الحرب العالمية الثانية

وتنعق زمارات الانذار بالغارات الجوية الخطرة . ويزعق موسليني بزعقاته الهستيرية

وتتساقط قنابل الألمان والطليان على شاطئ الاسكندرية

وتنعق صفارات الغارات متوالية بصوتها الكريه

وهجر الشاطئ السكندري

وتفرق الناس شذر مذر

وهاجر السكان إلى الريف ، وكان المهاجرون الليبيون توجه بعضهم إلى الدلنجات — أو طيبة الاسم كما يقولون ، وأبي حمص وأبي المطامير .

أما هي فلا أعرف أين هاجرت ؟

وهل بقيت في الشاطئ المهجور ؟

أم توجهت إلى أحدى القرى في جوف الريف الحنون ؟

لم نرها في الدلنجات ، ولم نسمع عنها بعد أن عدنا إلى الاسكندرية وطواها الزمن مع من طوى من الذين عاشوا في الظل ،ومن وراء أضواء المسرح .

لا أدري أين ذهبت هذه الحقبة من ذكريات الوطن

تلك الذاكرة الحافظة اللافظة اللاقطة

تلك الحيوية المتدفقة

ما زال على بعد الزمان والمكان صوتها المجلجل يدوي في أعماق النفس يحدثها عن فرسان الوطن ورجاله ، رحمات الله عليها وعليهم !!



سلاماتو





حارســة الفنــدق

سلاماتو

عجوز فيها ملامح أفريقية الداكنة ، تقبع وحيدة في دار منزوية في ركن قصى عند مدخل الفندق تحت السلم عند البئر .وكان البئر يستقى منه على عادة الفنادق والخانات القديمة،وحجرتها قرب بيت الخلاء ، المبنى على هيئة وطراز ما يسمى في الشرق — وكالة — وخان —وربع ..في بعض الاحياء المماليكية أو الفاطمية ربع الرزأوربع المشنات أوخان جعفر أو وكالة بالاسكندرية

وبه مخازن للبضائع ومساكن للعزاب ولكن هذا الفندق الطرابلسى له ميزات وطابع معين من حيث الهندسة والاستعمال ويؤجر بعضهم حجرات فيه للسهرية — يوم أن كانت السهريات مزدهرة بطرابلس — .

سلاماتو هى عساسة الفندق تعرف مؤجريه وساكنيه والغرباء وأشباه الغرباء .

وهى اجتماعية — مشروحة الصدر — مبسوطة النفس — متفائلة الطبع — لبقة الحديث تسأل عن الغائب وتعود المريض ، بل أحيانا — وعلى قد الحال— قد تقرض المحتاج وتمد المعوز . وهى أمينة على الاسرار — بحكم وضعها أو بحكم طبعها ، تعرف من يسكر ومن يدندن ويطنطن — ومن يعود آخر

الليل تتقاذفه الحوائط بعد سهرة أو غطسة مشبوهة.. تزوم وتحوقل وتنشر النصائح والمواعظ التى يبتلعها جوف الليل .

من أنت ؟؟؟؟

الى من تنتمين ؟؟؟

لا أحد يعرف حتى كهول وشيوخ الحى الا مجرد ما اشتهرت به من اسم أو لقب به تدليل . سلامتو .. سلاماتو .

لعلها تدليل وترجيب لكلمة . سالمة . أو سليمة . أو سلم أو سلومة أو ماشابه من أسماء السيدات المبتدآت بحرف السين ، هى جريئة في غير سلاطة ، صريحة في غير وقاحة ، وحيدة . ولكنها غير سوداوية ولا انطوائية .

وحيدة لا يعرف أحد ، أو يعرف ولا يريد أن يقول . هل هى أرمل ؟؟؟ أومطلقة ؟؟ أو ضاع زوجها في أحد التجنيدات التى كانت تأخذها ايطاليا الفاشية . ذهب ولم يعد . وغدا رقماً في سجلات الطليان المجهولة .

وحيدة لا يؤانسها الا حفيدها من ابنتها الوحيدة ، وهى تذهب لزيارتها في مكان بعيد وقرية نائية ولكن هى لا تأتى اليها بطرابلس بل ترسل اليها هذا الحفيد العفريت الذى كان يملأ الفندق صخباً وهرجاً ،رفضت العجوز الحماة أن تذهب لتعيش مع زوج ابنتها .قالت معللة هذا الرفض في فلسفة اسرية « خليها تعيش مع زوجها في حرية » وقالت .

سأكون محبوبة عندهم أياماً ثم يروننى ظلا ثقيلا . وكرامة الضيف ثلاثة أيام وبعد ثلاثة أيام لا تريد أن تشعر بثقلها .

وهى تنظف الفندق وتحرسه وترد بالها من البضاعة ومخازنها وهى في منتهى الثقة والامانة واليقظة .

وهناك أكداس من البضائع ورداءات الحرير الغالى وبعض العطور وكثير مـــن الخيوط والغزل الصوفي وصناديق الشاى والتوابل والجلود وشكائر الحنة والقرنفل بل وصناديق الفضة التى كان يستوردها الصاغة قوالب مصبوبة أو شرائط مستطيلة . ولم تمد يدها الى شيء : وفي يدها المفتاح الحديدى الكبير الذى كان في شكله وهيئته أشبه بمفتاح الثكنات والقلاع والمدن في القرون الوسطى يزيد وزن المفتاح على اكثر من ثلاثة أرطال أو أربعة له سير جلدى كبير يكفى أن ضلفة الباب الخشبي الكبير ينوء بدفعها الرجال أولو العصبة والقوة .. ولكنها مرنت على تسكيره رغم كبر سنها .

وهى تعرف منطقة الفنيدقة كبارا وصغارا — وكوشة الصفار — وحومة البلدية وحومة غريان ، وزنقة زعطوط وزنقة الفرنسيس وحي بـاب بحر وزنقة البوليك والاكواش ، ومناطق الزاوية الكبيرة والزاوية العيساوية وزاوية الست مدينة التى كانت بهـا السهريات الصوفية في المواسم والمناسبات وما يعرف بالزاوية القادرية .

وتعرف الكبار ، والصغار من التجار والمشايخ وتستمع الى القراءات والاوراد في تبتل وخشوع . وهى جالسة على ركابة قرب الزاوية عند مسجد الناقة تحت تلك الدالية العتيقة وقرب مدخل فندق الصاغة.. هذا المسجد العتيق كما تحكى بعض كتب الرحالة والمؤرخين.. وضع جداره منذ المعز لدين الله وقد تطهو وحدها ويعرف أهل الفندق أنها مستغرقة في عملية الطهى ومن روائح البهارات التى تتكدس في طنجرتها وتعبق الاجواء بدخانها وضبابها وتملأ الخياشم وهل طبختها اليوم حوت « حراميا أو أرزا مفلفلاأومبكبكة » ومبطن أم هو يوم نباتى جاف . قد يكون الطبق سلاطة حاف .

وقد تتكاسل عن عملية الطهو فتذهب الى الحاج البرعى الطباخ بباب الحرية تأخذ صحفة كبيرة من النحاس طالبة نوعا من الحرايمى — السمك المطهو بطريقة فنية ليبية — لعلها مأخوذة من يهود الاندلس — كما حكى بعضهم عن بعضهم .

وخبزة المحور بالجلجلان . وهو خبز يلصف ويلمع به رائحة (من التحوير وهو التدوير والجلجلان هو السمسم) . المستكى – يحلو منظرا . ويفوح رائحة حتى في خياشم الشبعانين فضلا عن الجوعى .

وأيام اشتغالى واهتمامى بالقضية الوطنية وأنا في غمرة العمل السياسي في مطلع شبابي في أول الخمسينات – وقبل الاستقلال في عهد الادارة البريطانية ، ومطالبة الشعب بالحرية كنت مطاردا من السلطات الانجليزية وأخطب في الجماهير وأحاضر وأقود المظاهرات الشعبية وأعيش حياة الضنك على فرنكات معدودة وأهلى بالاسكندرية – وأنا من أجل القضية وحيد أسكن هذا الخان – الفندق – المعروف في حى الفنيدقة – في حجرة من تلك الحجرات التى تكون سهرية في أول الليل ثم انام بها بعد أن يذهب الأخوة السامرون . لاحظت وجود سلاماتو حارسة الفندق التى تعرف الداخل والخارج والغريب والمقيم . والذى استرعى انتباهى أو بعث التعجب والاعجاب هو حسها وشعورها الوطني ومساهمتها في كل المظاهرات بفراشيتها .

(الفراشية البردة والرداء الذى تلتف وتلتحف به المرأة المحجبة في ليبيا)

وكانت تشجع الخطباء والهاتفين للحرية . وتزغرد للمتظاهرين وتتحمس باعماق حسها وأعلى صوتها بينما كانت تقف كثرة من النسوة متلفلفات متلحفات فوق الاسطح أو خلف المشربيات والرواشن . من وراء خشب « عين الزرزور » وبعضهن اكثر جرأة من أصحاب الأسطح والرواشن – يقفن على الرصيف من بعيد لبعيد متواريات عيونهن وراء – « البنبوك » ينظرن بربع عين أو بعين واحدة والعين الأخرى مغطاه بالرداء بطريقة أوتوماتيكية متكمكمات متلملمات قد يصدرن زغـــردة أو شهقـــة لا تدري هل هي شهقة الإعجاب أو شهقة الحيرة والاضطـــراب أو شهقة وطنية حماسية تعبيرها وتقيمها . كل ذلك عند علام الغيوب .وفاتنا أن نسجل تلك الغمغمات والشهقات لعل فيها لعلماء النفس والحس مسارب للدراسة والفحص .

المهم شيء طال زمنه وذهبت فترة الكمكمات والشهقات ،ولكن مازالت الصورة منطبعة في جوانب الذكريات . في ذلك الزحام الصاخب والهدير المتماوج كانت النسوة على الأسطح أو في الشرفات من وراء الحواجز الخشبية وستائر وقماش من رهيف الحرير أو غليظ الكتان ، وبعضهن على أفاريز الأرصفة من بعيد لبعيد .

لكن سلاماتو وسط الخضم تقطر عرقاً وتفيض حماساً وتلتهب أحـــاسيسها وتطوف مع المظاهرة الصاخبة المحتجة على مشروع تقسيم البلاد وتلعن تدخل الانجليز وخبث السياسة ،وكان الشعار المرفوع الوحدة — الوحدة الوطنية والاستقلال .

وما من خطبة سياسية لى في ميدان عام إلا لمحت سلامتو في الصفوف أما تزغرد أوتصفق أو تنصت في إعجاب وتتحدث بلهجتها وأسلوبها عن وجوب الاستقلال ، وحق الحرية وتلعن الاستعمار .

— بلادنا لينا . طلع الطليان راح موسليني لازم يطلع الانجليز — حقنا في بلادنا — يحيا الوطن .

هذه الأمية التي كانت لاتفك خطاً ولاتطالع كتابا وليس لها من مطامح الحياة شيء سوى أن ترى بلادها «وولاد بلادها مرتاحين أحرار ودولة حرة كيف الدول » هكذا كانت تقول .

وتقوم بعملية التوعية الوطنية . شيء قد يعجز عنه أو قصر فيه بعض أدعياء الثقافة في تلك الآونات أو غيرها . ولن أنسى في صباح باكر من تلك الاصباحات وكنت لا أحب أن أستيقظ مبكراً — نتيجة سهرى للقراءة ونومى متأخراً — إذا بها تدق الباب بيد — و تحمل صينية القهوة بيد .. صينية نظيفة عليها مفرش صغير مطرز بالطريقة الشرقية . وكنكة أى بكرج قهوة ذات نكهة تفوح منها أو بها حب هان أو حب هال كما ينطق ورشاش من عطر الورد . تقطير لاجوراء أو درنة وقطعة من الكعك بين اليبوسة

والهشاشة لكنها منفوشة قطعة اتت بها فطورا . وحاولت أن اشكر متمتما وهى تقول :

– أنت رجل غريب تدافع عن البلاد . وأملك في بلاد بعيدة . زوللى . وحداني وعندما حاولت أن اردها أو أحتج قالت :

عندنا عرف في البلاد :فطور الصبح لا يرد – ولا يصح الرفض في الصباح – يا فتاح يا عليم المعروضة مطلوبة . المعروضة مربوحة .

لقد كان صنيعها هذا لفتة إنسانية . وبدافع الشعور الوطني – كانت مساهمتها في حضور المظاهرات لفتة وطنية – من مواطنة صادقة الوطنية – مجهولة . كانت مساهمتها لله وللوطن لا تطلب ظهوراً ولا ادعاء – لا تطلب جزاء ولا شكوراً .

حارسة الفندق – الخان – الوكالة – وقد تحدث فيه الطرائف والمفارقات هو عالم صاخب فيه مافي عالم الاسواق. يحدث فيه ما يثير الضحك – أو الاعجاب – أو الاستهجان يضم هذا العالم الصغير في احشائه نماذج متناثرة هى من صور الحياة وحقائقها المتناقضة صورة المتبتل الذى يقرأ أوراده بصوت حنون فيه صدق العاطفة وحنان النبرة وحرارة الايمان، وفي الحجرة الملاصقة فرقة الانشاد التى يقودها حافظ الادوار ، وحجرة بها مجموعة من الشباب هواة الموسيقى والترنمات يتدارسون أصولها وتتمرن اصابعهم على مداعبات الاوتار أو النقر على آلات النقر والزمر والنفخ .. والضرب والنقر في الناقور ،وأصبحت الحجرة نواة لمعهد موسيقى لم تتعد رسالاته الموسيقية درجات الخان .. نفخ ودربكة . ونقر . وزمر – وس . سو . سا . سى يدربهم مؤذن لصلاة الفجر منذ ثلاثين عاما لم يترك هذا النداء السماوى وصلاة الفجر وقرآن الفجر ولم يترك هذه النغمات الوترية .

حجرة أخرى بها الذين جلبوا قطرات العصير التى حرمتها شرائع السماء واستهجنتها شرائع الأرض ..يأتون بها من إحدى حانات اليهود مع رائحة

اللحم المشوى ومتنوع البقولات ، والنقولات وصخب السكارى ، وشبه السكارى ... شيء لا يطاق ! !

وترفض أن تقف عليهم سلاماتو ، بل هي تلعنهم بأعلى صوتها محتجة فالفندق الذى هي مسئولة عن حراسته يجب أن يبقى طاهراً بعيداً عن كل الموبقات السرية والعلنية ، والليلية والنهارية ،وتؤكد رفضها مستغيثة ومحذرة أن غضب الله والصواعق السماوية ، والبراكين والزلازل الأرضية والفيضانات البحرية والأمراض والحروب المستفحلة ... كلها بسبب هذه الموبقات وصخب السكارى .. اتقوا الله يا ملاعين ! !

وتضيع نبرات صوتها بين دهاليز الفندق وأدراج الرياح .

وذات ليلية في هزيع صامت الا من صوتها المدوى لطرد قطة جائرة أو تتصنت لهبدة أو خبطة غريبة . وتتنحنح أو تتكحكح لاثبات وجودها — ودلالة على أن تحت السلم حارسة واذنا فاحصة وعينا مستيقظة ولو في الظلام والصمت المريع .

وجاء أحد العزاب من الغرباء القاطنين بالفندق الكبير جاء بصيدة صادها في كتمان المحروم والمأزوم والمرتعب المراقب كقطة هبشت قطعة لحم لا تدرى أين تهرب بها كان يحتويه مع صيدته الظلام والتخوف ، وامتزج في نفسه عامل البرد من الجو وعامل الحرارة والاندفاع من الطبع . وكأن سلاماتو الحارسة في اذنيها (رادار) وأحست بخبطة ورأت حارسة الفندق شبحين. فما أحد نظرها وما أرهف أذنها وماأكثر سلاطة لسانها رغم دماثة خلقها ورقة طبعها في الاحوال العادية والظروف الطبيعية !! وسألت في نبرة حادة توجه الخطاب للشاب القادم — من معك ؟؟

وهمهم . وغمغم وطمطم . ولكنها استلمت عصا المكنسة ووقفت « زنهار » وقفة شاوبشية وبأعلى صوتها « وكأنها مذيع في اذاعة عربية » أخذت تقذف الشتائم واللعنات والنعوت من فمها وإن لم تجد عصا المكنسة ولم

ينفع الخشب في المعركة فالحديد فيه بأس شديد ومفتاح الفندق يشج رأسه ورأس التي جلبها الزبون آخر الليل و، صاحت منذرة محذرة هائجة مائجة .
– خطوة واحدة المفتاح الحديدى فوق رأسك ورأسها يا ولد الحرام – يا منسرفة عقاب الليل طيح سعدك وسعدها « وذكرت عبارة ووصفا .
لا استطيع كتابته هنا » .

ولم يقدر الشاب على مصاولتها واكتفى بالتوسل والهسهسة – هس . هس . من فضلك هس . هس .

ولم تجد التوسلات والهمهمات وكاد سكان الحجرات في الفندق أن يستيقظوا في جنح الظلام وصرخات سلاّمتو .

ومن لايعرف صوت سلامتو؟! لابد أن هناك خطراً يحيط بالفندق آخر الليل . هل قبضت سلاماتو آخر الليل على خانب ؟؟؟ سارق ؟؟؟ وحاول الشاب أن يغرى سلاماتو بالكلام اللين المعسول . وترقيق قلبها بالتوسل والرجاء والتمسكن والتعطف ولا فائدة من هذا تستفاد .

ولا عائدة من التوسل والتوسط تعود .

وحاول أن يغريها بحفنة من فرنكات ورقية (من فلوس الادارة البريطانية قبل اصدار العملة الليبية)دسها في يدها – كبشة أو كمشة من جيبه رغم بخله وامساكه في الظروف العادية لكن لحظات الرعب والخوف قد تدعو في لحظات المأزق الى التسيب ... التسيب المالى وغير المالى أيضاً .

غير أنها خبطته على يده وقالت ساخطة لاعنة .

– امشى يا معفن ياخامج أنا أمد يدى لفلوس رشوة .. وحيلق !؟

وخشى الشاب أن يفتضح أمره وأمر التي في يده وقد انكمشت كقطة مذعورة .. وسلاماتو تقترب منها قليلا لتحاول أن تعرف من هذه الملعونة

التى جاءت مع هذا الملعون !!! هل هى من هذه المنطقة .. أم من ناحية أخرى ؟

وكانت المذعورة ترتعد وتنادى ربها وتستغيث بأسماء الأولياء وتنادى المرابطين وسمعتها سلاماتو تذكر اسماء المرابطين والاولياء والصالحين.. فزمزمت سلاماتو وهمهمت وهى تقول - يا فاسدة . يا خاسرة . لو تعرفي الله والاولياء والمرابطين . دستور . دستور يا اسيادى لو تعرفيهم تأتي آخر الليل مع راجل في فندق عزاب ؟؟؟؟

- بلاش فضيحة . يا سويدتي . ان شاء الله تحجى. وتموتي في مكة اعتقيني لوجه الله وفي أثناء الحوار الذى طالت خيوطه شاغلها الشاب حتّي هربت وانفلتت الصيدة في جنح الظلام قبل أن يستيقظ السكان .. وقبل أن تعرف من ملامحها من هي ؟؟؟ ولكن فيما بعد ، وبطريقة ما توصلت سلاماتو إلى هويتها وعرفتها . وأبت أن تسمى من هي فالله أمر بالستّر ....

وفي إحدى الحجرات المعدة للسهريات اجرتّها مجموعة للعب الورق (الكارتة) وصنع الشاى على الطريقة الليبية التى قد تمص وتستهلك من الوقت وعمر الانسان نصف ليلة وقد تحتاج لعبة الورق الى أربعة مايسمونه في مصطلحات اللعبة « اسكمبيل » وتصادف أن اثنين كانا لا يعرفان اللعب .. أو غابا .. وبقى ثلاثة محتاجون الى لإعب رابع .

ونادى أحدهم - وهو متدل على خشبة الحاجز من فوق الدور الثاني عند الطرابزين ينادى بأعلى صوته .

- خالتى سلاماتو - سلاماتو

وهرعت مرعوبة - مفزعة من هذا النداء المتكرر والاستغاثة من هذا المتشعلق - المشبط الملبط ونداءه المتواصل بصوته الكريه.. لابد أنه محتاج الى نجدة في هدأة الليل . اللهم اجعله خيراً

فقد صلت العشاء . ودل على دخول الوقت هذا الأذان المسموع من جامع الناقة في الأوقات الخمسة ... الصلاة في أوقاتها بالتوقيت وارادت أن تهجع بعد أن تهجدت قليلا ..لابأس من هجعة في اغفاءه . وعند ما توالت نداءات المتشعلق ... بادرت بارتداء ردائها وانتعال نصف حذائها .. فمن العجلة في حركة آلية ليست فردة واحدة . وزدادت ارتباكا .. لبست فردة اليمين في اليسار مع عجلة هزت مصارين بطنها ، يا ساتر .. يا ساتر .. اللهم اجعله خير .. وهرعت تقفز السلم الحجري درجتين درجتين صعوداً والصعود في أي شيء أصعب من الهبوط وحواشى الدرجات متآكلة من أمدسة الهابطين الصاعدين قرناً ونصف قرن من الزمان وتآكل الدرج يجعل مداسها يتزحلق ان لم تمسك بحذر خشب الحاجز الخشي «الطرابزين» كاد وسطها ينهد ، وقد اجلوز وجهها أى تداخلت ألوانه وتماوجت في الانفعال وان لم يكن واضحا في الظلام هذا التجلوز .. ولملمت نفسها وقالت .

— خير انشاء الله خير يا ولدى ؟

وقال ذلك البارد الثقيل بكل صفاقة ، ولم يشعر بضربات قلبها المتوجس. تعالى العبى معنا كارتة .. كوتشينة .. ناقصنا واحد في اللعب !! ولا تلوموها في موقفها ، معذورة في موقفها فلا عتاب عليها ولا ملامة .. انهالت عليه بكل ما تملك من قاموس السباب الشتائم لو وجدها باحث « فلوكلورى » لسجل منها المنقرِض من الشتائم ، والغريب من النعوت والأوصاف رغم مواد القانون والعرق الذى يتصبب من اهل الحياء عند سماع هذه النعوت ولعلها تحتاج الى طبعة خاصة شتائم ونعوت ثلاثة أرباعها بلا غلالة ولا سروال . من أجل هذا يفزعها بهذا النداء ؟؟ ظننت أن كارثة حصلت أوانهم في مأزق . ؟

أيريدونها لتلعب الورق ؟ وتحركت كل دفائن عروق افريقيا المتلهبة وحاولوا تهدئتها إنها كالعاصفة إذا ثارت .. كالزلزال اذا انفجرت غضبا كريح الصحراء إذا تحركت وشدوها مـــن طرف ردائها . خذى الدور حتى يأتي الغائب .

ولا بد أن نلعب اسكمبيل بو أربعة .

وهرعت الى حجرتها تحت السلم . لاعنة آباء وأجداد وجدات هؤلاء الفارغين .. وتروى لنا ولغيرنا قصتها معهم . وحكاياتها الطريفة المنوعة باسلوبها الممط . وتعتعتها الممدة وغنغنة لم تخلص من اللهجة الإفريقية رغم القرون والآماد التي عاشها أجدادها في طرابلس ولم تعد تتلهف مسرعة على نداء استغاثة ولو في جوف الليل مخافة أن يكون شيئا تافها من نوع — نلعب اسكمبيل بأربعة ؟

حياة انسانة في ركن تحت السلم . وقبو كئيب . أو منزوية في ركن من اركان الزمن المنسى ولكن بها صور نابضة معبرة . ولها مواقف منها الطريف كل الطرافة .

ومواقف أخرى تدل على أصالة وجدية كل الجدية .. لن أنسى أني كنت سجيناً في عام ١٩٥٠ بسجن « بورتابينتو» في قضية سياسية .زجني الانجليز وعملاؤهم في السجن أكثر من مرة ، ولم يزرني أحد ولم يأت بالطعام يوم الجمعة أحد ،ويجرح خاطري كسجين عندما ينادي الورديان على المساجين بأرقامهم والاسماء حتى المجرمين والسراق ومن عبثت أصابعهم في جيوب الناس أو رقاب الناس أو شرف الناس — لكن .. الخطيب .. والكاتب والسياسي . والمحاضر . لم يتكرم أحد في طرابلس بزيارته فلازوادة . لا زائر ، ولا رسالة !!

ولا من يسأل على حد التعبير الشعبي — « وصل دار خالته » وذات جمعة إذا بالورديان كما كان يقال — أى الحارس — ينادى بصوت يشق ردهات السجن على اسمى . وعجبت لعل الاسماء تتشابه كما تتشابه السحنات والهياكل ، ولكن كرر النداء على الرقم ، وفي السجن لا يمكن أن يكون الرقم مكرراً ، فلا يمكن لسجينين أن يحملا رقماً واحداً في آن واحد .

هى قضية فلسفية أو قضية قانونية ذاتان مختلفتان في آن واحد. تلك من مشاكل الفلسفة أو من شؤون الوجود والعدم . ولا نبعد بعيدا عن اسوار

السجن وردهاته والصوت يجلجل بالاسم واللقب والرقم مصحوباً بكلمة شيخ وأستاذ، ولا القاب وراء الاسوار ،لكن تكرم هذا الحارس الصارخ تميزا عن الآخرين وإن كان بعضهم كان يتميز غيظا ،والأرقام وراء الاسوار لا تخطيء لها دقتها والرقم للسجين اذا عرف به قد يكون اكثر دلالة وانطباقاً من الاسم .

وإذا بقفة من طعام ساخن شهى — مع فاكهة الموسم ولوازم زيارة المساجين يوم الجمعة وتعجبت ممن جاءت ؟ ومن تكرم بها وليس معها بطاقة ولا اسم في ورقة كما هى عادة القراطيس المرسلة والقفف الواردة . وكل الاشياء الداخلة للسجن يوم الزيارة ؟! واذا بالورديان . مرة أخرى بصوته المجلجل المدوى في الردهات يعلن :

— فلان الفلاني . رقم كذا عندك زيارة تريد أن تراك .

— من ؟؟؟؟ زائر ؟؟

لا أحد — في تلك الايام — من أقاربي هنا .. ولم اكن متزوجا آنذاك ولا خاطبا .. وذهلت ؟

وزال الذهول — وبدد التساؤل . شيء في مضامينه الانسانية أعمق ..زال الذهول وحيرة التساؤل وحل مكانه ذهول الإكبار وعوامل التقدير الانساني .

اذا بها سلاماتو . التى لا تقرأ ولا تكتب ، والتى لا تخط لا باليمين ولا باليسار ولا تعرف شئون السياسة وكان منها موقفا انسانيا وطنيا وهى تقول والحراس والشرطة العلنية والسرية منها تسمع .

— أنت يا أستاذ تخطب من أجل البلاد وتجرى على قضية الوطن ونعرف ما حد يزورك ويتفكرك وقلت لازم أزوره ونشعره أن هناك ناس تفكر فيه .

وكفكفت دمعة من عيني فقد المبتني كلماتها العفوية هذه العجوز التي تجاوزت الستين تقول هذا الكلام وأنا في السجن؟! توارت وجوه كانت تصفق وبح صوتها من الهتاف ثم في صباح أو مساء توارت خوفاً من الانجليز أو طمعاً أو .. أو .. وما اكثر الا وأوآت ..واللولوات ..

تذكرني عجوز .. هذه المواطنة الفقيرة .. حارسة الفندق والتي لا تملك قوتها الا بعسر .. سبحان الله !!

وكنت أدعو الله أن يقدرني على أن ارد لها الجميل والمعروف ......

وكنت أدعو الله أيضا أن يوفقني ولا أشوه الصورة في ذهنها عن الوطنية والاهداف وكان بالفندق – بحى الفنيدقة – نماذج منوعة ابتلعها تيار الزمن .

من الجندى المتقاعد الى المجاهد المناضل . وطلاب يستذكرون وعمال ميناء وحاكة للنول وشباب يهوى الفن وسماع العود والقانون . والاغاني والتواشيح الى مجهول الهوية الذى لا يكلم أحداً ولا يعرف أحد ماذا يعمل ويأتي آخر الليل صامتا ويذهب في الصباح الباكر صامتا وكلهم كل هذه النماذج تعرفهم سلاماتو وتجاملهم سلاماتو .وعند اللزوم تثور في وجوههم سلاماتو كأنها امبراطورة على هذه الرعية أو كأنها أم لها كل صفات الأمومة لابناء الفندقمن المعربد المتطوح الى الصوفي المتنسك الى الشخص العادى الذى لا يجد خانة تضعه فيها .

كلهم تعرفهم سلاماتو تصبح بالخير وتمسى بخير الاماسى كأن هى في لحظات الرضا والصفو دبلوماسية تجيد المجاملات ، أو كأنها شعرة معاوية بين اصابعها لا تفلت ولا تنقطع .

ومضت سنون . وتطوحت أيام . وتبدل سكان الفندق وتفرق الجميع . تبددوا وكأنهم قطرات ماء في كأس بيد الزمن المرتعش .

ضاعت قطرات الماء مسكوبة ؟؟؟ أين ؟؟؟؟

الطلاب تخرجوا . والعمال ذهبوا من الميناء في باب البحر الى موانى البترول في جوف الصحارى . واثرت البلاد . أوفئة وبعض من أهل البلاد وتبدلت كثير من موازين المجتمع وذهبت كثير من الوجوه الى مجاورة الصحابي المنيذر حيث الطريق المحتوم في الرحلة الابدية .

وراحت سلاماتو .

لا أحد يذكر أين هى ؟ ولا من هى ؟؟؟

هل غادرت البلاد ؟؟ أو غادرت الدنيا بأسرها ؟ هل يذكرها أحد من سكان الفندق ، أو المدينة القديمة في دماثة اخلاقها في حبها الكبير الباسط جناحيه لكل الناس من سؤالها عن الغائب ....

وعن المطرق الغارق في اطراقته ؟؟ لماذا يطرق ؟ الحياة لا تساوى في وزنها اطراقة الكئيب .

ذهبت في خضم .. وطواها صمت وظل الفندق بعدها باباً مفتوحاً بلا حارس ولا قلب ينبض وبعد ربع قرن — تجولت في المنطقة . ووقفت عند الباب وشعراء العرب في روائع معلقاتهم كانوا يقفون على الأطلال أطلال الاحجار والدوارس وأطلال الذكريات ويكثرون في المطالع والمقاطع من — قف — قفا ..

وقفت لحظة تأمل وشريط الذكريات ينساب . لا يدرى أحد ما يجيش في الخواطر ازاء هذه النماذج في الظل البعيد أو القاع السحيق .

وسلاماتو .. بكل حيويتها ودنياها وتفاؤلها وكل مشاعرها طواها الزمن وغدت دارها عند البئر المهجور والدرج المتآكل .. في ذلك الفندق الاثرى غدت دارها المنزوية ملأى بالجراذين .. والصناديق الفارغة .

محمد عنيبة

وصاحبه القبضي





اسم قد لايذكره أحد إلا حفيده أو حفيدته في شهادة الميلاد من سجلات احدى البلديات . بل حتى أحفاده قد لايعرفون عنه شيئاً ،ويضيع الاسم كما ضاعت صورته. انسان كان يحمل بندقية ليصيد بها جحافل «كانيفا» واساطيل الغزاة ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه ادرك بدافع الايمان ومقومات الرجولة وصدق العقيدة أن الجهاد هو الرد الحقيقى على تبجح الاستعمار .

وثقب من رصاصة في صدر الاعداء أجدى ألف مرة من آلاف سطور الكلمات في ورق تذوره الرياح .

م . عنيبة في قائمة سجل البقالين بالاسكندرية في أعوام الثلاثينات والاربعينات أيام الحرب العالمية الثانية .

وكان يشتغل أيضا — شأن المهاجرين من زملائه من بقايا جيش سعدون وبقية جنود عمر المختار بعد استشهاد البطلين كانوا يشتغلون عمالا في الموانيء وشركة شل في ميناء الاسكندرية لظروف قاهرة لأجل الحفاظ على لقمة العيش .

بعد كات الملف . ونقاب الجرد . والحولى الظلاثى لبسوا جلباب الزفير والبفتة والعبك. أما قماش البوبلين والسكروتة فإنه أبهة.. ارتدوا القفطان وانتعلوا الشبشب .

وبعد ركوب الجادور — والكوت والحصان الاصيل تشعلقوا في الترام وتزاحموا في الاتوبوس . وعرفوا أكل البصارة والقلقاس والحلاوة الطحينية ويحنون ويتذاكرون سوالف أيام النضال ،ويقول لهم عند سرد الذكريات أحد الساخرين — على من تقرأ زبورك ياداود .؟؟؟؟

أنواع ونماذج وأشكال وانماط ضمتهم الهجرة ، وواشجة الغربة ..كانوا زملاء ميدان ، ورفاق ساحة ، وزملاء قافلة فيهم المثقف وشبه المثقف والذى يبصم بإصبعه ولا يعرف فك الخط ، ولكن في مشاكل الحياة قد يساعدك

على فك المعضلات وحل المشكلات ، وهناك الأمى الذى يحرص على خاتمه الذى يمهر به ، يحرص عليه أكثر من حرصه على أوراق التعريف .

ومن ناحية المظهر الخارجى ، فيهم الضخم الذى يشبه هرقل والرفيع الذى يشبه في شاربه أو مشيته « شارلى شابلن » البطل المشهور في عصره .

ومنهم جهير الصوت مدويه ، كأنه النذير العريان أو الدلال في سوق الرباع أو المذيع مفلوت الحنجرة والزمام ! !

ومنهم صاحب الصوت الخفيض الهامس حتى في أسلاك الهاتف يهمس وحتى في قراءة صلاة الجهر يتلو همساً .

كان م . عنيبة جنديا وفيا لجماعته الذين تكونت منهم جماعة المهاجرين ومن أجل لقمة العيش صارع وحفى شبشبه ليثبت اسمه في قائمة سجل البقالين بأرض باشا قرب حي الورد يان عندما شارك أحد البقالين الآخرين

من المهاجرين ..هل صاحب الرخصة هو أو صاحبه ؟ وهل اللافتة الانشراح لصاحبها عنيبة مصباح أم تريد اضافة اسم والحاج م . شويقير ؟وأى كلمة من السجع تناسب ور .. وور ..؟ مثلا المشهور . السطور . الشعورالخ وكل مغربي أو غريب هو حاج عند هؤلاء الذين توافدوا من الريف واقاصى الصعيد وتلفهم اطراف الاسكندرية وشاطئها المضياف الكريم المتماوج بشتى الاجناس ،ولكنه لا يريد أن يكون هو في تلك الآونة لم يحج كيف يكتب على تلك اللافتة « حاج »؟ ولكن هؤلاء الاطفال يزأطون ويتزاحمون يا عمى الحاج محمد ــ مليم سلطة ــ بنكله جبنة ــ خمستاشر حلاوة .

ويتشعلق طفل متعلثم اللسان واليد والرجل يا عمى الحاج محمد اديني نبوت الخفير .. وهى حلوى مستطيلة مفرغة مثل العصا الغليظة بيضاء محلاة بالسمسم أو بالجلجلان .

وكان البيع بالمليم حتى قال أحد رواة وشداة الادب الشعبى من المهاجرين مارس صناعة البقالة هناك : تجيني البيعة بالمليم : لا نشبع زين ولا نصيم : رأسي شاب بين السنجة والفنطاز الخ .

أما البيعة اذا وصلت الى عشرة مليمات .. أوما فوق ذلك فلابد أن تكون في دفتر محترم . ولابد أن تسجل مع بيعة الاسبوع ، أو الشهر . والعمال الذين يقبضون من شركاتهم ومعاملهم كل اسبوع . والموظفون الافندية المطربشون معاملتهم وقيوداتهم بالمشاهرة وحفظ في الدفتر اسماء الزبونات بألقابهن ونعوتهن وهذه عينة أو دسته على سبيل التذكر والمثال .

— خالتي ام زوزو— الدلعدى— ام بخاطرها—ام حنفى—ستالبتعه— الحولة — ام ضفاير—الهجالة—السمحة—المبطبطة—ام وشمة—اليآخر الامهات . وممايعدفي دائرة التنابذ بالنعوت والالقاب ، والفتاوى علىأ سئلة تتصل بالحرفة والمهنة في قضية لف البضاعة في مجلات لأن بها حروفا عربية ، ولحم في حكة من بلاد الأروام بلاد لا تعرف البسملة والقبلة هل يجوز اكل لحم (البوليبيف) من بلاد النصارى ؟؟؟؟

وهل يفتى بالحلية أوبالمنع في هذا الشيخ عيسى الفاخرى أحد طلاب الازهر والكفيف المهاجر القاطع رحلته الصحراوية على أقدامه من اجدابية الى ميناء الاسكندرية بلا دليل ولا عكوز — ولا رغيف ولا ركوة ولا كوز — ووصل الى القبارى والانفوشى وكرموز ؟ إنه يفتي، هو ومنهم واليهم في مجتمع المهاجرين .هؤلاء المهاجرون أهل العفة والمحافظة. المفى منهم في قضايا شرعية واجتماعية ، والامام والخطيب وعاقد الزواج وشاهد الطلاق بل وحتى المطرب في الافراح والليالى الملاح . ولكنه مطرب متطوع غير محترف ولا متطوح وطلقات البارود تكون في الاعراس،ومن المعروف أنها رصاصات بلا رخصة ولكنمأمورالقسم المسئول فيالمركز تغاضى عن كل هذا إكراما لهؤلاء الناس الطيبين ومساهمة فيالبهجة والفرح بعرس الناس الغرباء

المهاجرين وم . عنيبة يحافظ على صلواته وتوابعها من الدعوات والنوافل ولا يحب أن يفرط في حق من حقوق الله أو يسرقه ولا يحب أن يغالط الملائكة الكرام البررة . أصحاب اليمين ..وهو يريد أن يعطل ملائكة الناحية الشمالية .. كاتب اليسار يعطى وقت الله في حقه المشروع .

وسجل اسمه في سجلات البقالين — في أرض باشا — عزبة باشا — شارع ثلاثين قرب مدرسة الشيخ سالم لتحفيظ القرآن . وأن كان سجل في قائمة أشرف وأنظف وأسمى ولا وجه للمقارنة اذا ذكرت القوائم والسجلات سبق أن سجل في قائمة المتطوعين في سبيل الله والوطن قبل فلاسفة الروشة وصعاليك الدلشوفيتا وفنادق الشواطىء الصاخبة ، من ممتلكى الكلام والمناضلين بالقبضات الكلامية والخطب والمحاضرات العنترية في مختلف الايديولوجيات الهوشائية ، والببغاوية والبغائية من أولئك اللصوص والصعاليك الثرثارين كان م . عنيبة وأمثاله من آلاف المجهولين ومن المجاهدين أمثاله يتطوعون في صمت لا يعرفه الثرثارون المتطوحون آخر الليل قبل متطوعى الاحزاب بفرقها وفروعها وقرونها المتناطحة والالسنة المتعددة المسترزقة قبل اندلاع تبكيشات التهويمات وأصحاب الارصدة المصرفية والليالى الحمراء في اوربا .

بل هى أسماء مجاهدة صامته ولظروف الدهر صامدة .. عمال شرفاء حضروا معارك الجهاد .اسماء قد لا تعثر عليها في كتب التاريخ وما أكثر ما أهملت كتب التاريخ وقد اسهموا في صنع تاريخ النضال .

م . عنيبة ـ و ـ أحمد مصطفى — والحاج مصطفي الجزيرى ـ وعلى الجابرية وأحمد الشعافي — على المتجول ومحمد الروياتي . الخ الخ .

وآخرون مئات وآلاف .

كان يرتدى الجلباب البلدى من نوع الزفير وأحيانا السكروتة وما يتحمل شغلة الزياتة . وفوق رأسه — الذى يبدو أنه غير ضخم — يصر على

ارتداء طاقية من الكتان ، واصرار آخر على أن تكون مزهرة ، أى مطلية بالزهرة عند غسلها بذلك النوع من المسحوق الازرق جدا الناعم .

وكانت تعرف هذه الطاقية في ليبيا باسم « معرقة » ومن أجل خاطر أو خواطر اللغويين نقول: معرقة فصيحة صحيحة مريحة من كلمة الطاقية لأن الاسم مأخوذ من مص العرق أى عرق الرأس لا عرق لبنان ويرتدى هذه المعرقة . وأحيانا معرقة مصراتية ذات الشرابة والنوارة والوردة من فتائل النسيج وأحياناكبة أو شكل وردة غير لوتسية .

ومع التطور الزمني . أو الزمن التطورى أو التأقلم المكاني وكأني ومن غير كاني وماني ودكان الزلباني . غدت على رأسه أو قبوعة رأسه ورأس زملائه مجرد طاقية بلدية خفيفة بلا شراريب ولا لها ليب تختار في سرعة وبساطة من نوع القماش الذى خيط منه الجلباب موضة لا من ديار أو دار

كريستان ديور بل من مقص خالتك أم شحاتة أو الست ام دبور أو تفصيل الست ام جليلة. وهذا العامل في الميناء البحرى بشركة شل قرب مخازن وشوادر الخشب للمليونير الفريد سان استفانو ومخازن المليونير اسعد باسيلى باشا يأكل بوغاشا هؤلاء شوام نصارى واكبوا الاستعمار الانجليزي والاحتلال البريطاني في آسيا وافريقيا وبلاد العرب فأصبحوا اصحاب مخازن واخشاب ومليونيرات: لكن هؤلاء العمال الشرفاء المهاجرين المسلمين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وقعدوا على هذا الشاطىء وفي هذه الاصقاع والبقاع مجرد مهاجرين غرباء وعمال بالقطعة واليومية وباعة سريحة واصحاب دكاكين بقالة وعطارين « يا عطارين دلوني الصبر اجيبه منين » ومطاردين من السفارة الايطالية . لكن هؤلاء أصحاب مخازن الخشب من الشوام والنصارى التابعين للحمايات الفرنسية والانجليزية وكل الجنسيات يحتفلون بأعياد الكرسمس ويأكلون الديكة الرومية المحشوة بالزبيب وحلوى الجوز واللوز . وعندهم في منازلهم خدم يرتدون الطربوش والحزام الاحمر يقدمون الطعام في صحاف من فضة .

هل تستطيع أن تقارن بين العمال الجالسين عند حائط المخزن للاخشاب أو المستظلين بظل شجرة عند الميناء وهم يأكلون السمك المشوى في الردة — النخالة — وعلى جمرات موقد من اصابع الحاجة زنوبة البلطية وهم يتذاكرون أيام المعارك التي خاضوها ؟ لم يكن لديهم من يسجل تلك الذكريات ويتحلقون مع زميلهم عبد الله انبية الفقيه المثقف العامل معهم وأحمد مصطفى والنعاس — ومفتاح هامان — ويتضاحكون في براءة وطهارة ويأتي صاحب المخزن والشادر الخشبى بسيارته الفارهة تشق غبار الطريق وتضرب النفير ويفسح لها الطريق العسكرى الحارس والخفير . ويحوقل العمال الشرفاء من أهل ليبيا وهم ينظرون نظرات لها معان لا يدركها الا من ذاق طعم ما ذاقوه . ومن ادرك حقائق وبواطن ما شاهدوه .

والحياة بطبعها ملاى بالمطبات ، والمزهيات فيوم لنا ويوم علينا ، ويوم نساء ويوم نسر.. واحاديث الغرام والهيمان وشطحات الحب ومغامراته حتى لدى اصحاب الايدى الخشنة ، والقلوب الجادة .

هناك كثرة من العمال والتجار والطلاب الليبيين تزوجوا من هناك ايام هجرتهم وكان لابنائهم وبناتهم خؤولة وعمومة وجدات في مصر وكم لعلعت الزغاريد وتوالت التبريكات وفرقعت زجاجات الشربات ووزعت قطع الملبس وفرح الشيخ المأذون بعرس أهل الجود ولكنه زواج لم يحتج الى قبضاى وحماية قبضاى . وتنازع اطراف الاسرة كزواج صاحبنا الذى صحبته مغامرات وتهديدات وحراسة قبضى يرتعش منه ابن شداد ولكن م . عنيبة اتيح له أن يتزوج من بنت أمها كانت « كتابية » أسلمت وحسن اسلامها . ولكن لم يسلم ابناؤها الرجال فأصبح الابن على دين ابيه وجده والبنت مسلمة مستسلمة وكانت هذه الحماة سليطة اللسان ولكن م . عنيبة كان طويل البال مع حماته المسلمة غير المستسلمة لحماها كان باله اطول منها وهى ذات اللسان وقد تكون يدها اطول من اللسان ويراها من المؤلفة قلوبهم ، وزكاة هذه المؤلفة الصبر والمعاملة الحسنة والمسايرة من أجل تثبيت ايمانها ،

وإن كان الجماعة من المهاجرين مواطنيه يتسامرون ويتضاحكون وينشدون في ايقاع ملحن مغمغم – من أجل عيون نجية .

وكانت نجية حلوة بضه طيبة رقيقة دافئة الصوت ناعمة النظرة لو رآها مخرج من صناع الاضواء ومساحيق الفن وصائدى الفراشات الليلية لاخرجها وأغراها بوسائل الاضواء .

ولكنه فكر في أن يستغل ركنا ركينا وركزة . وكان صهره أى الرجل الذى تزوج حماة م . عنيبة وهو المعلم القبضى « الناقوزى » قبضايا بكل معنى الكلمة من قبضايات طرابلس يوم أن كان بطرابلس وضواحيها .، قباضايات .

وأيضا عد وحسب وكان من قباضايات شاطىء الاسكندرية يضرب بالعصا والشومة والنبوت ، والمعقاف ، وكل مشتقات هذه الادوات وبلا مبالغة يقاوم عشرة رجال في آن واحد .

وبالروسية – وضربة الدماغ كأن دماغه صخرة ركبت على رقبة وهو ضريب هداف نزال رجل معارك ، ومهابش انتزع مجده واكتسب مكانته بقبضة يده وخبطة رأسه ، أما المقص – وهو العكلة بالرجل– فحدث ولا حرج أو حدث وكل الحرج ، ويا ويلك إن وقعت تحت يده ، أو قعت تحت رجله يا سلام سلم لكن اطمئن . لن تقع انت ولا نحن تحت يده لسببين :

أولا لسنا مجانين رحم الله امرأ عرف قدره وهرب من ساحة الفتوات والقبضايات ، والسبب الثاني أنه تاب وراح يجتر ذكرياته وهذا الناقوزى قبل انتشار « الكاراتيه » الياباني وكتب ونوادى«الجودو»كان يعرف كيف يفلفص رقبة من يقبض عليه . وكان يعرف ويجيد بلغة الملاكمة « الضربة القاضية » بلا نقط ولا مباراة لا حكم .. الا ما شهدت به الخصوم الالداء .

يوقع خصمه وقعة لاقيام بعدها في الحلبة. وكانت له شهرة في اواسط القاضايات في عصر ازدهار قباضايات الاسكندرية أيام حميدو وأمثاله في

مناطق السيالة وكوم الشقافة وباب سدرة والقبارى والعجمى وكوم الناضورة. والاوساط الشعبية ومع الشخرات والنخرات تسمع — وهات اللى يشدد لك يا ابن .. ويا ابن ...

والقانون والعرف قد لايسمع ولايسمح بسرد تلك الاوصاف .. وهرب الكتابية. واعلنت خالتى ام ابراهيم اسلامها وكانت تحبة احبت فتوته وصبوته واحبت شهامته وغضب اهلها ولجأوا للقضاء والمحاكمات والتهديد والتربص في الطريق، ولكن قبضة قبضى الليبى كانت اشد صولة وجولة، فضلا عن أن المرأة كانت بالغة سن الرشد بل تجاوزتها بمراحل فهى أم لاولاد واسلم البنات معها ولم يسلم أو يستسلم الاولاد ..ظلوا متصلبين مع دين اجدادهم . وكانت البنت مــن نصيب م . عنيبة وآواهــا وكانت عاطفة حنان وحب وسعادة زوجية ،وكان أن انحسر عصر القبضايات وزرع الشيب في فوديه.واكتفى العجوز بصناعة السلال يأكل منها الخبز الشريف. كانت مهنته صناعة السلال والاسبتة يأخذ البوص من قرب ملاحة الاسكندرية ونواحيها ويصنعها في دقة ومهارة يشقها بموسه الدقيق الحاد الذى كان يهدد به بطون القباضايات ويصنع منها تحفاً فنية ومعدات تستهوى النسوة البلديات لوضع الهدايا وتقديمها عند تبادل الزيارات في المناسبات ، والاعراس . وليلة الحنة — الحنة . الحنة . ياقطر الندا..شباك حبيبى جلاب الهوى..وتستعمل أيضا هذه الاوانى من البوص وقت الذهاب للريف أو القدوم من الريف وهى أكثر انتشارا واحتواء من الحقائب والشكائر فان السلال البوصية وأنواع الاسبتة ارقى من أنواع — الخرج — للبادية والقفة للصعايدة والبحاروة .

القفة لا ذوق فيها ويقال لها مقطف وغلق واسماء أخرى وطبعا الشكارة. والشوال لا تكون للمناسبات .. إذ الذوق والفن للموضة من البوص من السلال وهى بضاعة رائجة وصناعة غير بائرة .

تتفنن اصابع على الناقوزى في صنعها اشكالا في طريقة لولبية فنية ويضعها ويدخلها في شكل متداخل انواعاً واحجاما حول ذراعيه وكتفه ويطوف

بها سارحاً جائلا متجولا موزعا على زبائنه صناعة يده ومن قصب البوص يوص البركة والملاحة صنع ادوات فنية .

ويخيل اليك من بعيد ورأسه قد لا يظهر من بينها أنه هودج يتحرك من سلال وأسبتة ويطوف بها الاحياء البعيدة في طرف الاسكندرية من الحدرة —وسيدى جابر— وكوم الناضورة .إنه أمهر صانع سلال في الاسكندرية في الثلاثينات وهي صناعة تكاد أن تنقرض بعد عصر الالات والمكنات صناعة الخوص والقصب بدقة فنية . شعاره الاكل من عمل يده من تقليد أو تطبيق حكمة النبي داود عليه السلام — أنه كان يأكل من عمل يده — غير أن داود كان يلين له الحديد بالكير والنار وهذا يلين له البوص بالمبراة والموس ويحمد الله أن تاب الله عليه من شقاوة الفتونة وعهود الجدعنة والصعلكة وأنه تقرب الى الله بهداية هذه الزوجة الصالحة وابنتها الحلوة الطيبة .

واقترح القبضاى السابق وعامل الخوص والسلال اللاحق أن يتزوج بالبنت صاحبه وابــن وطنه وبلدياته م . عنيبة ، لأنــه طيب وهادىء ووديع وعلى قد حاله فضلا عن حب واعجاب من م . عنيبة وعلاج الحب عند هؤلاء بتره والقضاء عليه سريعا ومحاصرة نيرانه ويكون ذلك بعدم تطويل المقدمات — طول الخيط يودر الابرة . باختصار علاج الحب والاستلطاف هو الزواج من غير شروطات متعسرات ولا مطبات متعثرات .

ان رضى الطرفان بالرفاء والبنين والبنات والعيشة سكر نبات وتبقى حكايات وخرافات ودعاؤه لنفسه لم يستجب الا في ثلثيه فكان رفاء هذا الثلث وسكر نبات ثلث وبقى في الدعاء الثلث الثالث معلقا بالمقادير التى عجز عنها العلم . أو خالص الدعوات . وهو البنات فلم يرزق من التى استولى عليها بالبنات .

وفي العرس أقسم ان يطلق من البندقية التى خاض بها المعارك وشهدت ساحة الجهاد وكانت البندقية عتيقة والتى ولو شاهدها هواة الآثار وسماسرة

المتاحف لتهاووا على اقتنائها كان بها ايام عزها نقوش من الفضة وحلقات فضية تزن بضعة دراهم باعوها ايام الهجرة في الطريق باحدى الواحات التي توقفت بها القافلة استبدلوها بأرغفة من الخبز وبقيت مجرد نقوش وحفريات في خشب البندقية ولولا نوعية الخشب وجودته للعب بهاء السوس وهرعت جماهير المهاجرين للاحتفال بزواج عنيبة وتزوج بابنة التي حسن اسلامها وكان من شهود العقد القبضاى صانع السلال .

وتزوجت الام من هذا الصانع وبعد العرس بقليل اذا بجماعة من الشرطة والمباحث السرية تسأل عنه في تلك الاحياء الشعبية من طرف مدينة الاسكندر المقدوني وتصدى الفصيح اللسان الفصيح اليد والفصيح الساعد مفلوت العيون والضربات الناقوزى للدفاع عنه وتحركت دماء القبضية أو عرق الفروسية في المواطن المهاجر آه .. معقول يهددوا صاحبنا .. ونحن هنا ؟؟؟؟

وظن أن اخاها يريد خطفها كما اشاع الخواجة ولكن ثبت أن الموضوع له اطراف أبعد ... تحركت اسلاك الشفرات والمخاطبات بين روما وقصر عابدين وحاشية ملك ايطاليا وحاشية ملك مصر .

وهؤلاء ضحايا من احرار المهاجرين قد يسقطون بين سنابك خيول الاحتفال سيزورملك ايطاليا فيكتور عما نويل الثالث والاخير ،البلاد المصرية والعلاقة بين القصرين تقليدية تاريخية اسروية وطلبت دولة ايطاليا عن طريق قنصليتها بالاسكندرية القبض على مجموعة من المهاجرين بمناسبة زيارة ملك ايطاليا وقدومه الى قطر مصر بدعوة الملك فؤاد وسيق م . عنيبة الى السجن بالاسكندرية مع المجاهد احمد السويحلى وغيره من كبار المجاهدين والاعيان المهاجرين وبات ليالى على التخشيبة حتى انتهت زيارة ملك ايطاليا وأجل عرسه حتى انتهت جولة الإمبراطور وهؤلاء الشرفاء طاردتهم أيطاليا حتى في المهجر

عيسى الفاخري

جوّاب الصحاري





منذ طفولتنا كنا نعرفه ونراه ،

هذا الشيخ الرهيف النحيل ، لعل أقرب وصف مطابق له وصفة تلائمه ماقاله الشاعر ، ولعله صريع طموحه وكلامه أبو الطيب وأبو القوافي المتنبى ،

كفى بـى نحولا أننى رجل   لولا مخاطبتى إيـاك لم ترنى

هذا الأنيق الرهيف الذى تكاد تطيره الريح الخفيفة .. حقيقة هو في وزن الريشة – لا باصطلاح الملاكمين بل بوصف المشاهدين ..

وهو من معالم الحى ..ومن الشخصيات المتميزة في مجتمع المهاجرين.. لباسه الأنيق ، النظيف الى حد الوسوسة المتهامس في حديثه الى حد الهسهسة..

عمامته المكورة النظيفة .

ومنظاره الأسود السميك الذى يشبه بشكل ما منظار أستاذنا الدكتور طه حسين ..

وفي يد الشيخ تلك العصا الأبنوسية ذات المقبض العاجى الذى يشبه سن الفيل – ولعله من مادته .

والمنظار الأسود والمذبـّة الرهيفة ..قد تكون من اللوازم والمتلازمات.. أو على حد تعبير الأدباء لزوم ما لا يلزم .. وان كان المعرى مقصده غير هذا في لزومياته ،..

ولباسه من تحت الجبـّة .. أو الكاكولة ..

« لست ادرى من أين أتت ومن أين فصلت هذه الإضافة من لباس المشايخ ولاتوجد في اللغة .. كوكل — تكوكل — ولم تعرف مادة كوكولا ..ومشتقاتها في تلك الأيام »

من تحت الجبـّة قماش ونسيج يسمى « الشاهى » الذى كان يلبسه أعيان العمد في ذلك الزمان .

وأكله المفضل أو أكلته المفضلة سيما في الصباح وعند الأماسى قطعة من الجبن الرومى من النوع الذى يتمزمز به المتمزمزون ..

أو حبات من الزيتون الأسود من دكان البقال اليونانى ، وهو شيخ مشهور معروف في كل محيطات وآفاق المهاجرين الليبيين ، يكفى أن تقول — الشيخ عيسى ، وإن أردت شيئاً من التوضيح — الفاخرى —

شارك أبا العلاء المعرى في شىء واحد .

ويخالفه في عدة أشياء ،

يشاركه في كف البصر وعدم رؤية الأشياء المجسمة ولكن يخالفه على طول الخط وعرضه في حكاية التشاؤم والسوداوية ..

فهو هشوش . بشوش ..أو هشاش بشاش

متفائل مرح .. طرب ممراح .. غير مطرم ولا مبـّوز يجيد النكتة المصرية . كأنه ابن بلد من الأقحاح المراح .. وقد اكتسب هذه الميول الفكاهية والظواهر الدعابية . والنظرة الممراحية من مروياته ومسموعاته

البلدية ومعرفته لأولاد البلد من ريف وحضر ومعممين .. ومطقين — « نسبة الى الطاقية او الطواقى — ومتليسين — (نسبة الى اللاسة)

وفي لهجته ونغمته وطريقة القائه العفوية لاتفرق أذنك أو نظرتك بينه وبين أى مصرى صميم ، ورغم انه من مواليد اجدابية وطفولته قضاها في فيافي ليبيا ..وانتسب الى معهد الاسكندرية الدينى ..بالقبارى ، ايام ان كان المعهد بالقبارى (اصبح مكانه الآن مرفأ لأصلاح المرا كب)

كان شيخه في الثلاثينات أو اواخر العشرينيات «الشيخ محمد الفحام» التحقيق والتأكيد لايقدم ولا يؤخر ولا يفيد شيئاً في رسم الصورة التى نقدمها .. نحن هنا لا نقدم ترجمة حرفية . وتحقيقاً رقمياً .. انما نقــدم صورة من جوانب فنية ونفسية وبعض الملامح والزوايا والجوانب الخفيــة .

ولعل من الأدلة على تأكيد قولنا أنه كان ضد اتجاه وسوداوية ابى العلاء المعرى في حكاية التشاؤم انه جاب الصحراء عرياناً او شبه عريان ..الا من حزامية حافياً .. لا جورب ولا مداس ..لا غطاء ولا دثار ..لا أهل ولا خلان .. لا زوادة ولاطعام .. ولا مرشد ..ولا بوصلة ..وهو مكفوف البصر شريداً ..وحيداً ..هائماً ..يهيم على وجهه يضمه غيم الله الكريم ..ومـع هذا الغرق في الصحراء والتوهان ظل في رحلته في وسط الزمهرير ..وأتون الصحراء متشبثاً بخيوط الحياة ..آملا في الوصول الى شواطىء النجاة . ويحلم متفائلا بالوصول الى أسكندرية المرية .والقاهرة المعزية ..ويكون مقفطناً عالما ..لسناً شيخاً ..ويجلس على كرسيه معمماً ..

وقد شق حياته من بين الصخور ..

وهذا التعبير ليس من المجاز وتحلية ومبالغة الاستعارات ، بل هى حقيقة واقعة ..شق سيره بين الصخور ..وماأدراك ما صخور الصحراء التى يعرفها جوابو الآفاق وقاطعو الصحراء .. وقد قطعهما على رجليه .. بلا رفيق مواظب الرفقة ..ولا آلات مقياس الاحاستــه الطبيعية وغريزة حب البقاء حب الحياة ؟!..

بينما كان هناك آخرون من الذين اعتبروا قطع الفيافي والمرور بهذه الأنحاء اكتشافاً يسجل ، وريادة تذكر ومغامرة تكتب ، واعتبر أهل الرحلة الصحراوية في قائمة الخالدين والأبطال العلميين ،

ومثلا ..مثلا يضرب ..لا مثلا ..يحتذى .

كان في تلك الفترة وما يقاربها أحمد حسنين وصاحبته الإنجليزية (روزتافوربس)

بما لهما من آلات ومعدات ..وترمومترات ..وجمعيات تساند .وهيئات تعاضد ، ومآكل محفوظة ، وأموال مرصودة وأدلاء ، ، وأجهزة اتصال ووسائل راحة . واسترواح ،وشوقي أمير الشعراء يقول في جواب الصحراء ومكتشف الواحة قصيدة عصماء ..وجمعيات في أوربا تنتظر ،

وجهات استخبارات في بريطانيا تهتم باحمد حسنين وصاحبته ..وهو يؤلف عن رحلته الصحراوية كتاباً .. وتنتظر جهات وصوله سالماً ..

والجهد اكثره في المقياس العلمى لصاحبته الإنجليزية أتذكر المثل الليبى— (الضرب للمحاميد والثنا لغومة) فقد حاز في رحلته مجداً وغدا لفاروق رائداً ..

حتى أفسد فاروق ..

ذلك هو صاحب الرحلة الصحراوية ..

وتقارن في الآونة بين هذا الذى هيئت له كل الوسائل ومهدت له كل السبل لجوب الصحراء ..وبين هذا المجهول الكفيف الذى عرف الصحراء بلداً بلداً ..وتحسسها صخرة . صخرة ..وهبطها وادياً ..وادياً ..ونام في احراشها وواحاتها وكان وحيداً في معاناته وصراعه ..

لكن كان من اكبر عيوب هؤلاء انهم لا يسجلون ولا يكتبون ولا حتى ينظمون احاديثهم ومغامراتهم اثناء الروايات والذكريات فضاعت ..وراحت تسفوها رياح الزمن ..وأعاصير الحياة ،وهو عندما يروى رحلته الشاقة

الصحراوية من اجدابية الى شط أسكندرية في طريق بعيد عن الخط الساحلى
لاتكاد تصدق ان هذا الرهيف المسروب الذى يكاد يرهبه خبط قطة .
او بعبع صغير يقطع صحراء ليبيا ومصر وحيداً بلا رفاق ..ولا قافلة واكثر
الأيام يقضيها هائماً ..من الهومان والتوهان لا من الهيام ..

وسمع صوت الذئب في الصحراء .

وتوالت عواءات ذئب جائع .

وظلت المطاردة بين حاسة شم الذئب

وحاسة سمع الكفيف الوحيد الهارب .

هذا يقترب في خفة ..

وهذا يبتعد ويتلملم في تخوف .

واختفى الكفيف الرهيف وراء أكمة ..مكتفياً باستقطار الهواء منكمشاً
في توجس .

وتساوى الليل والنهار ..والحر والبرد والجوع ..

كل هذا في مقياس الحفاظ على الحياة يتساوى ..

وصوت العواء يبتعد تارة ..ويقترب أخرى

وعرقه يتصبب حتى يكاد ييبس عظمه كما يبس ريقه، وتكاد أنفاسه
تتقطع كما تقطعت هلاهيل ثيابه ،ولكن كان أمله في الحياة لا ينقطع ..
وروح الأمل لا تتوارى رغم المخاطر والوساوس ..والهواجس

ترى .. أهو حفيف الريح في أذنيه ؟

أم هو حفيف هامة من حيات الصحراء ..؟

أم هو حفيف غول .. كما تحرك عقله الباطن ويكاد يتلاشى عقله الظاهر

وتواصلت العواءات ..وتشابك الخفيف ..وانكمش ..هل يغدو في انكماشه قوقعة من قواقع الصحراء ؟

ولعل الدعاء ينقذه ..ولعل كفاً يرفعها الى السماء في لهفة المضطر .. ورجفة المضطرب .تفتح له باباً للرحمة ..ورحمته وسعت كل شيء:

« وقال ربكم ادعوني أستجب لكم .. »

وأنقذته قافلة من الأعراب كانت مارة ..بجرعة ماء أعطوها له في قطرات ..وعلى مرات ..لئلا يرتوي دفعة فيموت دفعة وأنقذوا حياته بشق تمرة لاكها ..فجعلته في مضمار الأحياء بعد أن تشهد ..ومد إصبعه يشهد الملائكة : على الشهادة ..وأنقذوا حياته .. كتب له عمر جديد ..

والأعمار تبيد وتتجدد ..

والأعمار تزيد وتنقص

تزيد بالأمل ..وتنقص باليأس ،

تزاد بالحرية ، وتنكمش وتذوب بالاستبداد واليأس

تتمدد وتتجدد بالحيوية ..

وتنكمش ..وتتقلص بالقتامة والجهامة .

هل يكون إنقاذه من براثن الذئاب ووحشة الطريق هو مبعث بشاشته.. ومرحه وفكاهته ..ودعاباته وهشاشته ، وحبه لقراءة حسين شفيق .. والمشعلقات فيما بعد ؟ يجوز .. إن استعملنا مقياس الباطن في الإدراك غير الحسي في مدارس علم النفس الأدلري نسبة الى الفيلسوف أدلر .. والله أعلم.

وكان يحكي لنا ونحن اطفال رحلته الشاقة ..ومغامراته في الصحراء وهو بين خوف الجوع والعطش ومطاردة جنود جرزياني وعند الحدود حط به المقام ..وتنفس الصعداء ..ومرة أخرى يدور الحوار بين رجال الحدود وبينه وكان منظره مثيراً .. للاشفاق ..وكلمة الإشفاق ألطف من كلمة الرثاء

هل من ورائه خطر لو دخل هذا السحتوت الرهيف البلاد ؟ وسمحوا له ..بلا أوراق .. ولا وثيقة ..ولا تعهد ..

وأواه كرام القوم ..ولا يخلو الزمان من كرام ..ومن لئام ..وانتسب الى المعهد السكندرى كمصرى ..

واتوا له بشهادة ميلاد مصرية ..

ومسقط رأسه ورجليه لم يكن في مصر.. ولكن الكذب في المصالح يجوز ..وأحياناً واجب . في سبيل أن ينتسب الى طلبة العلم بالضرورة كان لابد من شهادة ميلاد .

ولابد أن يشهد شهود إثبات بهذا ..

وللأنتساب للمعهد التابع للأزهر شرطان لازمان ..وشرط احتياطى ..

ووجد شرط الشهادة الميلادية والشرط الثانى حفظه للقرآن الكريم .. كان قد حفظه تلاوة وتجويداً ..وبقى الشرط الاحتياطى .. ولى الأمـــر .. وكفله العامل الصعيدي عمي سلام .

وطبعاً ولى الأمر لا بد أن يتكفل بالطعام والشراب واللباس وقضاء عطلة الصيف عنده ..وهى أشهر طوال قد تصل الى ثلث العام ..

وقد كفله المهاجرون ايضا عندهم كأحد أبنائهم .. آكلا .. شاربـــاً .. لابساً.. نائماً .. مسامراً ..رائحاً غادياً ..مطمئناً ..

وكل غريب للغريب نسيب ..والليبيون في المهجر يشد بعضهم بعضاً. شد التضامن والتآنس والتآخى ..لا شد الهدم والقضم

وسوف يحفظ الشاطبية.. تلك الآلاف من قوالب النظم في فنون التجويد وضوابط قواعد القراءات السبع وغير السبع ــ الشاطبية ــ حرز الأمانى. نظم ابى محمد القاسم بن فيره بن خلف الرعينى الشاطبى الضرير المتوفى ــ ٥٩٠ ــ هـ

ورغم انه يحفظ ضوابط وقواعد التجويد .ويروى المرويات من القراءات حتى الشاذ منها والمهجور ..الا أنه لم يجود بصوته .

قد يدندن بينه وبين نفسه بأغنية أو موال في صوت خافت خوفاً ..أو حياء أن يسمعه المهاجرون المتزمتون أو المحترمون ..

والذين يتبادلون معه الاحترام ..الا أنه كان لا يقرأ بصوت عال ولا يجـوّد بصوت مرتفع ..إما لعدم التعود .. فهو يتلو تلاوة هادئة ..وإما أنه يشعر بأن صوته في ذبذباته وتكوين حبائله الصوتية لا يصلح للقراءة على شكل مقرىء محترف بصوت مرتفع .. واين ؟ في بلاد مصر ..

أما هؤلاء المشايخ من اهل وادى النيل الذين يجيدون تلاوة القرآن الكريم فهى موهبة صوتية وهبهم إياها الله ..

(يزيد في الخلق مايشاء)

قال المفسرون – إنه الصوت الحسن

وقالوا ..ان القرآن الكريم نزل بمكة والمدينة وتلى وجـوّد في مصر..

وكتب خطا جميلا في اسطامبول

وفعلا لا تجد صوتاً كروانياً للقرآن وإجادة للتجويد مثل صوت أهل مصر ولا تجد خطاً للمصاحف كخط الأتراك .

وكان الشيخ عيسى من قراء الصحف وخاصة المجلات الأدبية والفكاهية بصفة خاصة ..وبالأخص ..المطرقة ..والبعكوكة .وطرائف تلك الصحف التى اشتهرت في الثلاثينات ..

ومن المجلات الإسلامية ما كان يصدره امين عبد الرحمن. مجلة الأسلام..

واهتم بالأدب الفكاهى . وأدب الطرائف وأسلوب المداعبات، ذلك

اللون الذى يكاد ينقرض في الصحافة الفكاهية فقد كان حافظاً راوياً للمشعلقات !!

وهذا ليس خطأ في التعبير .. أو تصحيفا طباعياً ..إنما كان هناك لون من الوان الأدب الشعبى الفكاهى عرفت به مجموعة من أدباء الفن الفكاهى والظرف ..مثل حسين شفيق المصرى في نمط من الشعر الشعبى باسلوب عامى مهذب ..رقيق غير مبتذل ..مكشوف غير وقح ..ولا هو بالرخيص الدميم كان مهذبا ذلك اللون من الأدب العامى الدارج على نمط المعلقات وزناً.. ونسقاً ..لكن تناول موضوعات وتضمن قضايا شعبية معاصرة .

كانت تنشر قصائد ومطولات المشعلقات في مجلة (المطرقة) كان حريصاً على قراءتها وحفظها ..وكان يقرؤها مع زميل له من الريف المصرى من ناحية البحيرة يشاركه في اناقة الثوب واختيار الملابس المختارة هو الشيخ ياسين واخوه عبد التواب عبد الجليل اسماعيل — من بلدة اطلميس .. وكان من كرام أهل الريف يقضى عندهم أحياناً اشهر الصيف الثلاثة ايام العطلة مع أخي ياسين الذى كان في تخصص المادة وغدا من مدرسى كليات الأزهر .. وطوحت به الوظائف الى تخوم الهند والسند .

كان من اعيان وعمد تلك الناحية .

واطلميس والمسين من محطات قطار الدلتا المتلكىء البطىء الذى قد تسبقه اذا شددت حيلك ..ووضعت جلبابك في أسنانك وجريت — إن كنت من أصحاب الجلباب ،

وهى محطة من المحطات التى بين دمنهور والدلنجات .

وكان يأخذ زاده للصيف من كتب الأدب والفكاهة والقراءات الخفيفة لا كتب التشريع والفقه والحواشى ، والشروح ، ولكن لا بد من الامتحان في العلوم الشرعية .

فكان هناك أساتذة يجعلون لطلابهم ..ملازم ..أو مايسمى مذكرات—
كان يحفظها ويؤديها امتحانا شفاهياً ..وينجح من أول دور .. بينما كانت
الكثرة الكاثرة من المشايخ سيما زميل له بكلية الشريعة ..ابوبكر ..ح..
كان يرى أن هذا الذى يقرؤه ويحفظه عيسي وامثاله ليس علماً بالمعنى
المألوف المعروف وهو يقول مزوماً مبلماً .. مطرماً .. ماطاً شفتيه ..مقطباً
حاجبيه ..معبراً عن السخرية بعلماء آخر الزمان ..أو علماء قرن اربعتاش
على حد تعبيره ..

* وهو هذا علم ؟ العلم في كتاب خليل

ويسرد أقوال خليل التى تحتاج الى شرح . والشرح ايضاً يحتاج الى شرح
وشرح آخر ..

ولكن عيسي كان رغم تقصيب الحواجب ..ومط الشفاه ..كان أميل
الى قراءة الأدب الخفيف ..والكتب الخفيفة وما يسر النفس لا ما يثقل .أو
يوجع الرأس ..بعيداً عن المثقلات ..سواء كانت من نوع مثقلات الأكل
أو مثقلات الحديث أو مثقلات القراءة ..فكان حسا ومعنى ومضموناً
لطيفاً ..ظريفاً ..خفيفاً ..

وله في يده مذبـّـة من التى كان يستعملها الأعيان والوجهاء في ذلك
الزمان ..وهى على مايبدو من ذيل حصان أو ماهو أشبه بهذا ..وإن كانت
ناعمة لينـــّـة

قبل أن يعرف الناس في اوانيهم ومقنياتهم وملابسهم مادة « النايلون »
وخيوط الحرير الصناعى ومشتقاته

ولكن للمـّـذبة الأنيقة رأس من العاج ..ويهش بها في حركة آليـــة..
ولو لم يكن هناك ذباب ولا ناموس ..ولاهابوش كما انه يحمل ايضاً في
كثير من الأحيان .. سحابة .. مظـّـلة .. ويصر على أن تكون من النوع
الغالى الأنيق .

وهو ذواقه حسن الاختيار حتى في المأكل ..والحلويات. هو من هواة اكل البسبوسة ..والمعمولة « من انواع الحلويات في الأسكندرية – اشبه بانواع « المقروض » « الطرابلسى » » لكنه مدور لا مربع ،ومحشو بالعجوة أيضاً ..في دكان الحلوانى بالناحية بالعزبة الجديدة، قرب دكان احمد الشعافي وعلى الجابرية بالقبارى وقد قرأت للشيخ في مطلع تدريبى على القراءة وأنافي المدرسة الأولية بعض المجلات والصحف والقصص والروايات وكان يجيد الإنصات بذاكرة تلتقط ماتسمع في استيعاب وهضم وإن كانت من أنواع القراءات الخفيفة لا من نوع القراءات ذات الوزن الثقيل ،

الى درجة انه ساير واستمع في لهفة الى روايات الجيب وقصص الجيب والتى اشتهرت امثال ارسين لوبين ..وشرلوك هولمز وما كـــان يترجم ترجمة سهلة ..سريعة ..رخيصة ..

وما كنت حسب ميولى وتعودى أحب هذه القراءات من روايات الجيب .. وكنت شغوفاً واميل الى قراءة القصص الاخرى المترجمة لطانيوس عبده وغيره ..

وكان هناك سودانى .. حسب الرسول من الخرطوم في المعهد السكندرى يقرأ روايات الجيب .. ويستمع اليه الشيخ عيسي ..في صمت واطراق قد يصاحبها في بعض الحالات ..والمواقف ..همهمة أو دمدمة ودندنة ..أو نقرة بالعصا .. وخبطة بالرجل ..

ويزعم انها تشد الى القراءة ..

لكن لم أكن من أنصار روايات الجيب ولا مغامرات أرسين لوبين ولاشرلوك هولمز حتى في المطارات وأوقات الفراغ ..إن كان عندى فراغ

وكان زملاؤه الشيوخ يعجبون من قراءة او إنصات هذا الشيخ .. واين هذا من قراءة الفقه والتشريع ..وتاريخ التشريع ؟ ويرى البعض ان في قراءة هذه الروايات تلهية وتزجية فارغة ولكن يدافع بان هذه قراءة حرة ..غير رسمية .

والقراءة لديه أنواع ..أو يجب أن تكون أنواعا ..رسمية ..وحرة .. صيفية وشتوية ..ولكل موسم لون من القراءة ..

وهو تقسيم قريب من المنطق والموضوعية لو سار على دربه وحقق جانباً من منهجه .

ويرى القراءة الخفيفة نوعاً من أطباق المشهيات

لكن زملاءه الشيوخ في حوارهم معه يقولون ..في سخرية جادة .. أو في جدية ساخرة

– يظهر انك اكثرت من أطباق المشهيات حتى شبعت منها وامتلات .. واكتفيت :

ولكن يرد عليهم في حوار لطيف

– من يستفيد من فناقلكم !؟

وكان لرفاهية ذوقه اكثر ميلا الى الأدب الخفيف وابتعاداً عن فناقل الازهرين ..رغم انه لا يرتدى الا الزى الأزهرى .وجدرانه هى التى حمته ورعته ..

وهو شيخ بحكم المناخ والظروف وكل الملابسات، وتخرج عالماً .. واستاذاً في الفقه من كلية الشريعة عندما كانت في مبناها القديم بحى الصليبة عند البرمونى

وكان من المعجبين بخطابة الشيخ الباقورى الذى كان زميلا له في الدراسة وان كان الباقورى متقدماً عنه بضع سنوات لكنه من جيله ،وسمعناه طويلا ونحن طلاب يثنى على خطابته وانطلاقاته في الهاب الحماس في قضية كانت تشغل بال الأزهريين

– المراغى أم الظواهرى ،

وكان الشيخ عيسي من انصار مصطفى المراغى باعتبار أنه مجدد وانه سيطور الأزهر .. وقد ساهم الشيخ كطالب في الأزهر في المظاهرات .. ومواكب التأييد وصراخ الاحتجاجات

وإن لم يبح صوته بخطاب .. وإن أدميت كفاه بالتصفيق وأتعب نفسه في حوار التشيع لما كان ينادى به وكان يجيد النكتة سماعاً ورواية ..لا تأليفاً ولا تلفيقاً ..وكان بحكم وجوده مع أولاد البلد يجيد لهجتهم وطريقة إلقائهم ولا تفرق بينه وبين أى واحد من أهل العراقة في الأحياء الشعبية .

وكانت ايام الأجازة – أو كما تسمى مسامحة– يقضيها لدى مواطنيه المهاجرين في الصحراء الغربية – وهى ايام قليلة .ولكنه يجنح للريف اكثر يحب الحدائق والجنائن . وسماع صوت هدير الساقية . والعيش المشلتت .. والمرحرح – وحتى أقراص البتاو – وتلك الخيرات عند الأجاود الأكارم من أهل الريف او عند بلدياته المهاجرين ..هناك الشعافي والجابريه حيث كانوا يتناولون الإفطار والغداء والعشاء في الدكان ..ويتخلل ذلك أحاديث واسمار في الأدب والعلم وأمور الدين والدنيا ..ولكن يوم الجمعة فيالبيت على الطريقة الليبية .

وكان منام الشيخ في المعهد الأسكندرى بالقبارى ..فيجتاز الطريق وحده من مكان المبيت الذى يشبه العنابر الى الدكان الى المعهد حيث الفراش الذى يفتح له الباب الحديدى الكبير ذا القفل الضخم بعد نداءات متفق عليها .. وعند ماشعر أن حضرة الحارس ثقيل النوم ..ثقيل السمع ..ثقيل الفهم، واجتماع هذه الثلاثية آفة الآفات في إنسان واحد ، وهى ثالثة الأثافي ، عند ذاك .. وتلافياً للأخطار اتفق الشيخ عيسي مع الحارس ذى الثلاث ثقيلات أن يعطيه المفتاح الذى قفله من داخل الباب الحديدى الكبير ،وكان منظراً طريفاً لهذا الشيخ الكفيف الرهيف الأنيق أن يأخذ في يده المفتاح الضخم إذا تصورت انه من مفاتيح القرون الوسطى يزن زهاء ثلاثة كيلو جرام يربطه في سير من الجلد الطويل ..يحمله واضعاً إياه على كتفه ،بشكل ملفت

للنظر كأنه مفتاح وكالة أو خان من تلك الوكالات والخانات التى قد تراها في بعض الأفلام من اشرطة تصور القرون الوسطى وأخيراً ثقل عليه هـذا المفتاح ، أو ناء بحمل هذا المفتاح

وآثر أن ينادى عليه زاعقاً .. ومتنحنحاً .. ومصفقاً ....

وخابطاً على الباب الحديدى ، ويصبر على ثقيلاته الثلاث ولو ضربه البرد في الليل أو هدده أبو جنب . وهو واقف يرتعد عند الباب.

ولازلت أذكر .. أنى أسمعته حفظي لقصيدة الشاعر حافظ في الدفاع عن اللغة العربية هناك عند الباب وهو ينادى الحارس ليفتح .. ومازال أردد وأنا أسمعه :ـ

وسعت كتاب الله لفظا وحكمة

ومرة اسمعته في الطريق .. وعند الدكان قصيدة شوقى :قم للمعلم وفه التبجيلا ـ عندما كنت اشتاق لشوقى واحافظ على شعر حافظ ابراهيم واحفظ له ...

وهو ـ أى الشيخ عيسى ـ صنيت .. سميع ..

واسمعته ايضا من محفوظاتى البكائية الأندلسية المنسوبة لابن الرندى.. لكل شيء اذا ماتم نقصان ..

وكانت الدمعات تطفر من عينى وأنا القيها بصوت منفعل متفاعل ترى هل يحقق استاذنا عبدالله عنان.. هل هذه القصيدة لأبن الرندى ام لغيره ؟. وما اكثر بكائيات ونكبات ورثائيات العرب .. في منحنيات التاريخ وأدبه الباكى والشيخ .. رغم حفظه ومحفوظاته ،، وتصنتاته وكثرة مروياته .. ورقة شعوره ..لم ينظم شعراً ..

خزان شعر ..آو خزانة آدب لفها الزمن. وذات رمضان في الأسكندرية كان يستيقظ ويسرع للأفطار عند المغرب مع الشعافي والجابرية ..وسمع طلقة مدفع وشعر به الحارس ..يتحسس عند الباب ..يسحب بيده حلقة الباب الحديدية ، وقال له :

– رايح فين ياشيخ عيسي ! ؟

– أتسحر

– ده مدفع الإمساك الفجر شأشأ

وعاد الشيخ الى النوم ..عاد ليغط في سبات عميق .فقد ضاع السحور، وأمره الى الله – رغم أن السحور سنة نصت عليه الأحاديث –أوأمر دعت اليه الحاجة ..

ونام ولم يصح الا على طلقة مدفع .. وأيضا ظنه مدفع الإفطـــار وبادر بالذهاب الى بيت صاحبيه للأفطار – فقد نام بلا سحور – واذا بصوت صاحبه – في لهجة ريفية عميقة أو غميقة يقول له ..ماطا وماداً نبرة التساؤل،

– رايح فين ياشيخ عيسي ؟

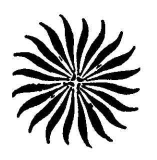
– أفطر ..

– تفطر ايه .. ياشيخ عيسي ——الله ..ده مدفع الأمساك ..روح نام.. الله يفتح عليك ..

وهكذا ..قضى الشيخ يومين كاملين بلياليهما ..صائماً ..طاوياً ..منطوياً.. بلا إفطار ولا سحور ..وعاد ينام ..موصياً صاحبه ..مستحلفاً له بالله .. وسيدى ابى العباس والبوصيرى والقبارى أن يوقظه ولا يجعله صائم الدهر.. ولا نائم الليل والنهار ..

وكانت حكاية نومه ليلتين ونهارين وصومه المتواصل ..وأجره رغم أنفه .. كانت قصة رواها الشيوخ بالسند المتصل – متندرين بأن نوم الصائم عبادة ..وقد تكون أسهل العبادات .

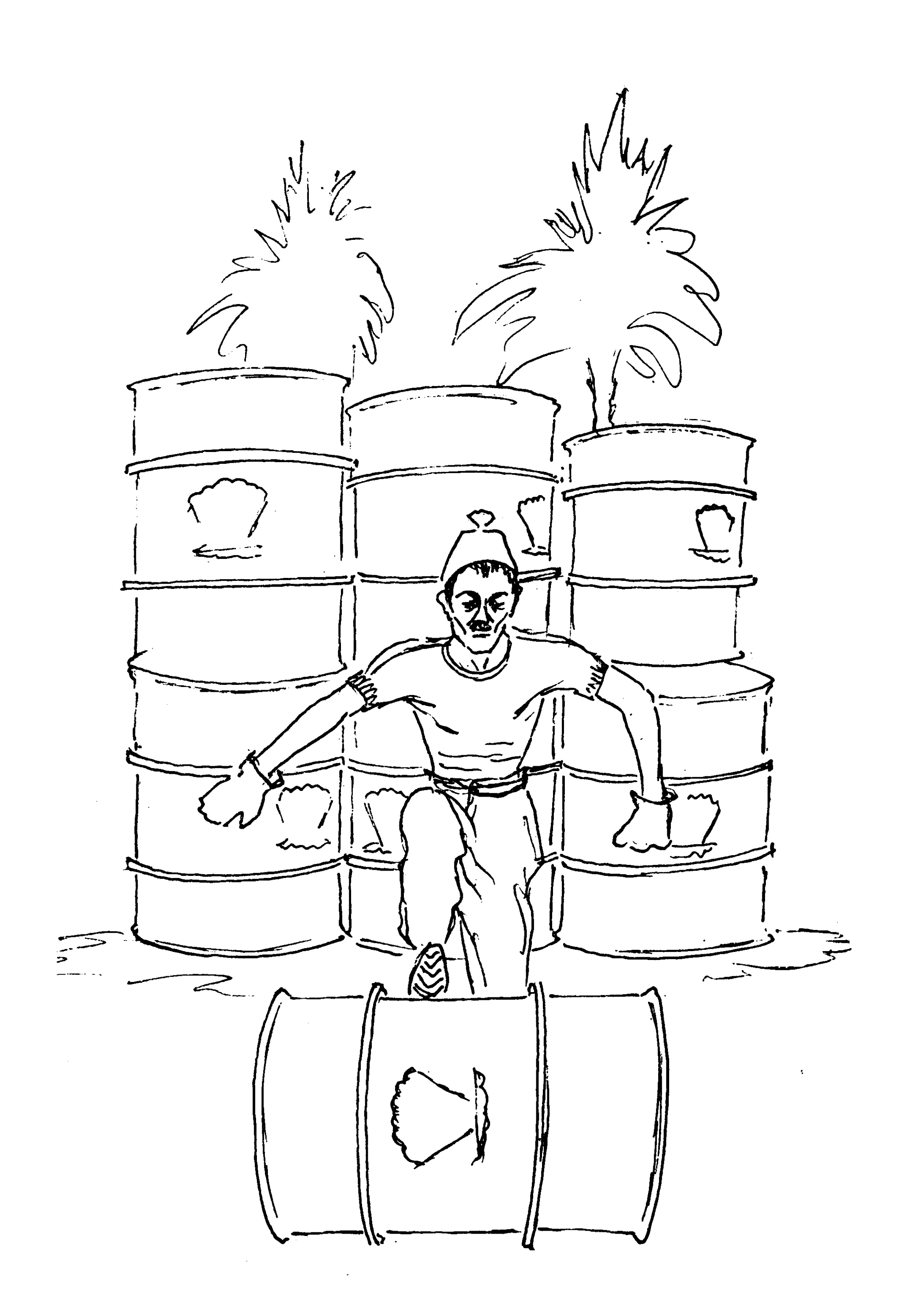
ونظم أحدهم قصيدة هجائية فكاهية ذهبت أدراج الرياح .



عبد الله أنيس

العامل المثقف

كاتب الرسائل



يومان في الاسبوع كان يرتدى فيهما أفخر الثياب ويتعطر . يرتدى ملابس أولاد البلد من الوجهاء وأهل اليسار «البنش» الاسكندراني ، والساعة الجيبية بكتينة والمظلة الانيقة في يده .. ولا مظلة شارلى شابلن أو تشمبرلين في زمانهما وعز مجدهما .

والمسبحة الكهرمانية تتساقط متوالية قد تكون بلا تسابيح ،والمنظار الذى يزيد من اناقته ووجاهته .

قد يصلح للقراءة والكتابة . وللشمس وللظل . ولاظهار « البوزة » ورتوش المظهر . والابتسامة الطيبة التى لا تفارقه .

* يومان في الاسبوع .
* يوم الاحد عطلة المؤسسة التى يعمل بها .

وهي عطلة الشركات والخواجات .

* ويوم .. الجمعة . حيث يستعد للصلاة والاسترواح .

وهو مثقف بالنسبة للمحيط الذى يعيش فيه ويقال له – شفهيا وتحريريا الفقيه عبد الله .

والفقيه رتبة علمية ودلالة على الاحترام والتوقير . وكان لدى هؤلاء العمال وفي ذلك المحيط هو قارىء الجريدة وكاتب الجوابات وقارىء الرسائل والمستشار عند اللزوم في بعض المسائل والقضايا .

ويقرأ لهم قصص أولاد هلال . والزير سالم، وعنترة بن شداد فوق السطوح على « طبلية » شاى ، ولمبة نمرة خمسة التي كانت تشتعل بالجاز .

وهو من أشهر المهاجرين لدى عمال شركة شل بالورديان ، ويرتدى العمامة (بليوتها) على طاقية بيضاء . يلفها لفات انيقة قد تستغرق عملية اللف والنقض والابرام والبرم وقتا غير قصير .

ويرتدى اثناء العمل السروال الاصفر - بنطلونا.. وسترة صفراء للعمال ويدحرج بيديه براميل الجاز الممتلئة الثقيلة من مخزن المصنع الى رصيف الباخرة الراسية في رصيف الميناء، أو يدحرج ما ثقل من بضائع للشركة من رصيف الميناء إلى المخازن . وقد يكون العمل شاقاً فينوب عنه العمال تقديراً للفقيه عبد الله قارئ الجوابات القادمة اليهم ، وكاتب الجوابات والرسائل المرسلة منهم .

وله اسلوب في الكتابة لابد أن يختمه بلازمة ..«والسلام من كاتب الحروف العبد المعروف عبد الله انبيه غفر الله له كل سية ..»

لابد أن يقرأه السلام من يرسل اليه الخطاب ولو لم يعرفه قارىء المراسلات والمكاتبات والعرف او عادة التعود كانت تقتضى هذا وهو ذواقة للادب « الكلاسيكى » .

وعند رأسه مجموعة من الكتب لا يغمض عينه الا وعلى صدره كتاب . أو بجانبه كتاب ولوكان قد قرأه مرارا ، واجتره تكرارا .

وكان من قراء ، فريد وجدى - ومعجبا به غاية الاعجاب . لا يقل عن أعجاب بعض الناس بطنطاوى جوهرى في تلك الحقبة من ثلاثينات هذا القرن .

وأول ما سمعت باسم فريد وجدى في حياتي وانا طفل كان منه ، فقد كان يردد اسمه باعجاب وإجلال .. يراه فيلسوفا واسع المعرفة . علامة دماغ كبير تطلع منه كل هذه المجلدات . يحتفظ بدائرة المعارف التى كتبها فريد وجدى . يكاد أن يحفظها بعد أن احتفظ بها . وحاطها بالة من العناية والرعاية .

وهو ذو صوت في الدندنة أحيانا .

لايدندن الا وحده عند حجرته فوق السطوح يجتمع العمال المهاجرون معه في المساء على جلسة شاى بالطريقة الليبية — وهو يجيد صنع الشاى ..يدع البراد يغلى وهو يستغل الوقت لاسماعهم ما يحبون من قصص شعبية — الهلالية — والعنترية ، والزازيا وأولادها . وما اشبه .

وقد يغضب سيبويه أحيانا من قراءته ولكن لا بأس لن يشعر بغضب سيبويه ، واحتراق نفطويه ، ولن يلمح تقطيب الاصمعى أحد من هؤلاء المستمعين المتحلقين حوله في انتباه واصغاء عجيب . يخبرهم . عشرات المرات . مئات المرات عن بطولات وتدفقات هجرات أولاد هلال في رحلتهم المثيرة التى اختلط فيها . الادب بالقصة . بالحكاية — بالاسطورة بالتاريخ . بالاسماء . بالاماكن . بالواقع بالخيال .

ومن يغربل الحقائق التاريخية إلا ذلك الغربال في يد ذات اطلاع ؟وبعد أن كبرنا وطالعنا أدركنا من وراء كل ذلك حقائق علمية وثروات وكنوزا دراسية وحتى الأقاصيص الشعبية هى ذات خصوبة . وهى حقائق نفسية وحقائق اجتماعية . وما أوسع ميادينها !!

* * *

ولابد له من قراءة جريدة الاهرام وكوكب الشرق والجهاد ويتابع ما تكتبه صحف عربية عن قضية ليبيا .

مثل مجلة « الرابطة العربية » التي كان يصدرها أمين سعيد .

ومجلة «الفتح» لمحب الدين الخطيب، ومجلة «الشورى» لمحمد على الطاهر. ويقرأ عبد الله انبيه وامثاله من مثقفى ذلك المحيط ما كان يكتبه المهاجرون في بلاد الشام وغيرها ويسمعهم المقالات والاحتجاجات . ويطوى الجريدة أو المجلة ويتأبطها في حركة لا شعورية طيات فيها دقة ومحافظة حتى على اناقة الجريدة أو المجلة .

ويطوف بها على حلقات المهاجرين ودكاكينهم ليطلع هؤلاء على ما كتب أولئك البعيدون عن الوطن المحرومون منه ومن رؤياه ، ويطوف على اقدامه وأحيانا يتشعلق في الترام تراه حائسا — جائلا بالمتراس — عزبة باشا — الورديان — القبارى — المكس — رأس التين — سيدى جابر — وقد يذهب الى الدخيلة — وقد تمتد به الجولة وتطوح به المسيرة الى العامرية والحمام بالصحراء .

وكان يهتم كل الاهتمام بكل ما يتعلق بطرابلس عندما يقرأ الصحف السياسية والاخبارية ويحلل — ويقلب في مضامين الاخبار وفحوى التعاليق — ويتأمل ما وراء الاخبار في أواخر الثلاثينات — على ابواب الحرب . أو في أيام الحرب .

مواقف هتلر وموسليني . وتشمبرلين . وتشرشل ...

والحرب الاهلية الاسبانية كانت مستعرة الأوار ، ولا يهمه من كل قلاقل العالم الا بلده وموطنه ومتى ينزاح كابوس الطليان عن وطنه ويزول «الشبردق» والاسلاك الشائكة .ولم يكن في حياته يائسا رغم الحوالك والمهالك.

* * *

وهو دقيق في مشيته ، وسلوكه بحساب . دقيق في الحساب والحسبان في شرائه يفاصل عند الشراء بدافع الدقة والاتزان . أو بوضع الشىء في

مكانه بلا تبديد ولا إسراف هو يدقق في المليم والسانتيم والعشرة خردة — شأن الفقهاء أو غير الفقهاء من اهل الحرص على المنطق عند الحسبة والحسبان .

من اهل الاحتراس . ومن أهل الاحتراز من عوامل الأزمان كان يؤمن بحكمة — القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود — يوم أن كان القرش والمليم له صولة ورنين . — وله شنشنة . وشان..، يقف على عربة البائع المتجول ليشترى البادنجان والثوم ويبحث عند البقالين عن الجيد من الخل ليصنع من البادنجان والبطاطس شكلا من أشكال الطباهج على نار هادئة ؛ قد يكون موقد فحم صغير ، أو شريطا من ذؤابة تلتهب بالسبرتو . ويجيد صنع الطبق المفضل لديه . والمستطعم لمذاقه ويمزمز طبقه . ويتلمظ في هدوء وعزلة لا يشاركه الا فريد وجدى في دائرة المعارف . او كتاب عبد الرحمن السيوطى (الرحمة في الطب والحكمة)

وان كان السيوطى براء من هذه الاضافة وهذا العنوان براءة الذئب من دم ابن يعقوب أو براءة ابن الحاج العبدرى صاحب كتاب المدخل[؟] براءته من كتاب ابن الحاج في التسبيب والتنوشة والاحجبة .

* * *

وهو كشيخ في محيط عوام . واولاد بلد كان من طرف هؤلاء وألئك يقصد لكتابه حجاب..، اليس هويرونه « مغربيا » قادما من بلاد المغرب ، وكل قادم أو أصله من هناك ولو لهجة وزيا من الازياء هو في نظرهم ومعتقدهم قادر على فتح الكتاب . ولا بأس قد يكون باب بركة ومدد من الامداد .

وأعد لهذه التجربة المثيرة ، أو المفيدة .. المداد الاحمر والزعفران . والعفص . وانواع المستلزمات لكتابة الحجابات ونوعا من الورق مستطيلا مقوى . يطوى طيا . مثل أوراق الو ثائق والعقود في عهود ما قبل المماليك والزعاليك ،ودواة من نوع خاص وأقلاما كان يصر على ان تكون من البوص . يبريها بنفسه ، ويجلبها من قرب ترعة المحمودية . أو من نبات ينبت عند بحيرة أو مستنقع قرب منطقة المتراس تسمى الملاحة . ولا يكتب تلك

الوريقات بالأقلام العادية – ويظهر أن عالم سبوح وعالم الخفاء من أهل الوصل لهم مزاج خاص حتى في نوع الورق والحبر ولون النبات والأقلام البوصية والمداد . مدد . مدد يا فرد يا صمد قدوس سبوح(.. مع ملاحظة انه كعامل يومي أحياناً لا يجد عملاً في الشركة عدة أسابيع وأسابيع).

وهذه الملاحظة لم تدركها النسوة والفتيات المتلهفات والمتهافتات على ورقة الحجاب لجلب ما يجلب. أو مايستعصى على الجلبان،.. وثارت ثائرته مرة لأن خالتك بطة وبديعة ودلوعة والباتعة اعتدن وتعودن ان تستكتبنه حجابا لجلب العشيق الهاجر والحبيب العاطل . والدون جوان المماطل .. وغضب في انفعال . وكشر غاضبا . أو غضب مكشراً . مزمجرا – كثير هذا الالحاح في الطلب . هل أجلب لها رجلا بحجاب ؟

وما هدأت ثائرته الا بعد ان افهموه أنه لا يليق بشيخ أن يفضح العشيقة ومن ائتمنك على سر أمنه . وسيما اسرار القلوب واللهفة على المحبوب .. وامر الله بالستر في العشق وغير العشق –

وهو وان كان يكتب الحجاب « باعتباره فتى في ذلك الوسط » الا انه لم يكن يحترم هذه الظاهرة أو يعتمد في رزقه على ابن معشر « وابن الحاج» والديربي وأمثاله – بل هو عامل شريف . يقطر عرقه في وهج الشمس .. وترتعد اطراف اصابعه في زمهرير الشتاء . ويصحو باكراً ما طلعت عليه الشمس يوما وهو في فراشه (الا صباح عرسه بالطبع) .

هو عامل له يومية – وعفريتة – في شركة شل – والعفريتة للمعلومية ليس تأنيث عفريت . حفظك الله . وحصنتك بذى العزة والجبروت – بل هو اصطلاح يعنون به ما يرتديه العمال ويلبسونه على البذلة للوقاية من الاتساخ

بل يرى عمل الكتابة الحجابية من نوع العمل الانساني والاخذ بيد الناس وجبر الخواطر للتعبانين والتعيسات ومن نوع التوكل على الله .

وان كان يراه هذا الجانب من التطبيب بعض الدراسين بشكل ما من نوع العلاج النفسي ، وان كان هو قد رأى وشاهد بعضاً من أصحابه وبلدياته قد احترفوا هذا وافترشوا منديلاً من الرمل . واقتعدوا رصيفاً عند محافظة الاسكندرية أو ميدان المنشية ،يراهم عبدالله انبيه دجالين كذابين منافقين أفاقين منجمين بصارين شباحين — وكذب المنجمون ولو صدقوا — أى مصادفة . لاصدقوا حساً وعلماً عندما يربطون حظ الانسان بالفلك ويدعون الاطلاع على الغيب .

والغيب لا يعلمه الا الله والرزق بيد الله . يبسطه لمن يشاء . وانما هو شيء من الكتابة على سبيل البركة لا بأس أو فيه بأس خفيف .

* * *

وظل فترة عزبا يسكن فوق سطح احد المنازل بحى شعبي بمنطقة القبارى وظل يبحث عن نصف دينه أو ثلاثة أرباع دينه ووجدها وهتف بها ولا هتاف أرشميدس . الاغريقى عندما كان عريانا يستحم . ذلك الفيلسوف عندما حل المعضلة .. والشيخ هنا وجدها بنت بلد من صميم البلد السكندرى .

ثيب أرمل . لها بنت ،واشترطت عليه أن تكون معها ابنتها فهى على وشك زواج ستكون في البيت مع امها حتى تعثر على ابن الحلال وتجد البنت عريسا يؤويها وظل هو يبحث عن ابن الحلال لبنت خطيبته . ونصحوه بان يتزوج البنت العذراء بدل الأم الثيب سليطة اللسان وقال احد المتفلسفين من جيرانه وهو يحشو انفه ببقايا العلبة من السعوط :—

— احتمالان لا ثالث لهما . هذه المرأة المخطوبة لك أما أن يكون زوجها مات ودفنته وهذا معناه شئوم عليك قد تدفنك انت الرجل الثاني أو الرجل الثالث .

وأما أن يكون زوجها السابق حيا يرزق وطلقها للمناكفة وسلاطة اللسان وسوء المعشر وقد تكون بخراء أو خرقاء !هل جربتها أو سألت عنها يا شيخ عبد الله ؟

ولكنه في شهامة وفروسية رفض أن يتزوج البنت العذراء بعد أن خطب أمها . عيب.. قال ردا على الفيلسوف المستنشق للعطوس– أرغم الله معطسه–

– لا.. عيب . انا رجل يعرف الاصول ولا بد أن يتزوج من يجد عندها التكافل الاجتماعى أو التكامل الاجتماعى ، وكيف يأخذ ابنة في سن ابنته أو حفيدته ؟ لكل مقام مقال أو لكل مقال مقام .

أو كما قال الفيلسوف حاشى أنفه وحاشر نفسه . كل فولة مسوسة تلقى كيال أعور .اكد عبد الله ان المرأة المتكاملة السن والناضجة التجربة سيجد فيها الدفء ولديها الحنان .

* * *

ولم تكن في تلك الايام هناك ازمة سكن مستفحلة ، بل كانت تباع في دكاكين الخردوات والبقالة والمكتبات أوراق أعلانات بورق مصقول مقوى – وكتب عليها بخط أنيق جميل « شقة للايجار » أو « أوضة للايجار » .

هكذا شاهد الناس في تلك الايام ملصقات للاعلانات على شبابيك مداخل البيوت . شيء لا يصدقه ابناء هذه الاجيال في عصرنا الآن .. لكن كان موجودا – وايضا لم تكن هناك ازمة غلاء مستفحلة فاحشة .

واشرف على شراء الاثاث . والكنبة الاسلامبولى – والبورية والسرير بعسكرى – وليس هو عسكرى بشواربه ولباسه الرسمى وشريطه وشرائطه ولا هو من الكركون . تحريف قره قول ولا من القسم أو التن – كما تتعدد مصطلحاته في التسميات على مركز الشرطة. ولا هو عسكرى له صلة بالحاكم العسكرى ولا ابن عم أبو هلال العسكرى . انما هو عسكرى على قوائمه الاربع .

عسكرى من نحاس.. شيء كان منتشرا في أسرة تلك الايام من جهاز العروس ولكل عصر أنماط وأشكال حتى وصلوا الآن الى السرير الدائرى الهزاز .

وكان السرير بعسكرى في كل عمود من أعمدته الاربعة يرتكز تمثالاً صغيرا نحاسيا لحضرة العسكرى – تحصنت بالله –.

وشغل الفقيه عبد الله بالزواج . فكان مهموما ، أو مهتما مشغولا ، أو منشغلاً بتأثيث البيت .

وكانت زوجته سمينة بدينة أضخم من جاموسة وان كانت أرجلها أضخم من الفيل قد لا تجد خلخالا يلائم ساقها .

فكان لا بد من تفصيله عند الصائغ والتوصية عليه خلخال فضة بجلاجل .
ومقياس الجمال في هاتيك الفترات الغوابر الدوابر في الاحياء الشعبية هو السمنة .

كانت تجيد صنع القهوة التركية على النار الهادئة في بكرج من طراز العثمانيين . والطعام البلدى من المفتقة الى الفتة الى الويكا . ومن طعام البورسعيدى الى طعام أهل اسوان ورشيد وناهيك ببصارة الاسكندرية والبساريا والتفنن في تفصيص ام الخلول . وكانت حياتهم من الناحية العائلية (عسل على الطحينة)باسلوب الامثال الشعبية واجتمع الاقتصاديان في المصروف

هل تذكر المثل الفصيح «وافق شن طبقة» أو المثل الدارج في طرابلس «داقرة ولقت مغطاها» ؟ وكانت مباراة في الاقتصاد المنزلي بين الشيخ وزوجته رغم سمنها فهي اقتصادية حريصة إلى درجة أنه اشتكى من هذا التقتير والتقطير . وربما توفر من المصروف للغد البعيد لها هي لا له هو .

وكانت حريصة على الهدوء، لأن من عادة الشيخ الفقيه أن يهجع هجعة القيلولة .. وطنة ذبابة هائجة أو عركة بعوضة ماجنة وهبشة ناموسة شريدة تصحيه توقظه . فأنفه واذنه رغم غطيطه أو شروعه في الغطيط يسجل ذبذبات الذباب ، ويتلقط طنين البعوض وظنينه! فما بالك بصراخ الصغار وهبد الجيران وطق الحصى وطقطقة القبقاب واصطفاق الباب ورنين المهراس و نهيق حمار يهابش اتان ؟!

فكانت تطلب من اطفال الحى مغرية متوسلة راجية متعطفة أو راشية ومهددة بكل الوسائل تطلب منهم وهم اهل الصخب ان يهدأوا وهل هناك في الدنيا قديما وحديثا اكثر من عناد الاطفال ومعاكستهم . في أى قطر أو حى وتعاني من شقاوة الاطفال ما تعاني ؟

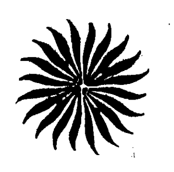
وتقع هى في حيص بيص . وان كانت عمرها ما سمعت ولا عرفت حيص بيص ماهو ؟؟ تحتار — اغلاق الشباك قد يخنق أنفاسه ويكتم صدره الضيق. وفتح الشباك يجلب له الجلبة. ، مشكلة مزدوجة اخذت الكثير من الجهد والوقت . ومحايلة الاطفال ورشوتهم ولو بمعسول الكلام ،وتعلن ساعات الخطر عند نومه وتكاد ان تضع الراية السوداء التي توضع عند هيجان البحر وعواصف البحر .. خطر الاقتراب .

والويل لها إن استيقظ قبل أن يأخذ قسطه المعتاد أو لم يرتح في نومته وكانت الزوجة تحمل كتب الشيخ في احترام شديد لانها كتب علم مقدسة وقد يكون بينها — وهى لا تدرى — كتب عنترة وسيرة ولاد هلال او ابو معشر ورجوع الشيخ ولم يرتح الشيخ الا عندما زف ابنتها الى أول خاطب طرق الباب وفاتح في الموضوع . لبوا طلب طالب اليد صونا لها واخراسا للالسنة . والعيون الفضولية وقطعا للوساوس والهواجس ،فقد تكاثر حومان الشباب حول الشباك والباب وهو متضايق من هذه العيون . والبصبصة غير الشرعية ! !

واسرع بتزويجها حتى يوفر مصروفا آخر ، وأقلع الشيخ بفضل زوجته عن شيء كان يحتسيه بين الفينة والفينة ذلك الشراب المر من عصير رخيص كان يشربه في سرية تامة ولا يستطيع ان يرتاد اماكنه العامة . كان يجلبه في سرية تامة من حانة في طرف حى المنشية . يوناني عتيق . يلف له الزجاجة في ورقة جرنال ويصر على أن تكون ورقة جرنال بحروف أجنبية رومية يلف بها العصير ولا يليق أن يلف زجاجة العصير في ورقة بها حروف عربية . منها يتركب كلام مقدس . عيب حرام ! !

ويجلس وحده محتسيا بضع جرعات . مع ألوان من المزة التى يتمزمز بها على مهل مع دندنة . ترتفع الى طنطنة .

وعندما شعر به بعض العمال – ومن مواطنيه – وسرت إشاعة ،وغدت في المحيط ذائعة.. واخبار السوء دائما رائجة .انه يحتسى بنت العناقيد ولكنهم كفوا عن الحديث والهمهمة عندما اقلع هو عن هذا وتاب واناب بل كان من العاملين على توبة بعض العمال بعد أن مر بهذه التجربة التى كان يلعنها عندما يذكرها بينه وبين نفسه أو بعض الصحاب .



حاسر الرأس

فارس ينفي نفسه





كنت مطاردا مـن طرف السلطات الانجليزيـة التى كانـت تحكم طرابلس ، وفي يوم خروجى من السجن ابعدت الى بلدة نائية وصحبنى من باب السجن في السيارة أحد ضباط شرطة الانجليز ووضعنى هناك في قصر قديم ، أى مبنى حكومى قديم ، ووجدت هناك قد سبقنى أربعة أو خمسة من الذين طوحت بهم السلطات الحاكمة هناك ، كان ذلك بحجة زيارة الملك السابق لطرابلس وكنت في هذه البلدة اياما أتأمل وأقرأ.. ولفنا صمت ، ولكن في النفوس غليان .

ورأيت هذا النموذج هناك .

استرعى انتباهى اكثر من شيء .

أنه من أهل البلدة مقيم في بلدته هناك ، لكنه يلفت النظر ويثير الانتباه

شكله مثل وجوه تماثيل الاغريق بازميل النحاتين ،مثل حكماء العرب وفلاسفتهم بتصورات وريشة الرسامين .

وجه صبوح فيه فيض الايمان واشراقة التصوف وشفافية النفس ، ونظراته قوية ، ولكنها لست نظرات القوة وطغيان الحس رغم تكاثر

السنين وتثاقل العهود واشتعال المشيب لم يتجعد له جبين ، ولم يتكرمش له وجه ، ولم يتقوس له ظهر .

ونفس مفتوحة، وصدر منشرح، صدر مفتوح ، من فتحة القميص ، ومفتوح من فتحة النفس في أنشراح .

يظهر فيه الشعر الناصع كزرع أبيض والقميص أيضا أبيض، واسع الاكمام فضفاض،أيضا فضفضة النفس، وفضفضة الحس، وصوت جهورى صاف ، فيه رنة مع القوة والتهدج . رقة ولكنها ليست رقة الانسياب بل هى من الذبذبات الصوتية التى هى مثل الالوان ، الشعور بها ، والاحساس بها ، والارتياح اليها ، لا تضبطه هندسة الكلمات في وصفه .

صوت رائع ، والروعة معانيها واسعة لكنها في دائرة الاعجاب والتقدير . صوت في نبراته شيء يشدك اليه .. لو تملكه أحد هواة الطرب وشداة الفن ، لشق به في غير مشقة طريق المجد الفنى وضرب به في سوق الغناء بعض المطربين المحترفين أو المنحرفين،وبين الاحتراف والانحراف حروف تتزحلق .

عندما تلمحه تلمس فيه سمت الوقار وتشعر نحوه لأول وهلة بالاحترام .

وكنت في السوق بتلك البلدة الصخرية التى تحيط بها من بعيد صخور جرداء قال علماء الجيولوجيا : أنها من تفاعل البراكين منذ ملايين السنين .

وكنت اتجول وقد سمح لى الحارس وهو الضابط بشلطة حديدية في تلك الآونة — ب . ع — بأن اتجول رغم تحذير رئيسه الضابط الانجليزى وقد حدد الامتار والاقدام التى اسير فيها في القرية شمالا وجنوبا، خوف الاختفاء أو الفرار أو الاتصال بالناس .

وكان الرجل العجوز جالساً في دكان — رومانتيكي — أو هو يصلح منظراً سياحياً فلكلوريا — أي الدكان — أشبه ما يكون بدكاكين الصاغة القديمة .

قبل ان تفسدها معاول التهديم من أوربا واصباغ « الديكورات » والموديلات الحديثة . مثل تلك الدكاكين قبل تطورها، أو سخطها وتقولبها في واجهات زجاجية من صناعة غربية .

واسترعى النظر .. وأثار الانتباه، ومال العنق لذلك الاتجاه وبهمهة، داخلية في النفس دار سؤال :

ماذا يصنـــع ؟

ماذا يبيع ؟

وتأملته لحظة وامضة مشحونة .

ويبدو أن الصورة في العقل الباطن — أو العقل الخازن — لها مثيل من المرئيات ، أو من المقروءات والمرويات .

ولحظة في علم النسبية ، أو عالم النسبة تعد بآلاف الومضات والإضاءات والشحنات ،لحظة مقدارها الزمني أكثر من العد العادي والحسبان . وتأملت، لحظة تركيز رغم تماوج عوامل الدهشة والاستغراب ، في شكله ومظهره الخارجي كأنه شيخ قادم من وادي الأساطير . في ملابسه ، وزيه واتكاءته ، بكل الملامح والغضون ، ولكن ما أمامه ؟ ما هي هذه الأدوات والأشياء ؟

أشياء مثل برارید ، أو آلات (سمكري) عربي .

وآلة وأوان بها رماد وجمر غير ملتهب الأوار .

وكير صغير ، لعله (ميكانيكي) في قرية صحراوية نائية .

والرجل العجوز الوقور ليس مكانه هنا ، ليس هذا موضعه، ويقول قدامى اللغويين والنحاة،عند التساؤل والاستغراب،ما محله من الإعراب !؟

لكن هكذا بقي هنا .

وزادت الدهشة ، وتوامضت اللحظات .

وفي سرعة تكهرب خيط الانتباه، ووجد مساعدة على الانتشال من وهلة الحيرة والارتباك ، ومعرفة المحل من الإعراب في لحظة أقل من رمشة العين تماوجت أحاسيس الحيرة والدهشة ، وسرعة الالتفات والانتباه .

لقد سمعت صوته من داخل دكانه ، ورأيته يلوح بيده هاتفاً باسمي .

— أوه .. مصراتي .. مصراتي .

وما أحب إلى النفس أن تسمع اسمك وأنت في قرية نائية ، مبعداً ، منفياً ، مغضوباً عليك من السلطات .

من غير انتظار ومفاجأة طيبة ، تسمع من يهتف باسمك وتكون معك جماعة من الزملاء تسمع ، أو من أهل البلاد تشعر بحنين يهــزك ، ولو كنت أزهد الزاهدين في الحياة ، سمها ما شئت من النعوت والأسماء والصفات .

غرور ، زهو ، طفولة ، اعتزاز ، سواء هذا أم ذاك . أو كل هذا معجوناً لدى الإنسان هي طبيعة البشر ، غرور الإنسان بنفسه ، أو الاعتزاز .

وحب التشبث بالحياة أو خميرة التكبر — عافاك الله — أو الشعور بالوجود — أعزك الله .

لا تهمني تحليلات العلماء ، وتأويلات فلاسفة الأجواء النفسية . لن نجلس إلى محلل نفسي من أجل هذه اللحظة التي اشرأب فيها العنق اعتزازاً في قرية كانت منفى، وارتفع الأنف شموخاً وطموحاً عندما سمع منادياً باسمه .

لن نستفتي ادلر ، تلميذ فرويد وان نتعب الفلاسفة والمتفلسفين .لقد فرحت ، بل شمخت ، بل كاد أن يداخلني غرور أهل الغرور ، ولو لحظة عابرة في هزة نفسية .

لا تهمني هنا على الأقل – تحليلات أو تخيلات العلماء وأساتذة الأجواء النفسية .

لقد هزني الفرح ، ففرحت ، وجدت من يهتف باسمي وينادي في قرية بعيدة ، أنا المبعد المنفى .

فهل تلوم بعض الزعماء في دهاليز التاريخ وعتباته وعتماته عندما يدغدغهم طوفان الهتاف ، وأمواج المناداة الصاخبة ؟! إنه الإنسان ، إنه الإنسان ، الحمد لله ، طمأنينة النفس على موانىء المتاعب وشطوط الآلام الناس ما زالت تذكره باسمه . الحمد لله كثيراً ، ودام خيره وفيراً ، وشهور السجن نسيناها ، ها هو انسان يذكرني ، ومضت اللحظة المشحونة بألوان من بهجة الإحساس والتعبير .

شيخ كان في سن والدي – (وقد عاش والدي مايقارب الثمانين) .

ومد الرجل يده ، ودمعت عيناه .

حقيقة .. لا مبالغة ولا مجازاً .

وما أعز دمع الشيوخ !!

ما السبب ؟ وتوالت لحظات الحيرة والاندهاش .

لعن الله الاستعمار .

انت منفي مطوح هنا بإرادتهم .

ثم قال في نبرة فيها هدوء :

لكن – آنا – وخبط صدره بيده – أو خبط يده على صدره –

انا منفي هنا بإرادتي .. نفيت نفسي هنا

كان حاسر الرأس .

(وكان المجتمع في ليبيا لا يزال في أوائل الخمسينات لا يسمح بأن يكون الانسان المحترم حاسر الرأس .. خاصة في مثل سنه) .

عيب ومنقصة ، ولا تقبل شهادة حاسر الرأس في الأسواق .

فكيف كان هذا ؟؟؟ عجباً

ولهذا قصة ، انه آثر ان يكون هنا في هذه القرية النائية في جوف الصحراء — ورأسه حاسر ، لا يريد ان يرى وجه مستعمر ،لا يريد أن يغطى رأسه إلا بعد ان تستقل البلاد .

ولهذا أيضاً قصة ،، رواها لي .

ورواها أهل القرية ، وطواها الزمن فيما طوى من قصص واقعية وحكايات مروية في ضمير الزمن وصدره الواسع . وغدا ؛ وأصبح وأمسى ، بشكله وهيئته من معالم تلك القرية الصحراوية .

كان منذ سنوات بعيدة — وهو في عنفوان شبابه وصبوته النفسية يرتدي لباس الرأس (الطربوش الأحمر القاني) الذي اشتهر وتدوول استعماله في طرابلس كزي قومي للرأس ، زي الزر أو الذؤابة السوداء الحريرية الطويلة ، المتأرجحة على القفا كبندول الساعة الحائطية الكبيرة .

بقي هذا الغطاء الرأسي من آثار التقاء آسيا وبلاد القوقاز بافريقيا وسواحلها ، التقاء أو تأثر بالزي والمطاعم ، وايضاً مزج ببعض الملامح والسحنات ، وعصفت أمواج الحياة بالكثير .

وتماوجت في خضم الحياة مختلطة بعض العادات والتقاليد ، لهجة ، أو زياً من الأزياء أو مطعماً ومشرباً .

وتكسرت على الشواطئ ألواح القراصنة وضاعت أقدام الطغاة والولاة .

وصدئت النياشين وتوارت ألقاب السلاطين .

وبقي لون من ألوان التأثر في الزي .

الطربوش القاني الأحمر ذو الذؤابة المتراقصة المسماة «بسكل» ،

وكان يطلق عليها في أجياله ايضاً كلمة انقرضت (طاقية حرة).

ترى هل في المصطلحات والطواقي طبقات وفئات

حتى في الطواقي أحرار وعبيد ؟

هذا الطربوش الذي يقولون عنه في الشرق (طربوش مغربي) ولم يكن بدعة من المغرب ، ولكنه نوع من اختلاط المسميات والإطلاقات .

وهو ايضاً طربوش كان يلبسه محمد علي باشا – وابراهيم باشا – والذي أصبح الآن من لباس الفلكلور . والرقصات الشعبية – أو لباس (الفنطزية) و (الويك اند) عند بعض أصحاب الوجاهة واليسار (اليسار من يسر الحال لا من اتجاه اليسار) أو لباس السفراء في تقديم أوراق الاعتماد لأصحاب الجلالة والسلطنة والتسلطن كمظهر من مظاهر التمشرق والتشرف .

وقد كان الطربوش في بلاد اليونان فترة من الفترات زياً من الأشكال في إعلانات المشروبات الروحية اليونانية .

* * *

وحكى حكايته نافضاً غبار الذكريات ، ناظراً إلى الأفق البعيد . كان يمشي في لباسه يتأرجح زر طربوشه على عنقه وكتفيه ، وقد يلفت نظر بعض الأوانس والعوانس وأصحاب الكواعب والمتكعبلات .

كان الرجل في فتوته وصبوته جميل الطلعة ، أنيق المظهر غريب الزي في نظر بعض الأورباويين ، ملفتاً لنظرهم مثيراً لدفائن أحقادهم .

كان يتجول في هذه الشوارع .

وكان محرماً على المواطنين المسلمين العرب ان يتجولوا في شوارع رئيسية ، في مدينتهم .

حرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس .

وكان من الشوارع الممنوعة عليهم شوارع العزيزية – الاستقلال – الذي أطلق عليه الطليان فيكتور عمانوئيل .

كان في شوارع العزيزية يتمخطر ، متذكراً دخلة فرسان رمضان السويحلي – والباروني – وجيش الجمهورية الطرابلسية في مدينة طرابلس .

– يا حسرة على أيام الشباب !!

ثم شاهده جنود معربدون من الطليان من ذوي القمصان السود . وقد تكون نفسيتهم مثل لون قمصانهم ، صبغة فاشستية ، وقرقروا ، وقهقهوا ، وامتدت أصابعهم العابثة ، وخطفوا طربوشه من فوق رأسه .

لحظة ماجنة من سكرة المجد أو سكرة الطغيان على أشلاء الضعاف .

وغضب الرجل ووقف في وسطهم مزمجراً .

وضاع صوته في جلبة سخريتهم .

وأقسم معاهداً ربه ووطنه أن لا يلبس غطاء للرأس ما دام جنود الاستعمار يطأون بأحذيتهم الثقيلة تراب الوطن ، ويهينون قدسية بلاده .

ومرت سنون ، وبر بوعده .

وأضاف اليه وعداً آكداً ، وعهداً قاطعاً ...

أن يذهب بعيداً متوارياً عن رؤية الوجوه الحالكة ، يذهب نافياً نفسه في قرية بعيدة متوارية نائية لئلا تقع عيناه على وجه حاكم من جنسهم ، أو جندي من معربدي الطليان وأحلاسهم .

واختار هذه القرية

وهذا ما كان ، من–ع–ح وظل هكذا من أواخر العشرينات حتى عام

١٩٥١ م حيث كنت مبعداً من طرف الإنجليز منفياً هناك ، كما أشرت، عندما أخرجوني من سجن (بورتابنيتو) إلى هذه الناحية .

وكان له ولد ورث شكله وقامته ، وكانت قبضته قوية ولكمته عنيفة .

وهبه لأن يكون ملاكماً رياضياً عرفته أندية المدينة في العهد الإيطالي ملاكماً ممتازاً .

واشترط عليه والده ان يلاكم الطليان بقوة .

أن ينازلهم بعنف ، بلا هوادة .

أن يثأر للصفعة التي حزت في أعماق نفسه أن ينتقم منهم رياضياً .

أن يهشم أسنانهم ، وأن تنتفخ عيونهم ويصيبهم باللكمات في جباههم . في ساحة الملاكمة . وإن كان باراً بوالده — لا بأس ان تصوب الضربات ايضاً اليهم حتى خارج ساحة الملاكمة .

وكان الولد قد وجد في أنوف بعض الطليان نماذج وساحة للملاكمة ولتدريب قبضته القوية ، وكان عندما يصوب لكمته يهمهم بكلمة وعبارة لا يفهمها ويستبين نغمتها المضروب على أنفه ، أو المضروب على عينه ، ولكن الكلمة والعبارة التي كانت سهلة الإيقاع رامزة لمعنى ، هي عبارة موجزة ، تنطلق قذيفة لاهبة :

* يا رضا الوالدين .

وا ستمد من والديه معنوية في نفسه وقوة في قبضته .

ورأيت ولده العملاق في طرابلس منذ سنوات وقد اكتسب شهرة في مجال الرياضة ،وكان من أشهر الملاكمين في الساحة وشعاره كلمة « تحيتهم بينهم ضرب وجيع ».

وحييته من بعيد .. رغم أنه رقيق الحس ، مرهف النفس رغم جلافة

يده ، وعنف قبضته ، وشكله المشاكس المظهري ، ثم اختفى هذا الملاكم أين ؟؟؟

لا أدري ؟ ولا المنجم يدري ؟؟؟

ولم أسأله عن أبيه ، وفاتني ذلك .

وما أكثر ما فاتني من فوات ؟

وطواه الزمن .

نموذج لرجل بر بوعده ، وغضب لبلده ، واحتج احتجاج العزوف في ظروف الاستبداد والطغيان ، وآثر أن يلقي نفسه في زحام الحياة .

ضاع في دربها ، تاه في كثبان الزمن .

لا زالت صورته متمثلة في ذهني بعد سنوات طوال ، بثوبه الأبيض ، الفضفاض ، المفهاف ، وأكمامه الواسعة ونظراته الحادة اللامعة .

صوته الجهوري ، وجهه المشرب بالحمرة والبياض ، صدره الرحب .

كيف كان يعيش في دكانه الصغير ، ذى المترين طولاً ، والنصف عرضاً ؟ كم كان يكسب ؟ كيف ؟

لا أحد يعلم .

ولم أسأله أسئلة منوعة في لقائنا اليتيم في ذلك المكان البعيد ، والزمن البعيد بل في حديثي معه في ذلك اللقاء حصرت الموضوع في الحديث عن الوطن والوطنية ، والاستعمار اللعين ، والمستعمرين اللعناء ، والأمل في مستقبل الأجيال المقبلة .

وعندما أفرج عنا وجاءت سيارة الشرطة الانجليزية لتحملنا إلى طرابلس آثرت أن أودعه وجدته هو ايضاً يسعى الينا ، جاء ليودعنا ، هذا العجوز

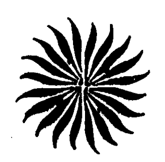
المتدفق نشاطاً وحيوية، ولوح بيده في بسمة أمل بصوته المتهدج الملآن ثقة .. وقوة وإيماناً .

سأغطي رأسي ، وأذهب إلى مدينة طرابلس بعد أن يزول الاستعمار . ولم أره من يومها .. ولكن صورته محفورة في ذهني

شخصية في الظل ..

وبعد سنوات ، سألت عن ولده .

انه بدل الملاكمة احترف حراسة (الكباريهات) الملاهي الليلية ، كان قد استغل قوته وضخامته صاحب ملهى أجني ليحرس أصحاب الملهى ، يحد من عربدة المعربدين ، وكانت مفارقة من مفارقات أعاجيب الزمن .



محمد علي الحداد

مناضل بالأزميل.. والقلم







في فترة الثلاثينات من مطلع هذا القرن كان هناك شاب من طرابلس الغرب مثقف كاتب يهتم بقضية وطنه . مهاجر جوالة ، متنقل في ربوع المشرق العربي والعالم الاسلامى .

فصيح اللسان . قوى الحجة صادق الوجدان . سريع الحركة عصبى المزاج نارى الكلمات . يتردد على الصحف والمجلات والجمعيات والأندية كان همه ما ارتكز في بؤرة شعوره ومشاعره قضية بلده وكشف صنائع الاستعمار الايطالى .

* ذلك هو محمد على الحداد

الذى عاش في بغداد فترة طويلة من هجرته . وفي بلاد الشام ، ومصر وفلسطين وتركيا ، يتعرف على كبار الشخصيات السياسية ويكتب المذكرات والمقالات شارحاً قضية طرابلس الغرب فاضحا اساليب الاستعمار الفاشى وامبراطورية الرومان المعاصرة .

زاده قلمه ، ووقوده ايمانه ، وثقته بعدالة قضيته ، وهناك جانب آخر لم يكن لدى المناضلين من المهاجرين امثاله .. أنه فنان رسام . يرسم اللوحة على القماش والورق ، ويحفرها على الخشب فتخرج من اصابعه تحفة انيقة

رقيقة . تكاد أن تحرك شفتيها وتنطق ، سيما في رسم الشخصيات وملامح الوجوه وفي الفن العربي والاثاث الشرقي كان إزميله ينحت ويحفر ويبرز قطعاً فنية تزين الردهات ، ويتهافت عليها أصحاب الترف والريش والرياش .

وكل ما يكسبه من التدريس ، أو الفن والرسم ينفقه على نشر المقالات والدعوة لقضية بلده ، وطبع وتوزيع الرسائل السياسية . وأخيراً بعد طول تطواف وتطوح القى عصا التسيار في اسطامبول ثم انقطعت أخباره ، وطويت صفحته وتناثرت أوراقه وضاع تراثه .

مع أنه كان شيئاً ذا أهمية في تاريخ الحركة السياسية والنضالية ولم يبق منه الا كتابه الذى نشر ومقالاته المبعثرة في بطون الصحف وصورته التى في صدارة الكتاب أو بضع صور أخرى مع صديقه وزميل مهجره سليمان الباروني في بغداد عندما كان كثير التردد عليه كثير الاعجاب بـــه ، عميق الوفاء له .

وكتاب محمد على الحداد « حاضر طرابلس غرب » كان قد خطط له على أن يوالي صدوره في اجزاء متوالية ، وحلقات متتابعة ، لكن رغم الإعداد والتخطيط له لم يخرج منه الا جزء واحد فريد يتيم غير قزون . شاهد أهل بغداد ذلك الشاب المتوثب يحمل أوراقه و (بروفات) تجارب الطباعة في لهفة وحماس الى مطبعة الجزيرة عام ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م — ومعه صور بلاده ليجعل على الغلاف قلعة طرابلس السراى الحمراء ثم خريطة لطرابلس وخريطة لبرقة وأشار في كتابه الى أن تعداد الشعب كان قبل الغزو الايطالى نحو مليون ونصف من العرب المسلمين فهبط الآن — ١٩٣٧— الى نحو ٧٠٠,٠٠٠ السبعمائة الف .

إنها الحرب والجهاد — والفتن المتوالية ، والظروف المدلهمة والهجرة — هجرة أهل ليبيا — الى بلاد الاسلام والعرب التى استوعبت ما يزيد على ١٢٠,٠٠٠ مائة وعشرين الفاً .

وعندما قام بزيارة لوطنه مستطلعاً أحواله ، بعد أن نشرت الوعود والعهود ولوحوا بالاماني الكواذب .. هاله الامر وصدم، وكانت الفاجعة أكبر مما يتصور ،والكارثة أعمق مما يقدر !لقد شاهد عن كثب أحوال الشعب وتألم من الاستعمار ومكر وتزلف العملاء وسجل جوانب من هذا في كتابه الذي يعد وثيقة صادقة من الوثائق التاريخية لذلك العهد الغابر وتلك الفترة القاتمة .عندما زار وطنه طرابلس كان تعداد المواطنين ٤٥ الف عربي مسلم ، ١٥ الف يهودي . ٣٠ الف ايطالي من المستعمرين المعمرين . وهو يسطر في كتابه ، وقد كان شاهد عيان — وما شاهد كمن سمع . سفر تتجلى فيه حالة طرابلس الغرب المكبلة بسلاسل الاستعمار الايطالي الجائر كما تتجلى فيه أخدوعة المستعمرين الذين يخدعون العرب بمواعيد عرقوبية ، ومظاهر براقة . وانهم لقوم خاسرون ! .

وبعد أن شاهد وعاين الحقيقة عزم على أن ينشر كتابه على العالم الاسلامي ليعرف ما كانت تعانيه طرابلس ، تلك القطعة الغالية والأمة المجاهدة التي قيدها الاستعمار بالحديد والنار .ونقل محمد على الحداد الى العالم الاسلامي والعربي صحيح الاخبار وصادق المرويات وواقع الحال آنذاك .

وكان مثقفا وفنانا موهوباً . وليست قدرته في اصابعه فقطبل من وراء الاصابع حس مرهف ومقدرة فنية عرفتها المعارض الفنية التي اقامها ، والصور التي رسمها واللوحات التي حفرها . وهي مع هذا وقبله وبعده — تدل على كاتب سياسي من رعيل الوطنيين الاحرار . كان يجيد اللغة العربية ويبدو أنه تثقف بالمدارس التركية كما عرف الانجليزية والايطالية والفرنسية ، وهو في كتابته كان لا يعتمد على فيض الاحاسيس فقط بل ينقل عند اللزوم من المؤلفات التاريخية التركية ومن كتب اجنبية مثل — مز — ماس به رو — في تاريخ الاقوام الشرقية القديمة وتاريخ — دروتي العمومي — وكتاب افريقيا — لمسيو لانيه ، وعن كتاب — حسن صافي التركي. كان في هجرته حركة دائبة — ولكن حدثت حرب الحبشة — وهادن قليلا — ليذهب ويرى أثر

هذه الوعود التي قطعها الطليان ونصحه بعض زملائه الأحرار ألا يذهب . وخشوا عليه ولكنه أراد أن يجرب ويشاهد .

هل هناك أمل في خطوات اصلاح ؟ أو منافذ ومسارب للحرية . أو تهريب الحرية — في عام ١٩٣٥م غزت ايطاليا أرض الحبشة ، وساقت اكراها وارغاماً مجندين ليبيين زيادة عن عشرين الف مجند وزعمت أبواقها أنها بعد الانتهاء من حرب الحبشة ستعطيهم الحرية وتعلن في ليبيا العفو العام . وتعيد الاملاك المصادرة — وكان محمد على الحداد آنذاك في عاصمة العراق ينشر مذكراته ومقالاته على صفحات الجرائد ويرسل بها الى دمشق . كانت مذكراته هذه تبحث عن جهاد طرابلس الغرب من أجل الحرية ومطالب الشعب وتكاثرت الوعود من طرف الطليان وتناثرت العهود وبوارق أو مخادعات الآمال .

وفي شهر يناير ١٩٣٦ م قال الوزير المفوض الإيطالي في بغداد لمحمد علي الحداد : إن سعادة وزير المستعمرات الإيطالية السنيور — ليسونا — يطلب منكم أن تكفوا عن النشريات والتعليقات والنشاط الصحفي حتى تنتهي حرب الحبشة فإذا انتصرت حكومة إيطاليا تعطي طرابلس حريتها ، وتنال المطالب القومية .

وهناك جانب له أهميته ، ومجهول للناس . شيء مثير إثارة الاعجاب.. إنه فنان ولديه قضية فنية. كان له مطلب فنى .. شيء فنى يريد تسجيله ولكن ربط ذلك بالمطلب القومى والوطنى .. إنه في سبيل وطنه وتحقيق مبادىء الحرية يسجل هذا ويتنازل عن ذلك الحق الفنى .. إنه بذل وتضحية وقد وعده الوزير عن طريق السفير — أن الحكومة الايطالية ستنظر في قضيتكم الفنية ، وهى — أى القضية الفنية — لم يحدثنا محمد على الحداد عن تفصيلاتها ، فلعله شيء ذو أهمية لعله مع قبيل تسجيل الاختراعات والاكتشافات ... ما هو ؟ لا أحد يدرى ذلك السر الغامض المطوى .

إلاأنة قال ملمحاً ببعض الخيوط (هى قضية فنية شخصية كنت قد طلبت تسجيلها في ايطاليا وترك حق الامتياز لهم ضمن الممالك الايطالية مقابل وضع وقبول قانون لطرابلس يضمن لهذا القطر العربي جميع الحقوق المدنية والسياسية) .

هذه اشارة ونص ذو أهمية ،ودلالة أو أكثر من دلالة لكن هناك نواقص وبواتر في الموضوع ،ليته تكلم عن هذه القضية الفنية بالتفصيل !لقد وعد ولكن لم نعثر على تفصيل ذلك .. لكن يهمنا دوافعه ومن أجل بلاده .. وانخداع بسراب المواعيد توقف مؤقتاً ولفترة عن الكتابة والتزم السكوت مدة الحرب الايطالية الحبشية .

واستولت ايطاليا على الحبشة . ولكن لم تف ايطاليا بوعودها لطرابلس وهنا ثارت ثائرته ، وعاد محمد على الحداد يطالب روما والمفوضيات الايطالية بتحقيق تلك الوعود التى نشروها بشأنمزاعمهم في قضية الاصلاح ورفع أو تخفيف الكابوس الاستعمارى عن ليبيا واعادة الحرية أو نوع من الحرية للشعب ، ولكن الطليان قالوا له :—

— ارجعوا لطرابلس وأثبتوا حسن نيتكم . وهناك فرصة لديكم سيزور موسلينى طرابلس وعلى يديه سترون ما انتم تطلبون . ويعود الى طرابلس وهو المهاجر المناضل ... كيف ؟؟؟؟

هل يفسر هذا بانه ارتمى في احضان ايطاليا واستسلم للاستعمار ؟ لقد سأل أصحابه واستشار اصدقاءه وإخوانه في بغداد ودمشق والقاهرة وتونس وبلاد العرب من المهاجرين والاصدقاء — وشجعه بعض هؤلاء — وخاصة في القاهرة بعد وصولـه اليها — كـان متردداً في تصديق حسن نوايـا ايطاليا وقال له بعضهم — عد لبلادك واخدمها هناك ولا تخش شيئاً .. واستقال من عمله في بغداد .

وعاد الى طرابلس — وفي طريقه توجه الى مصر وأقام خمسة عشر يوماً ضيفاً في بيت الاستاذ عبد الرحمن عزام في حلوان ثم توجه الى الاسكندرية

ومنها الى طرابلس – وقبل أن يتوجه الى طرابلس باعتباره فنانا ونحاتا على الخشب ،وتعبيراً عن شكره للعراق واستضافة العراق له قدم للملك غازى هدية رمزية رسم صورته التى نحتها على اللوح وقابل محمد على الحداد غازى – ولم ينس محمد الحداد موقف الزعيم العراقي ياسين باشا .

وكان له أيضاً خصوم يكيدون له في تركيا وسوريا لانه عربي قومى وحاولوا أن يجعلوا منه داعية للاستعمار . ولكنه ظل قلما شريفاً مناضلا . عاد الى طرابلس بعد مرور سبعة عشر عاماً على خروجه منها مهاجرا فقد خرج من طرابلس عام ١٩٢٠م – وظل ينتقل بين مصر وسوريا والعراق وتركيا وفلسطين الخ ... هبط مدينة طرابلس في اوائل أغسطس ١٩٣٦م وخرج منها في – ١٧ – أغسطس ١٩٣٧م .

أى مكث عاما كاملا في طرابلس ، وكان في بادىء المرحلة الانتظارية جانحاً للتفاؤل ، وان كان تفاؤلا على حذر ، وتم لقاء ودار حديث بينه وبين نائب الحاكم الايطالى العام السنيور (بروني) بشأن قضية الوطن بطرابلس ، وكان لحديثه ولقائه أثره بين فئات الشعب .. ترى هل هو الغارق الذى يتمسك بقشة ؟؟؟ مواطن عربي يناقش مسئولا ايطاليا . في فترة حالكة كتمت فيها الانفاس وأغلقت النوافذ وسدت الأبواب برتاج صفيق .

كان يريد أن يذكر ويسجل كل هذا الحوار والصعوبات التى لقيها والجهود التى بذلها في اجزاء تالية من كتابه (حاضر طرابلس) ولكن لم تسمح الظروف بطبع بقية الاجزاء .

وتوارى وفي صدره وأوراقه أشياء وأشياء . وفي ثنايا كتابه سجل صوراً من وضع طرابلس في تلك الحقبة ، وتألب حزب الاستعمار عليه والمعمرون الطليان – والفئات الفاسدة من المتطلينين والجواسيس والاتباع .

بل كتب بعضهم مضابط وعرائض وجهوها الى الحكومة الايطالية طالبين عدم توظيف محمد على الحداد في مدرسة الصنائع الاسلامية . فقد

كان هناك اتجاه الى تعينه مسئولا عن مدرسة الفنون والصنائع الاسلامية. ويذكر في كتابه بمرارة ب . غ وغيره . بل نشطت مجموعة من المحتمين بالطليان طالبين عدم السماح للاهالى بالاتصال به وتحذيرهم من نشاطه إنه كاتب مثقف وسياسى مهاجر ، ووطنى متحمس عائد ، إنه في ريعان شبابه يتدفق حيوية ووطنية . هذا المهاجر العائد من وادى النيل ، وشط الفرات ودجلة ، ينشر الوعى في دكانه الصغير ومنتداه الادبي والفنى. عملوا على محاصرته وخنقه كي يخرج من بلده ، مضطرا مغاضباً وهمس ولمز ولكز . وغمز أولئك الوشاة . الجبناء واشاروا الى موطن الفخر – بأنه موضع المؤاخذة ، قالوا للطليان – انسيتم أن هذا مهاجر ، كاتب ، وسياسى وطنى ؟؟؟

وهو من عائلة الحداد عدوة الطليان وعمه الحداد كان من المسؤلين فى حكومة المجاهد البطل رمضان السويحلى وهو صاحب قلم من طلاب الاستقلال ، ومن الطاعنين في الادارة الفاشية الاستعمارية ؟ ولم يصدقوا وإن هم ترددوا احالوا على الدلائل والوثائق تلك التقارير التى كانت ترسل بها سفارات وقنصليات ايطاليا في بغداد وتركيا وبلاد الشام عقب خروجه مهاجرا من طرابلس.. تطلب تلك التقارير مراقبة محمد على الحداد والحذر منه . وشايات من بعض مواطنيه . والمثل يقول – أريد حياته ويريد قتلى . وكان بعض الوجهاء وعلية القوم يقفون معه في نبل وشهامة مثل سليمان القرماللى كان في معاملته معه انسانا مواطناً شريفاً نبيل المقصد كريم اليد ، حاول مساعدة محمد على الحداد . فقد كان يود أن يبقى محمد على الحداد في طرابلس ويعمل في المجال الفنى والتربوى . وكلم عنه وأوصى به الجنرال مالكيورى مدير مدرسة الصناعة في طرابلس ، لكن حكومة ايطاليا تلكأت وزمت واعتذرت وكتبت اليه رسميا وخطيا .

فقد كان محمد على الحداد صريحاً جريئاً في تلك الاجواء واشار علنا الى علم ايطاليا الذى كان على سارية القلعة ،قلعة طرابلس ولعن الاستعمار علنا. واشار الى أن كل شر هو من الاستعمار والاذناب والوشاه انما هم دمى تدور في فلكهم .

وهو فنان ورسام له شهرته في هذا المجال. عمل صورة للمارشال بالبو حاكم ليبيا وصورة لموسليني ؟؟؟ ترى اكان الفنان الوطني مخطئا ؟؟

أم هو كان في خداع السراب عند ما ظن أنه يستطيع أن يحاول ويداور ويساير ليرى غور مائهم ويستشف حقيقة أمرهم ؟؟؟ وليستطلع منتهى مطاف وعودهم .

ولكن صنيعه هذا ليس من التزلف والتهافت لانه لو كان حقيقة متزلفا مساوما لكتب وألف وحاضر وهادن على حساب القضية الوطنية بل هو من أجل القضية حاول أن يكشف كل أوراقهم .

وأصيب بمرض خطير في طرابلس كاد أن يودى به واجتمعت عليه الهموم النفسية ، والامراض الجسدية وتطويق الوشاة له .

وكان صراعا مريراً لهذا الفنان الرسام والوطني الكاتب والباحث عن كوة نور في الليل الدامس الطامس. هل يجد لقمة العيش الشريف في الوطن المكبل بالاغلال ، هل يستطيع أن يخطو باعتزاز وقد سدت الطريق طوابير قمصان الفاشست السوداء ؟!

كاد في مرضه يقضى عليه لولا يد رحيمة من طبيب مواطن من أسرة مجاهدة . الدكتور الطرابلسي — محمد على امسيك . وقام من مرضه معافى .

وقرب موعد مجيء موسليني لطرابلس في تلك المهزلة المسرحية التى أعدها الفاشست . وانهار كل ما بنى الكاتب . انهار كل ما بني على سراب .

كان محمد على الحداد يراسل الأمير المجاهد شكيب ارسلان وبينهما صداقة ، ومجاوبات وتجاوب بشأن قضية طرابلس .وكان يراسله أيضاً بشأن زيارة موسليني لطرابلس وفيما يتعلق بالآمال المعقودة على هذه الزيارة .

وتظاهر الطليان في اسلوب خادع في بعض الحالات بأنهم يساعدون هذا الفنان المبدع الذى شهد له حتى الطليان بالتفوق الفني وطلبوا منه أن

يصنع – طاقم مقاعد للمعرض الشرقي وهيئوا له دكانا صغيراً – مرقد عنز في آخر سوق الصنائع الوطنية والذى كان يتبع نقابة الصناعات الفاشية ، وذهب الى الدكان الصغير ، وعمل بكل همة – (خليك مع الكداب لباب الدار) واخذ بجوار هذا الدكان الصغير محلا آخر جعله محلا ومطرحاً للعرض والبيع .

ومكتب الوالى الخاص كان قدكون مكتبا للدعاية لاستقبال موسلينى كلفه بعمل صندوق على الطراز العربي مقتبس عن جامع أحمد باشا القرهمللى الذى يعد في معماره وهندسته واشكال زخارفه تحفة من روائع الفن الاسلامى وكانت هناك فنانة ايطالية لطيفة رشيقة لها روح الفن وشفافية الاحساس هى السنيورة – قازاتي –

وأرجو نطق القاف خفيفة – أعمق من الكاف وأرق من القاف المشمومة – وهذه – قازاتي – لمست فيه روح الفن وقدرت موهبته . ودافعت عنه . وحاولت أن تحضنه معنى لاحسا ... خد بالك .

ودافعت الايطالية الفنانة عن الكاتب والفنان العربي المسلم .وقفت معه آزرته في قضيته ، ودافعت عنه دفاعا صادقا حاراً رأت وجوب الاستفادة منه واعجبت بمقدرة محمد على الحداد ومواهبه وابداعه الفنى .

والفنانون في انحاء العالم قد تجمعهم قبيلة الصعكلة الفنية والتشرد الروحى وكانت هذه الفنانة الايطالية ترى وجوب تأسيس معمل كبير للفن العربي تابع لنقابة الصناعة بطرابلس وترى تعيين محمد على الحداد مسئولا في مدرسة الصناعة الاسلامية وبدل أن تجلب القطع الفنية والتحف من الخارج يمكن الاستفادة باحياء الفن العربي على يد محمد على الحداد ولكن احلام الفنانة الايطالية ومطالبها ومدارك حسها ذهبت ادراج الرياح ، رياح غطرسة الفاشست

والفن والغطرسة ضدان لايجتمعان ولا يلتقيان . ورقدت مطالبها واقتراحاتها في المكاتب ودرجت في الادراج . وقالت الفنانة (قازاتي)

كما يروى محمد على الحداد (لو عملنا لهذه الفكرة واسس معمل فنى برئاسة هذا الفنان الطرابلسى محمد على الحداد في طرابلس لوفرنا الملايين التى تذهب خارج البلاد ولوجدنا عملا جديدا لعشرات الاطفال من ابناء البلاد) .

ولكن كما حاربه الحزب الاستعمارى والعملاء أيضا حاربه اليهود لأن أصابع الفنان الطرابلسى تزاحم صناعتهم في الاثاث – الموبوليا – وأصبح الكاتب الفنان عاطلا عن العمل في بلده . وقد كسب عطفا شعبيا لوطنيته وصدق لهجته وراقبوه وقيدوا تحركاته . عدوا عليه انفاسه وأصبح محله ودكانه بسوق الصناعة مركزا وطنياً للمثقفين والشباب وبعض الصحفيين الطليان الاحرار . كان له بصيص أمل وكوة تفاؤل بناها على زيارة موسلينى لطرابلس وانهارت الامال ، وسدت تلك الكوة وكان يود أن يقوم محمد على الحداد بعمل في مجال تنمية الحس الوطنى ويود أن يقوم بجولة في الدواخل لكن الطليان بخبثهم لم يمكنوا محمد على الحداد من هذا .

ولكنه عن طريق آخر استطاع أن يتصل ببعض الشيوخ والأعيان مامن شيخ أو وجيه منهم يزور طرابلس المدينة الا اجتمع به وتحدث معه وان اختلفت درجات الحديث ونوع المكاشفة وكان في دوامة االسراب – يريد تكوين جبهة تخاطب موسلينى والحاكم العام بشأن اعادة الحرية وصياغة قانون يضمن الحقوق السياسية والمدنية للمواطنين واحترام العقائد والمشاعر الدينية والقومية ، والمساواة بين العرب والطليان .

وفي طرابلس انتشرت شائعة أن الامير شكيب ارسلان سيصاحب موسلينى في هذه الزيارة وخصص جناح لائق ببيت سليمان القرهماللى للامير المجاهد شكيب ارسلان وكتب يسأله عن صحة هذا ارسل خطابا الى « جنيف » حيث كان يقيم الامير المجاهد ولكن ارسلان رد على صاحبه محمد على الحداد بأن الطليان طلبوا منه زيارة صحبة موسلينى . ولكن لا يمكنه زيارة طرابلس مالم تضمن ايطاليا رسمياً عمل اجراءات سياسية اصلاحية تضمن لطرابلس الاماني والمطالب التى ترضى العالم الاسلامى ، وشكيب ارسلان

كان يتخوف من أن الزيارة الدوتشية الموسيلينية لا يتأتي من ورائها شيء ولا تحقق مطالب الشعب فيصبح الامير شكيب ارسلان عند ذاك في موقف حرج ويستغل مركزه واسمه أمام الرأى العام وهو ليس في حاجة الى أن يكون اداة يستغلها الطليان ، لا يمكنه زيارة طرابلس الا اذا كان هناك تحقيق وتأكيد لحرية هذا الشعب ، وكان محمد على الحداد ينشر بين الناس - رغم المراقبة والمتابعة - رسالة ارسلان ، ويعلق عليها مع المواطنين ، ولم يتجاسر أحد على مكاتبة ارسلان سوى صاحبه الجرىء الفنان محمد على الحداد الذى كان واسطة بين رسائل شكيب والشعب في طرابلس .

وهو دور له أهميته ،وهى الصفات المطلوبة لتلك المرحلة. شاهد محمد على الحداد قسوة الاستعمار ومرارة الاهانة للشعب وسلب الاراضى وحرمان المواطنين وكان أصحاب الأرض من العرب يخدمون أجراء بأجور زهيدة بينما الايطاليون المعمرون يغدق عليهم . وكان أقل معمر ايطالى تقدم له معونات مالية مئة وستون الف فرنك ١٦٠,٠٠٠ .

* ماله وهذا الضيق وقد عاش مهاجرا حرا طليقاً في مصر والشام وتركيا والعراق ؟فألى الفرار والهجرة مرة أخرى والقلم في يده . وخرج مهاجرا مرة أخرى أكثر صلابة وأعمق ايمانا لمواصلة الكفاح ضد الفاشية وصولجان موسلينى الذى زعم متبجحاً وهو يلوح بالسيف المهدى اليه - أنه حامى حمى الاسلام وهل ذل المسلمون إلى هذا الحد فيكون موسليني حاميهم ؟. خرج مهاجراً مشحونا ملآن - وكتب ذكرياته وسجل حقائق تاريخية ونضال الشعب من فترة جهاد ما قبل ١٩١٩م والأدوار السياسية ووصف زيارة موسليني لطرابلس وقد كان محمد على الحداد شاهد عيان يرقب بعين متحررة .

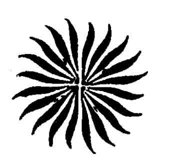
كان هم الكاتب المناضل ورسالته التى حملها للعالم الاسلامى والعربي هى بيان القضية الوطنية . وحاول أن يخاطب الشعب الايطالى عن طريق النشر والصحافة وشرح دسائس حزب الاستعمار والمعمرين الطليان في

طرابلس — لم تغير زيارة موسليني شيئا في وضع ليبيا بل كانت دعوى كاذبة خلابة .

وعاد محمد على الحداد للقلم — وكان كتابه — حاضر طرابلس الغرب — الذى نشر بالعراق يريده كمقدمة لسفر كبير عن هذا القطر العربي الذى كان قد حرمه الاستعمار من الاتصال بالعالم العربي وأمته الإسلامية .

وعتكف محمد على الحداد على ضفاف البسفور وظل هناك لم يكتب عنه أحد . ولم يذكره احد .

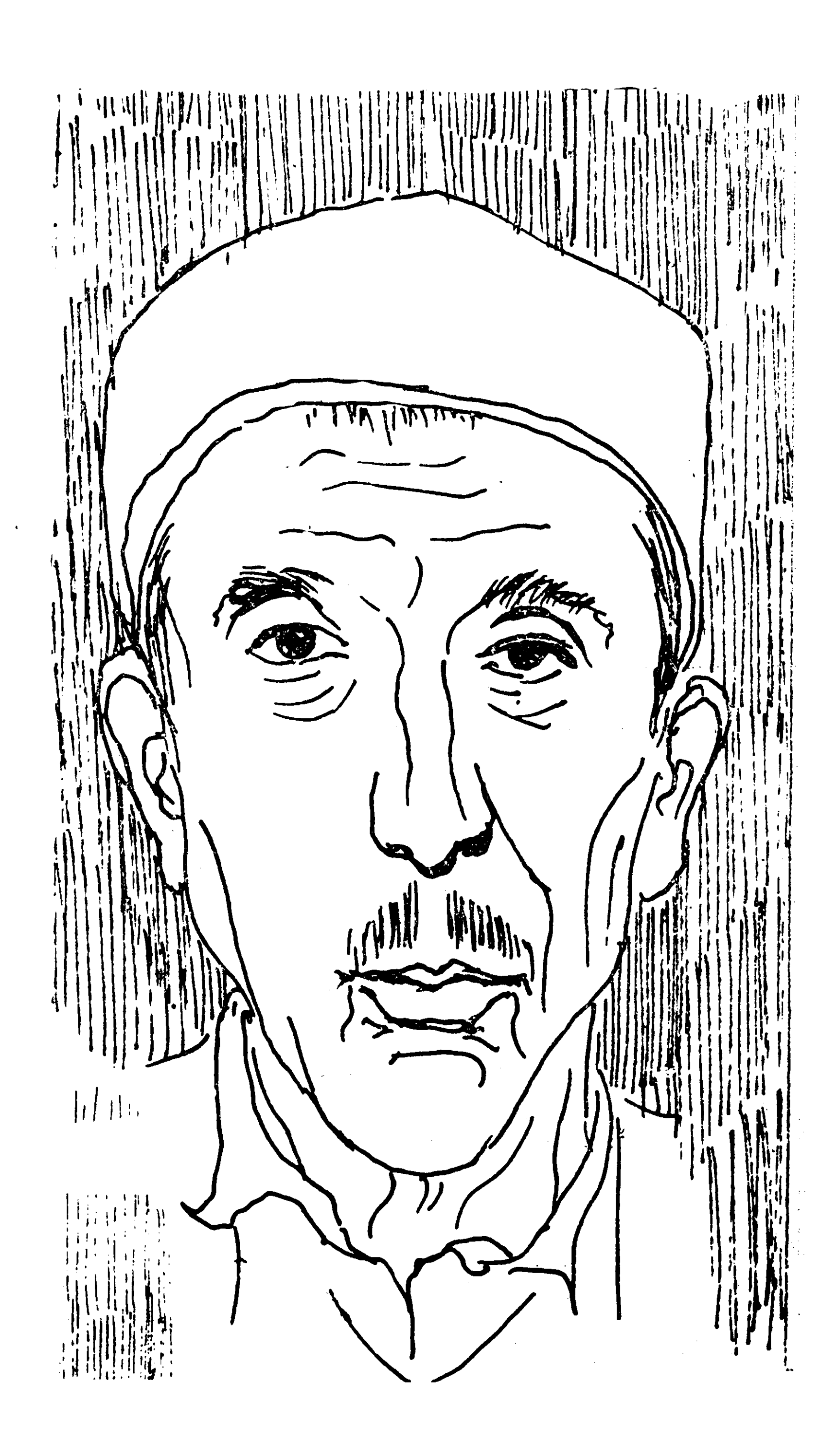
حـــتى في بلده طواه الظل بجناحه الكبير .



السنوسي بلقاسم

وسبع لسانات







أنيق في مظهره ، وجهه مشرب بالحمرة ، شارباه أميل إلى لون الصفرة ، عيناه تلمعان بوقدة الذكاء ، وتنمان عن حزم وإصرار ، ذاكرة من أقوى الذاكرات التي لو سجلت ما عرفت .. وقيدت ما اختزنت فيها لكانت مجلدات من صور الحياة ، وجوانب مثيرة مهولة من التاريخ الليبي المتصل بالنضال ... وغير النضال .. ، لكن زحام الحياة ولقمة العيش طوحت به في مناء ومناء ، وأنواء الحياة تدفع في أعاصيرها إلى شواطئ ومطارح ومطاوح لا تكون في الحسبان .

فاكتفى هذا المشاهد للحوادث والصانع أو المسهم في صنعها بالحديث والرواية والذكريات ، اكتفى بالرواية المشافهة ، والسهر في الليالي الباردة والدافئة ، قد يسمعه من لا يقدر ما كان ينشره ويتحدث عنه من وقائع وحقائق ومشاهدات ، كان يلبس القميص الملون الأبيض بالزرقة ويلبس الرداء الليبي (الجرد) ونوازمه ، وأحياناً المعطف الأبيض مثل التمرجية مساعدي الدكاترة وطاقية بيضاء من قماش متواضع ، الطاقية ذات — الحردة — أو أم دور لا زالت على رؤوس أولاد البلد في الأحياء الشعبية بمصر .

كان في مشاويره يركب ترام خط محرم بك الانفوشي إلى عمله ، زيه .. هدوءه.. مظهره.. لاينم على أنه ذلك الضابط المجاهد الذي كان مناضلاً بالسلاح في أحلك الظروف وأقساها . عرف البطل رمضان السويحلي والشهيد سعدون والشهيد عبد العاطي الجرم والمناضل عبد الله تمسكت والمجاهد سليمان الباروني والسياسى المجاهد عبد الرحمن عزام، وفلان ، وفلان ، وتخرج من الكلية العسكرية .

وعرف معنى النظام والدقة والانضباط والواجب والمهام السرية والواجبات والمستلزمات الميدانية .

وهو يذكر لك المعارك التي خاضها ، والمواقف التي شاهدها والرجال والفرسان الذين اجتمع بهم ..

ويسرد على مسامعك كأنما هو يقرأ لك من كتاب مفتوح الصفحات واضح السطور .

يعرف الرطانة بعدة لغات، سبع لغات ،وليست على نمط تراجمة السواح وبعض المناطق . ابو رواش ، ونزلة السمان و الأهرام .

ولاعلى نمط أساتذة ودكاترة الجامعات الأكاديميين لكن يستطيع أن يقرأ بها ويتفاهم إلى حد من حدود المفاهمة والمطالعة ، وتفتخر زوجته مباهية بأنه يتكلم بسبع لسانات ، ويسمع منها هذا الوصف والتعبير مرات .

والصغار الذين طرقت آذانهم هذه الأوصاف اندهشوا في تصورهم لهذا ، بسبع لسانات ؟ هل يمكن أن يكون للانسان سبع لسانات ؟ قالوا إن للحنش في فمه لسانين ، ويزغزد بهما وهذا لتأكيد ثنائية لسان هذا الحيوان الزاحف يريد عالم حيوان ، أو على الأقل والأسهل — حاوى متجول — جلا ، جلا ، أو رفاعي ، مدد .. مدد ، يا أهل البيت .

وكنا نستغرب كيف ، وهل حقاً يعرف هذه الكميات من اللغات ونسمعنا زوجته في إصرار تؤكد لنا حتى بعد ان كبرنا وبلغنا أشدنا أن

عمكم السنوسى. ب – يتكلم بسبع لسانات ، ويرطن بسبع لغات من لغات الاروام والخواجات .

وفك لغز التعبير ، وان بقيت الحيرة أين تلقى سبع لغات ومتى ؟ ومن يستطيع أن يمتحنه في الأزقة والحارات ؟

وحقيقة كان يجيد التركية ، وإن عرفنا أن قراءة الكتابة فيها أمرها سهل ، لأن كتابتها كانت بأحرف عربية وثلاثة أرباعها كلمات عربية لولا لطعة الطورانية التي سموها نهضة ، وقد قطع حرف العرب ولسان العرب بعد سقوط الخلافة وزوال العثمانية من هناك .

وفي تلك الحقب ، التركية تلقاها ، ولغاها ، أيام أن كانت هي اللغة الرسمية للبلاد والمعاملات والأدوات .

وليس غريباً من عمنا س . ب أن يعرف التركية ، فقد كان جيله من الذين أتيح لهم دخول المدارس ، أو حتى خدموا مع الأتراك أن يعرفوا التركية ، ولو طراطيش . وتهابيش ، وأشياء من التحابيش ،

ولو من لغة الشاويش ، ولو لغة السباب خرسيس ، نرسيس ، حتى بعض العجائز كن في بعض الأسر والبيوتات يعكزن ويلكزن ببعض كلمات تركية .

ولكنه يعرف قواعدها وصرفها ، وقافاتها ، لأنه درسها في المدرسة ، ولكنه ايضاً يعرف الفرنسية والإيطالية وقد تلقاهما بمدرسة عصرية بمدينة مصراتة – مدرسة العنقودي ،وكان من زملائه في المدرسة عبد السلام أدهم ، والشاعر أحمد رفيق المهدوي ، فترة من الوقت .

والتي أهملها أو غفل عنها من التاريخ الذين كتبوا عن تاريخ التعليم والثقافة أو نسوها ، لكن لم ينسها ، س . ب.. هو يذكرها ، وذكريات الطفولة عزيزة على النفس ، عميقة في أعماق الوجدان والحس ، لا ينساها

أصحابها بسهولة ، هذه ثلاث لغات ، أو ظروف تعلم ثلاث لغات .

وتضاف هذه إلى اللغة الأصل ، لغة الأم والأهل اللغة العربية كتابة وقراءة ، وملاهجة ، تركية ، لغة الدراسة والإدارة .

والفرنسية في المدرسة العصرية بمدينته ومسقط رأسه وعرف بجانب هذا الإيطالية ولست أدري كيف درسها وهو الذي شغل بحمل السلاح ضد الطليان أيام الجهاد ،

هل تلقاها مشافهة ومسامرة ، أو كتابة ومراسلة وقراءة ، أو تلقاها في المدرسة العصرية ، مدرسة العنقودى أو من الأسرى الطليان .. أيام حكومة رمضان ؟ وكان هناك مجموعة من الأسرى كما يحكى ويروى تاريخ النضال . يجوز هذا وذاك .

لكن المؤكد أنه كان يعرف كيف يتراطن مع السنيورة والسنيور — والسنيورتا ، وخاصة إذا كن من طليانيات الاسكندرية الجميلات ، لا بأس أن يطيل معهن الحديث ، وبالتالي يطيل إليهن النظر ، عتبا ، أو غير عتبي (نظرة عتبي اصطلاح ليبي معناه اختلاس النظر برقة ولطف ، مخالسة) حيث له خبرة بالحديث مع ربات الجمال .

وحيث كان بخبرته ولياقته ولباقته يغير اتجاه مجرى الحديث والمحاورة وكأنه نقل تجارب مناورات الميدان إلى مناورات أخرى بلباقة الحديث مع الروميات واليونانيات ، ويطيل الحديث ، وتستغرب السنيورة ان يتحدث معها بالإيطالية أو الفرنسية هـذا الذي يبدو في مظهره مـن أولاد البلد

أو الإسكندراني من (السيالة) أو « المزاريطة » الذى لا ينم مظهره عن ثقافة ولغة أجنبية .

ويعرف أيضاً اللغة البربرية لغة قدماء الليبيين بلهجاتها المتعددة ، الجبلية ، أو الواحية ، أو الساحلية .

وهي أيضاً لغة ليست مكتوبة ، بل ملاغاة ومشافهة ، وسماعـاً .
هذه خامسة ، ثم اللغة السادسة الألمانية ،

ولعله كان قد رافق بعض الضباط الألمان الذين كانوا يأتون إلى حكومة السويحلي ، فقد كانت الغواصات تأتي بالأسلحة وكان أيامها س . ب ضابط مراسلة لبقاً ، دبلوماسياً ، ذكياً ، واستوعب طرفاً من لغة الألمان .
وأظن ، وهو ليس من ظن الاثم ، بل من الاحتمال والشك العلمي ، أظن السابعة اللغة الانجليزية .

ولعله درسها أيام هجرته بمصر ، ولعله انضم إلى مدرسة ليلية لتعليم الانجليزية ، أو تعارف مع أستاذ مدرس لها ، فقد كان لبقاً في التعارف واستغلال التعارف للسهر العلمي ، والاستفادة من المعلومات واللغات .

وذات مرة كان راكباً الترام « ابو دورين » في حي الانفوشي ــ بالاسكندرية ، وكان هناك أحد الخواجات ــ أيام سلطة الحماية ، وسلطان الخواجات ــ وبيده جريدة فرنسية وكان في المقعد المقابل ، وتأمل س . ب صفحة الجريدة وتابع القراءة ، ولفت هذا نظر الخواجة ، وتعجب من رجل يلبس الملابس البلدية ، ويقرأ الفرنسية ، وذهل « الكمسارى » قاطع التذاكر عندما تراطن ذو القبعة ، مع ذي الطاقية ، منظر غير مألوف ولا متوقع !

وترك النفخ في زمارته ــ والترام إذا وقف في محطة لا يتحرك إلا بإشارة التزمير .

فخاطبه أحد الركاب محتداً فاقداً لصبره ــ يا عمي زمر ، مالك ومال الخواجات ؟ .

واضطر هذا الضابط المجاهد أن يعمل ليكسب قوت يومه وبحث عن عمل .

الوظيف الحكومي لايمكن إلا لمن هو ذو مطابقات لا تنطبق عليه..أو بواسطة من أحد الحيثيات في حكومة الباشوات والوساطات .. وأنى هذا لغريب مهاجر !؟

وعمل خفيراً في « مغلق » خشب ، أي مخزن للأخشاب .

كانت به سيارة من طراز أواخر القرن التاسع عشر تصلح ان تكون في متحف سيارات.. لو رآها هاو أمريكي ، أو غربي لشراها واقتناها، أو جعلها في معرض للفرجة بتذكرة ودخولية ، النفير بوق من الكاوتش المطاط الأسود ، في الخارج ، وهي من طراز مربع ذي ستائر مربعة ولها سقف عجيب مربع !؟

وكان صاحب « المغلق » المخزن ، يحرص على السيارة خوف ان يفسدها أطفال الجيران ، وكان المخزن الخشبي في موقع على شط ترعة أو قناة المحمودية بالاسكندرية .... التي شقها محمد علي باشا .

ويقطن الضابط المجاهد الذي يتكلم بسبع لسانات هو وزوجتـه وأولاده في دار بجانب المخزن الخشي أشبه بالكشك الخشبي ، وبكل حذر وتخوف يكون إشعال الموقد والكانون للطبخ وصنع الشاي ، سواء كان على الطريقة الليبية ، أو الطريقة المصرية أو حتى توليع الجوزة

وتمباك المعسل مع جاره الخفير الآخر الذي أولع بالولعة والتدفئة بكوب الشاي .

وقد يكون ضيفاً لجاره من ركاب المراكب في المحمودية قادماً من أعالى الصعيد ، أي شرارة ستحدث كارثة في أيام الرياح غير المواتية ، وعليه أن يعس ليل نهار خوفاً من لصوص الترعة ، وقراصنة الشاطئ الذين يتقاذفون في الشط كالأغوال ليلاً ، ويخاف على الأخشاب التي هي ثروة للتاجر تقدر بالآلاف ، وكانت من مواد البناء .

وفي لحظة استعراض وتأمل ومراجعة لنفسه وتدفق داخلي للذكريات لم يعجبه ان يكون خفيراً ، عساساً ، يشعر بالمهانة.. عليه ان يقف في انتظام واحترام ، أمام حضرة صاحب المخزن الخشي ، يلعن أبو الزمن الأغبر والحظ المايل .

وهو الضابط الذي كان يحترمه المجاهدون المغاوير ، والفرسان الاشاوس، ويقف أمامه بكل وقار غير مصطنع الجنود الشرفاء والمتطوعون الذين حاربوا الطليان .

أيقف أمام هذا الأمعة المنفوخ الجاهل لمجرد أنه يمتلك أكواماً من الأخشاب المستوردة !!؟

يحرسها ، يعس عليها ليلاً مقابل جنيهات مبتورة قد لا تصل إلى أربعة أو ثلاثة في الأربعة أسابيع !؟

أبعد السيف يعلق منجلا، أو يعلق نبوت خفير ، ودبوس عساس!؟

وقرر أن ينسحب ، بنظام وهدوء ، بلغة الصف المتقهقر .

بدون ضجة ويترك هذا الموضع ، أو الموقع ، ولكن لابد أن يعمل ليعيش ، ويعيش صغاره معه !!

وهو الضابط المجاهد ، والمتصيد للثقافة اللغوية — لا يصلح للتجارة .. فهي تتطلب رأس مال ، ثم خبرة ، ثم صفات غير لائقة بطبعه ،

وهو من باب أولى، لا يصلح للسمسرة، لأنها تتطلب تقلب الوجه وغلظ القفا ، ورقة الدين ، ومخادعات وكذبا من كل لون أحمر وأصفر وأزرق وأسود .

.. وأيضاً لا مكان ولاطمع للوظيف له ، تريد شروطاً لا تنطبق عليه ولاينطبق عليها وإذا وضع يده على يد وقعد بلاعمل ومورد رزق فسيموت جوعاً على شاطئ نهر ، أو شاطئ ترعة ، أو عتبة مسجد أو كنيسة !!

وكيف عاش إخوانه المجاهدون وهم عشرات آلاف ؟

كل حركة فيها بركة ، وتوكل الطير في روحاته وغدوه لا بد معه من تحرك الأجنحة ، وضرب المناقير ، وليذهب إلى محيط عاش فيه إخوانه ومواطنوه من المهاجرين – وذهب إلى « الحمام » مربوط وهناك تجار شرفاء من بلدياته ، وأخوة يشد بعضهم بعضاً .

واكترى كشكاً من خشب في السوق ، واشترى بالتقسيط المريح « مكنة » ، من ذلك النوع الذي يدار باليد يخيط الملابس للبدو والمواطنين البسطاء تفصيل ليس في حاجة إلى (موديل)، ولا مراجعة (كتالوج)

ولا يكلفه الشيء الكثير ، بكرة من الخيط الأبيض .

ومقطع قماش يفصله أثواباً بأكمام واسعة ، قد تدخل كل الرياح من كل الجوانب ، ولا يحتاج الثوب في إعداده إلى كشكشة ، ولا هشهشة ، ولا برقشة .

والزحام يشتد في يوم السوق ، وما أدراك ما هرجة يوم السوق ؟! والتفصيل والقياس بالواقف، ان يأتي الزبون بقطعة أو لفافة من قماش أمتاراً يفصلها وهو واقف .

ويدور الزبون صاحب الثوب دورة في السوق يشتري لوازم الاسبوع من مؤونة وطعام ، ويأتي ليأخذ القميص والسروال ، كان في بادئ الأمر متردداً في امتهان هذه المهنة .

يراها لوناً من المهانة يرى احتراف الخياطة مهنة نسائية لا تليق برجل له شوارب ، ولـــه قيمة وخاصة لضابط متخرج من كلية عسكرية ومجاهد خاض معارك فعلية لا معارك نظرية على الورق ، أيصبح خياطاً ؟ يحرك بدل المدفع والرشاش عجلة المكنة بدل طقطقة الرصاص ، طقطقة المكنة «سنجر» ؟

ولكن ماذا يصنع؟ أيموت صغاره جوعاً ، أم يمد يده مستجدياً خبز يومه وليلته ؟! ماذا عساه يصنع ؟

والحاجة تدفع أو تردى، والمثل الشعبي يقول «الفقر يعلمك السقاطة، والحاجة تعلمك الخياطة».. أو ما معنى هذا من أمثال هي وليدة الحاجة والتجربة .

وذات مرة أتى اليه شيخ من شيوخ البلدة الصحراوية عمدة من عمد المنطقة وهو فصيح طليق ، هشوش . بشوش وفصل وخاط له قميصاً وسروالاً . وما يلزم لوجهاء هذا المحيط وبذل كل ما في وسعه من إجادة وسرعة وإتقان .

وشرب صاحبه كوباً من الشاي .. أو كما ينطق في تلك المناطق شاهي وأخذ لفافة من التبغ تكرم ببرمها له من علبته الأنيقة ، فقد كان الدخان يلف ويبرم .

وجامله ساعة بالحديث .

وشتان بين ثقافة المجاهد ، المثقف بسبع لسانات ، والعمدة خاوى الوفاض.
ثم تناول العمدة القميص والسروال ثم مرت لحظة ترقب ونظرة صمت ، وهنيهة انتظار .

انتظر الرجل أن يمد العمدة الزبون يده ليخرج كيسه الجلدي أو كيسه القماشي بثمن الخياطة وأجرة ما صنع له ولكن دفع كلمة . قال له :

– يرحم والديك . بارك الله فيك . شكراً .

وكان س . ب رغم ملامحه الجادة . وإظهار التكشيرة وتقطيبة الجد . رغم هذا كان مرحاً . فكاهي الأسلوب . لاذع النكتة ساخر القرص . فقد بادر إلى مناداة ولده الذي أسماه باسم أحد الصحابة من أعمام الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وصاح قبل أن يتحرك العمدة منطلقاً في زحام السوق:

– قال تعالى يا ولدي ، اذهب للسوق وهات لأمك طماطم . وزيت ولحم وسكر وبزار وامش للكوشة هات خبزة .

وقال الولد – ماداً يده في عفوية وبراءة وبحكم التعود – هات الفلوس يا باتي .

فأجابه الوالد على مسمع من حضرة العمدة الذي كان يطوي ملابسه المخيطة جديداً تحت إبطه ويهم بالانصراف والانزلاق إلى بيته .

عندما يعطى البقال والخباز والجزار والزيات قل له يرحم والديك . بارك الله فيك . شكراً .

وفهم العمدة هذه الغمزة . ومغزى هذه اللمزة . وضحك ضحكة مجلجلة وأبرز له ما يريد من حقه وأضاف اليه مزيداً في خجل من هذه المحاورة المقصودة .

وانطلقت نكتة (شكراً) في السوق .

وتوارى العمدة أسابيع لا يظهر خوفاً من أصابع تشير اليه تضيف إلى القصة قصصاً . وإلى النكتة أطروفة ونكتاً ، واستمر س . ب في كشكه بسوق حمام مريوط يطقطق آلة الخياطة . شتاء آت وصيوف وأصياف .

ثم انتقل من حمام مريوط مرة اخرى إلى ميناء الاسكندرية وفي حي محرم بك سكن . واكترى دكاناً في سوق الخيط بالاسكندرية قرب سوق النساء وزنقة الستات – هكذا اسمها لزحامهن وإمكان قرصهن في الزحام . كما قال أحد الخبثاء العواجيز من قدماء الاسكندرية . والله اعلم . وهل يدري الشيطان أنهن قارصات ومقروصات هناك بالحي التجاري في الطريق المؤدي إلى سوق المغاربة حيث المباني التى كانت تسمى القيسارية . ولعلها القيصرية . من التعابير الواردة في كتب الرحالة والمتجولين القدامى حتى بشمال افريقيا وطرابلس .. كانت هناك قيسرية .

وهناك قرب مقهى النجعاوي شارع فرنسا . واللوكاندة العثمانية التي كان يعرفها قدماء المجاهدين والشهداء . أيام ان نزل بها عمـــر المختار وأنور باشا ، ومصطفى كمال قبل ان يغدو لقبه اتاتورك . وعندما كان يقترب من لقب الغازي والبطل مصطفى كمال هي ذكريات شاهدها وعرفها س . ب – وهو يمر في الطريق أو على رصيف اللوكاندة العثمانية كل يوم إلى دكانه الصغير . ولا أحد يشعر بما يموج في صدره وما يتدفق في دماغه من خواطر زاخرة .

واشترى ماكينة خياطة . وجاء زبائنه ايضاً من ذلك الطراز ..زبائن التفصيل والتخييط على طريقة أولاد البلد وسكان الأطراف الصحراويـــة من منطقة الدخيلة وصاعداً ، والقماش سوقه رائجة في تلك الأيام وازدهرت حالته نسبياً ، ولكنه كريم متلاف ، اخرق اليدين مثقوب الجيب ، ممدود المائدة ، وهو لا يؤمن باكتناز القرش الأبيض ، ولا الأصفر ، بينما كان آخرون من جيران السوق يأكلون الجبن والزيتون ، او يقفزون ما بين الوجبات إن تغدى لايتعشى ، وان تعشى لا يتغدى ، أو خبزاً قفاراً وماء قراحاً . اقتصاداً وتقتيراً ليبنوا بيوتاً ، ويتطاولوا في عمارة . أو يربوا رأس مال وهو كذلك يذكر لهم المثل الليبي القديم . عصارة التجربـــة والمشاهدة وتواتر السماع .

– « يجري عليها الملحاح ، ويأكلها المرتاح . »

والمرتاح هو وارث الشحيح المقتر المتكالب على الاكتناز . أما هو – بارد الأعصاب – لا الطبع ولا الحس – فلا نريد شتمه ، ولا التحامل عليه ، إنما بارد – أي هادئ الطبع على مهل . في الجري على المعيشة . دبه . دبة والزمان طويل .

– نعم يا سيدي : صدقت الزمان طويل . ولكن العمر من يضمن طوله ؟

– ويضحك على هذا التساؤل . أو هذا التكالب . وذلك المنطق وهو سلاح ذو حدين ، ونصل له جانبان .

– إذا ... من يضمن طول العمر ؟ فلماذا الإلحاح والبخل على النفس؟ لا بد من اللقمة الهنيئة .. وراحة البال . وطظ يا زمان !

هو يعمل على مهل . يصحو متأخراً . ويقرأ الجرائد . ويتابع أخبار العالم ويجتر ذكريات النضال مع جار له ايضاً من الضباط القدامى والمجاهدين وهذه حالة بلغة التجارة والاقتصاد لا تنمى مالاً ولا تربي طموحاً .

وإن أفادت من جانب راحة نفسية .. وإن أفادت من جانب آخر مؤرخاً ، أو أعانت دارساً . ، وباحثاً .

وظل في عمله بدكانه بسوق الخيط مهاجراً يرنو إلى يوم العودة . وتكسير الطليان وتحطيم انف موسليني ويحلم بإرجاع أملاكه المغتصبة التي استولى عليها الطليان .. والتسوق في « المواطين » والاسترواح عند « قوز التك »

وطالما شجر نزاع حاد ، وارتفع لهب الجدال بينه وبين أحد الشوام الذين كانوا يرتدون القباء والقمباز الشامي ويعملون بالخياطة البلدية . والدكان مقابل الدكان ، والشامي جالس على دكته متربع منهمك في غرز الابرة وبأصبعه السبابة « الكستبان » والدكة خشب مستطيل كان من طراز دكاكين زمان . مثل مقاعد دكاكين سوق الرباع .

وهو – أي الخياط الشامي ذو الجبة والطربوش – جالس متربع من الصباح إلى المساء . ما أقواه على التربيعة والجلوس والغطوس ! ! يخيط الملابس البلدية من قماش الصوف للعمد والاعيان ووجهاء الثغر وأهل الرياش والانتعاش . وكان أهل السوق والمارة يستمعون إلى لون من المناكفة والحوار بين الشامي والمغربي . وتمزج في الأجواء هذه اللهجات كاصطخاب الموج على شاطئ الاسكندرية لهجات شامية ، مغربية اسكندرانية ، في ردهات السوق بلا شخير في بعض المقاطع . والخلاف بين الرجلين المتقابلين .

أو المتضادين ليس على بضاعة ، أو خياطة وتفصيل ، أو تنافس على شد زبون بين الدكانين . إنما على وضع السلطان عبد الحميد .

– هل كان السلطان عبد الحميد ظالماً أو مظلوماً ؟

– وهل تركيا العثمانية دولة أخرت العرب ؟

أم العرب والمشارقة خاصة وبعض من الشوام أخص النصارى ظلموا الأتراك . وخدعوا الأتراك ؟ هي قضية سياسية أو مسألة ذات أبعاد تاريخية في بطون الدراسات المختصة أو مدارج الجامعات وحلقات البحث الوثائقي .

لكل دليل وبرهان ، ولكن هنا في هذين الدكانين المتقابلين ، يشتد أوار الحوار ويعنف الجدل في سوق الخياطين بعد سنوات طوال من انهيار الدولـــة وموت السلطان وفي هذا المرالضيق يعلو الحوار بأسلوب حاد .

ونرفزة وتلويح بالأيدي ، شأن لغة الحوار وأسلوبه عند أبناء هذه الشواطئ ، وكان الشامي يرتدي الطربوش الذي كان يرتديه الأفنديـــة والملابس البلدية جبة تحتها جلباب مثل ملابس العمد في الصعيد وأعيان الريف أو مثل ملابس سليم سركيس صاحب مجلة سركيس .

(يمكن ان تطالع مجموعته وصورته في المجلات القديمة ان كان في بلدكم دار كتب أو جامعة) .

وكان صاحبه الطرابلسي يرتدي الطاقية الطرابلسية أو الشاشية أم زر مثل طربوش محمد علي باشا الراكب صهوة الحصان الحجري في ميدان المنشية .

وهذا خياط لأولاد البلد والأعيان والعمد من الاسكندرية وما حواليها والوجهاء الذين يفدون إلى بلدة الاسكندر المقدوني ، أو بلدة أبي العباس المرسى .

هذا وافد في موجة من طرابلس الشام أو ما يقرب منها .

وهذا مجاهد وافد في موجة من طرابلس الغرب .

وذلك كان في فترة جندياً في صفوف الفرنسيين ، وربما استعمل قواداً أو جاسوساً ستر الله عيبه أو فضح الله خبيئته من أجل التاريخ .

وكم في جوف التاريخ لو تقيأ !!

وهذا مجاهد عرف المعارك وعرفته .

وهذا يدافع عن السلطان عبد الحميد ورشاد. وأنور أخي نورى واسحاق وعبد الله تمسكت . وينتقد جماعة الاتحاد والترقي وما أفرزوه وما نتج عنهم .

وذلك يدافع عن الشوام الذين كانوا في ركاب فرنسا مع أن هناك — بلا شك — شواماً اطهاراً مجاهدين ضد فرنسا لا يذكرهم ذلك المتحمس للفرنسيين .

وسبحان الله ... في كل أمة ألوان من الغمة !!

وشتان ما بين الاتجاهين ، وحوار الدكانين .

بينهما في المقابلة ساحة أقل من متر لا يمشي فيها سمينان ولكن المساحة أبعد وبينهما تقابل الأضداد ، ومواجهة النقيضين .

وقد يتوقف الحديث والحوار لحظات فقد تمر امرأة اسكندرانية سمينة بدينة متأرجحة مترجرجة . (يوم ان كانت البدانة والسمانة من مستوى مقاييس الجمال في تلك الآونات والرشيقة كانت في نظرهم ولهجتهم هي « المفعوصة ») .

ومرور هذه السيدة أو الآنسة المترجرجة قد يفصل بين المتحاورين .

انتباه إرادي ، أو انتباه غير إرادي .

وقد يقطع الحوار زبون جاء للمفاصلة أو التفصيل، وكنا نستمع إلى س . ب في سرد أدلته المنطقية ،وقد يفسد الحماس المنطق فيرتفع حماسه ويخبط خشبة الماكينة حتّى تكاد أن تكدم يده في سبيل الدفاع عن السلطان المظلوم ويتشابك الحوار .

* وبين ايش المغربية —

* وبين شو الشامية يثور غبار الجدل من جديد وتأتي اللهجة المصرية اللطيفة الظريفة لتخفف الحدة .

* الله . الله . ايه . ايه الحكاية يا جدعان؟ صل على النبي انت وهو .

وتكون لدارس اللهجات ثلاث علامات من الاستفهام أو الاستغراب .

— = ايش ؟ شو ؟ ايــــه

ايش تبي — شو بدك — عايز ايه ؟

وكان س . ب — قد تزوج من مدينة مصراتة قبل هجرته وكانت ذات ملامح من جمال آسيوي . وان كانت امها من الاسكندرية في الأصل . وكثيرة هي الزيجات التي كانت من بنات الاسكندرية بحكم الصلات التجارية بين شاطئ مصراتة ، وطرابلس والاسكندرية ، أو عن طريق القوافل التجارية . يوم أن كان للمغاربة سوق بالاسكندرية لا زال يحمل الاسم بل بعض الملامح كسوق الرباع بطرابلس أو سوق الجرابة بتونس ، أو بعض ملامح أسواق فاس — مع الفارق —

وكانت هناك بعض الوكالات والخانات والفنادق التي هي محطات ومخازن للتجارة والبضائع .

وكان س . ب يسمر ولا يحلو له السمر منسجماً إلا مع ذكرياته مع هؤلاء الفرسان بقايا الجهاد في تلك المرحلة . شهود العيان من الرجال .

— سوف المحمودي — ولده عون — أحمدالسويحلي —بودبوس — الروياتي — عطية الورشفاني — بو حبيل — الكبتي — علي المتجول — قصيبات —دغدنه

وتنساب الذكريات التاريخية .. لم تجد قلماً يسجل آنذاك — فانسابت متدفقة كماء يتدفق من ينبوع ثري — في صحراء جرداء لا يروى شجراً — ولا يعطي ثمراً .

وهو يذكر عمه حمزة . وعمه أبو القاسم ، وعبد الله ، الذين كانوا من كبار تجار الثغر في الاسكندرية. تاجر عباءات وجرود ، يأتي بها من بلدته مصراتة حيث تجيد أصابع المصراتيات صناعة الصوف ، ونسج أجود أنواع البدة والاكلمة ، والبسط . وهو عم يعرفه شهبندر تجار الثغر ، ويحمل الخشب من الاسكندرية إلى طرابلس في مراكب وتزوج أحد أعمامه الكبار من هناك وصاهر بالاسكندرية والدلنجات .

ويذكر ايضاً أنه في صباه هاجر مع عمه حمزة إلى جزيرة جربة قبل سنة ١٩١٢م ثم عاد بعد حوالي عامين وكان قد درس في اسطامبول أيضاً قبل الغزو الإيطالي .

وساهم في كثير من المعارك الهامة مع رمضان السويحلي وسعدون وهو في شكله رغم تجهم في نظرته كان مرفه المظهر نظيف الثوب ، لا يحب الأعمال الشاقة المتعبة أو المتربة، ورفض ان يعمل في البناء أو دحرجة البراميل ، أو يحمل شيئاً ثقيلاً . قالوا انه اشترى من السوق شيئاً بقريشات في قرطاس كان يمكن ان يحمله في يده إلى بيته ولكنه أجر حاملاً لـه بأضعاف ثمن القرطاس .

وكانت تصرفاته هذه موطن تندر وموضوع تفكه وتعليق في أسمارهم في محيط المهاجرين — لا زال يحسب نفسه ضابطاً في نظره — ومشيته ولهجته هل هو شيء من التعالي والكبرياء ؟ أو الترفه في غير مكانه ؟ ألم يكن أحد أجداده « شهبندراً » في السوق ومتعهد لحوم في جيش ابراهيم باشا ؟

وكان س . ب يمتاز بذكاء حاد ، وذاكرة عجيبة ، تحتفظ حتى بالهامشيات — وتختزن حتى الجزئيات ودقائق التفاصيل وقد يلقاه انسان

في زحام ويعرفه من ملمحه رغم أن اللقاء كان خاطفاً لمرة واحدة منذ أربعين عاماً مثلاً .

ويذكر الحديث بالتفصيل والحادثة بالتفريع .

كان هو والعيساوي بو خنجر ووالدى مصطفى بن علي وهو ابن عمه من أقوى الذاكرات وأقوى الحافظات ، اللاقطات المستوعبات .
وسقط موسليني وا ندحر الطليان ودخل الانجليز .

وعاد إلى طرابلس ، كان همه أن يتفقد أملاكه التي صادرها الطليان ويعرف حدودها ، وتخطيطها وبذل جهداً في التردد على دائرة الأملاك وصندوق المصادرات ولديه الوثائق والدلائل .

ولكن حبل الحكومة طويل ، وبالها قد يكون أطول من عمر الانسان المطالب بحقه ، ولو انتظر عودة الأملاك المصادرة آنذاك لمات جوعاً — أما العطش فأمره سهل يشرب الانسان من الغدير — واضطر إلى العمل — ولكن لا يليق أن يكون خياطاً كما هو في الاسكندرية ومريوط .

وبحث عن وظيفة ، ولم تسعفه اللغات السبع التي يبدو انه لم يستعملها منذ أمد طويل وتقدمت به سنه وتجاوزه الزمن ، ولم تشفع له حتى المعارك السبعون التي خاضها والعصر يجري .والآن في هرمه وتجاوز مرحلة الكهولة في مشيته لا يقدر على مسابقة الزمن ، رغم احتفاظه الظاهري بمقومات وشكل الصحة والعافية قد يكون لاهتمامه براحته وتأجيره لحامل القراطيس في السوق وللضرورة ، وللضرورات أحكام ، ويقول الفقهاء المناطقة (الضرورات تبيح المحظورات) .

وعمل فراشاً ، أو بتعبير أكثر رقياً ورقة ، عمل مشرفاً في مدرسة داخلية يشرف على التلامذة ، منامهم ، طعامهم ، شقاوتهم . أبعد ان كان يشرف على الجنود والمجاهدين والشباب المناضل ، وحتى الشيوخ

في الطوابير بالميدان ... أصبح يشرف ، فراشاً ، على هؤلاء العفاريت الذين لا يخفض لهم صوت ، ولا يهدأ لهم بال ؟!

وزادته الأيام وصروف الليالى لوعة نفس . ومرارة مذاق وكان الرجل منجماً من مناجم الذكريات ، ومخزناً من مخازن الحقائق ، الحقائق التاريخية لأهم فترة في نضال شعب ليبيا أيام الجمهورية الطرابلسية ومفاوضات هاتيك الأيام .

ويتحدث الساعات الطوال عن هذا ولا يمل .

وذات مرة طلبت منه أن يسجل ذكرياته عن سعدون ورمضان بخط يده ويذكر مشاهداته بأمانة كوثيقة من وثائق التاريخ بدل ان تضيع في الهواء وتمر بلا تسجيل .

وعكف الرجل على كتابة مذكراته ، وتقييد ذكرياته بأمانة صادقة ، وموضوعية جادة، وقد رجعت إلى كراريسه واستفدت منها في كتابي سعدون ،وأشرت إلى ذلك في موضوعه: وظلت أسرته بالاسكندرية وهو وحيد في بلدته يطبخ وحده . ويغسل ثيابه وحده . تسامره ذكرياته ، ويزوره ويتردد عليه أحياناً من تبقى من زملاء الميدان ورفاق السلاح زمان قد يخففون من الوحدة النفسية والغربة في أرض الوطن العزيز .

وذات يوم تسامر مع مدير المدرسة وتحدث كأصفى ما يكون الحديث .

كان نشيطاً تبدو عليه الحيوية ، وشرب الشاي ، ولعب الورق ، وتفاكه بأفاكيه النوادر والدعابات ، فقد كان زميله هذا فكهاً ممراحاً — يزيل قناع الصرامة والجهامة .

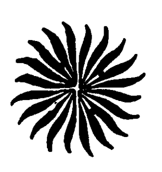
ودخل س . ب — المكان الذي يؤجره سكناً له — فلم ترد له أملاكه حتى تلك اللحظة — ويراها من بعد وهي محرمة عليه مزارع ومساكن وأرضا واسعة .

وفجأة مات بالسكتة القلبية !!

سكت ذلك المتحدث اللبق ، والمسامر اللطيف ، والضابط المجاهد غاص ينبوع من ينابيع الذكريات .

ووجدوا على صدره أوراقاً كان يسجل فيها ذكرياته النضالية ،قطع في كتابتها شوطاً ، وسجل فيها عديداً من الصفحات وطوت الأيام صفحة من ذكريات رجل عاش متوقد الذهن ، قوي الإيماء، صادق الوجدان ، طاهر الضمير . لا يذكر اسمه إلا أهله وأحفاده .

والا سطور لمن ينبش ذكريات التاريخ ويحرك ذاكرة الزمن ! !





عبد الوهاب عبد الصمد

صحفي في اسطمبول







قبل أن القاه بأمدغير يسير ...

وقبل أن اكتب عنه بفترة طويلة ، سمعت به ، وسمعت عنه ،وذلك في ظروف تتعلق بذكرياتى أيام طلبى العلم بالأزهر الشريف ، كيف سمعت باسم هذا المهاجر المغامر ، والصحفى المطارد ؟ لذلك قصة وحكاية نسردها قبل أن تضيع في زخم الضياع ، وتتوه في أودية النسيان .. والذكريات اذا اندفعت وانسالت يشد بعضها بعضاً ، وقد ينهال كثيبها من كلمة ، أو ومضة أو هزة ،هزة ألم أو ومضة أمل ،

طرق بابى مهندس أشيب الرأس ، أحمر الوجه قانيه،يتكلم العربية بلهجة من عاش في بلاد الاعاجم والروم ثلث قرن أو يزيد .

لعله أول مهندس ، — أو مهندز .. (كما ينطق القاموس وأمي وعمتي وجدتى رحمهن الله جميعاً)

تخرج في العهد العثماني ، وهرب من جور الطليان وأجواء الاستبداد وغيوم الفاشية الى بلاد الأتراك ، حيث عاش وماس ، وهاص ، وباص .. ولاتنطق الصاد ظاء — وهناك توظف ، وعمل في الهندسة ، وبنى للناس بيوتاً ، وإن لم يبن لنفسه كوخاً أوكناً وأحيل على التقاعد ، والتمعيش أو

التنعوش بجزء من الراتب بلاعمل ، ــ ولكنه لم يحل نفسه على التقاعد والتواكل بل ظل يتشبث بالحياة ، والحيوية ، ويستمتع بما تسمح به حواسه ، لايريد أن يأتيه أجله وهو قعدة .. يتكحكح .. ويتنحنح . ويتأفف ، ويتنفنف ،ــ بل ظل مشبوب الحياة مشبوب الأوار ، مصداقاً لحديث رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم .. (اذا شاب ابن آدم شبت معه خصلتان ، الحرص وطول الأمل .)

كان شاب الروح ، فتي التطلع ، يستمع لأغانى سيد درويش (مسجلة على اسطوانات ومذاعة من اذاعات أو مقلدة في سهرات)

تطربه ــ .. زورونى كل سنة مرة .. ويدخل شارع عماد الدين وان كان المرحوم عماد الدين زنكى الأيوبى .. مظلوما عندما وضعوا اسمه على هذا الشارع الماخورى .. إذلاعلاقة بين عماد الدين وشارعه .. و لادخل له في هيصاته .. وكان شارع عماد الدين في ازدهار لياليه يغض المؤمنون البصر عندما يمرون منه ..

كان شارع الفن والمتعة ،والتصيد والتغنج ..

انه المهندس .. بالحاج .. وبه لطعة أو هيمان أهل الفن والعلم والدراسة ، دقة من ناحية ، وهرجلة ، وفن وعلم من ناحية ، وفوضى وأرتباك ، وإرباك من نواح ،وليس المهم هنا هذا وحده !

إنما المهم هنا مناسبة السرد والتذكر .. المهم أنه بعد التحية المقتضبة وهزة الرأس والابتسامة غير المتكلفة .. قال ..

ــ أنت طالب من طرابلس الغرب ! ؟

ــ نعم .. من طرابلس ــ من مصراته في الأصل ، ومهاجر بمصر وناشىء بها

ــ اووه .. عفارم .. انت تدرس وتعيش في مصر .. لابد أنك تعرف

أهل مصر .. (.. ملاحظة كان تعداد أهل مصر أوان ذاك عشرين مليونا – ١٩٤٦ م)

وسكت .. ماذا يريد هذا السائل الطارق ؟! وملامحه فيها مادة للرسم وهو نموذج يصلح لمادة قصة .. وكنت في تلك الآونة ادرس بعض الوجوه والملامح من الناحية النفسية ولدى اهتمام بعلم النفس ، وصلته بالفن والأدب

– أريد لقاء الدكتور كمال الحشن .. المهندز

– أنا لاأعرفه !

– كيف طالب علم .. في مصر .. لايعرف الدكتور الحشن !؟

– من هو !؟

– زميلى في الدراسة والهندسة .. وحرب فارس وديار بكر والمانيا .. والأناضول ، واسطامبول .. و .. وانساب معه خيط الذكريات وكأنها أكداس بضائع في جوالق تبعثرت وتناثرت .. أو كأنها حقيبة منبعجة انفتحت ووقع قفلها واندلق مابها من منوعات غريبة أو كأن خيط الذكريات تلك الكبة من خيوط في يد عجوز تدحرجت وتطاولت خيوطها وتشابكت.. والأصابع عاجزة عن لملمتها ..

وتفرست في ملامحه .. وجدتها فرصة لتأمل إنسان يسرد ذكرياته في لهفة .. وياعلم النفس ماأوسع أبوابك !! وسألت لأجعل له محطة فيسيره لمتواصل ..

– متى كان هذا ؟

– قبل الحرب العالمية الاولى .. ومابعدها

– قبل أن أولد أنا .. وقبل أن يهاجر أهلى .. وقبل استشهاد سعدون .. البطل ..

ـ ليس المهم هذا لابد أنك تعرفه .. قالوا لى .. انك مصراتى .. وأديب وكاتب وخطيب وشاعر .. وتعرف مصر وخبايا ها كأحد أولاد البلد

ـ لاصلة لى به ولاأعرفه ..

ـ وخبط يده .. وارتعش حاجباه الكثان الأشهبان .. كيف .. طالب علم .. في كليات الأزهر .. لايعرف عضو الحزب الوطني والجمعيةالسرية لمقاومة الإنكليز قبل عام ١٩١٩ م ؟؟

وهمهم بكلمة أعجمية .. أظنها سبة ولعنة بالتركية .. حسب مقتضى لهجة الانفعال والاستغراب

ـ لم أسمع به !

ـ هو من أكبر عائلات مصر

ـ تفضل تشرب شاى والا قهوة .. !

ـ لا .. ـ وضحك ـ هذا شراب المتصوفة .. وأهل العلم .. أناأشرب أشياء لاتوجد عند أبناء الأزهر ..

ـ قلت له سامحك الله ، وهداك .. وماذا تريد ياأستاذ ؟

ـ كمال الحشن ، وكيل سكك حديد عموم مصر !!

ـ وهززت رأسى وأعدت الجواب متصابراً ـ لم أسمع به ولاأعرفه

ـ من فضلك .. أرجوك أريد أن اراه فوراً .. اليوم .. أوغداً ..

لأنى على سفر أما اسطامبول ، أو طرابلس غرب .. بلادى .. اذاسمح لى الأنكليز الملاعين ـ هل يدخلنى الإنكليز طرابلس .. وأريد أن أرى قبل سفرى شرقاً أوغرباً صديقى .. كمال بك الحشن ثم قال ..ـ الاتعرف عائلة.. بن الحاج .. بطرابلس ؟

– قد يكون الحجاج بالآلاف :

– عمى المجاهد السياسى عضو مجلس المبعوثان الصادق بن الحاج عين من الأعيان كل كتب التاريخ والسياسة تكتب عنه .

وكل هذا الحوار –وقد اختصرناه وهذبناه .. دار وهو واقف عند الباب يصر على أنه ابحث معه عن زميل دراسته، ورفيق رحلته ، كمال بك الحشن – ويفضل أن يراه اليوم .. وحلا للإشكال – ورغم ظروف الامتحان عندى وأنا طالب بكلية أصول الدين أوان ذاك – أسعفتنى فكرة البحث عن الاسم في دليل الهاتف .. ووجدت الاسم ..

وكان أول مصرى يكون مسئولا في مركز كبير حساس في سكة حديد عموم مصر .. فقد كانت إدارتها إنكليزية ..

– آلو ..قلتها بالهمزة كما ينطقها الناس..ولم أتقعر كما يكتبها المتحذلقون والمتزلفطون هالو .. ايه ياهالوها !

– آلو .. فلان بيه ؟ – (كانت الألقاب مستعملة تحريرياً وشفاهياً والغيت تحريراً .. وبقيت شفاهيا وملاغاة)

– هل تذكر بن الحاج الطرابلسى؟ كان معك في الأناضول والبلقان وطهران .. واصفهان .. وايام زمان .. ايام الحرب والدراسة .. ! !

وكان البقال الذى أضرب من عنده المكالمة..ينظر الى في استغراب كأن بى مسا أو وشا .. لان هذا كلام غير مفهوم .. ويكاد ان يقول كفاية رغي

– اووه .. وهتف بالتركية والفارسية والمغولية .

وأنا لااعرف من التركية – أيامها الاخمسين كلمة فقط ونصف كلمة ثلاثة ارباعها من أصل عربي ..

– قلت له .. انه يريد أن يراك .. وهو على سفر .

– قال مقهى كافيه دى لابيه .. امام تمثال ابراهيم باشا بميدان الأوبرا وتنفس المهندس الصعداء .. وكأنه عثر على كنز أو ربح جائزة ،

ولأول مرة .. اسمع باسم هذا المقهى .. كان بين فندق كونتننتال وبار أسبلندد .. وكانت جلسة مع المناضل المجاهد المثقف كمال الحشن . من تلك الشخصيات التى امتلات تجارب وذكريات عن أيـــام محمد فريد وعبد العزيز جاويش والحزب الوطنى في دوره الثانى بعد مصطفى كامـــل .. رحم الله الجميع .. وطفق يتحدث عن أيام جهاد طرابلس – واواخـــر أيام الخلافة الاسلامية ومكايد أوروبا ودسائس الغرب – المهم انزلق الحديث الى دور «عبد الوهاب عبد الصمد» الصحفى الوطنى الذى كان شابا مغامراً .. والذى كان يصدر صحفاً عربية باسطامبول .. والذى عرف الخبايا والزوايا .. ودهاليز السياسة . وسجن . ونفى . . .

واستمعت الى حديث الذكريات بشغف ونهم في أذنى .

واندمجت في الإنصات .. ولاأريد أن يفوتنى اسم .. او موضوع يتصل ببلادى . وأنماط رجالها .. المغاوير أو المغامير .. والمطامير ، وفاتنى أن أسجل الكثير ، لكن بقيت في ذاكرتي صور لاتبهت ونقاط لاتضيع .. انطبعت منها صورة «عبد الوهاب عبد الصمد» فكان محور الجلسة الحديث عنه ، وعن صحفه باسطامبول وتحدثوا بما جعلنى أتوق للبحث عنه عندمـــا أعود لوطنى الأول وأرجع من هجرتى .. ودارت الأيام .. وفي دوراتها تجارب وآلام وآمال .. وطموح وصدمات وخسائر ومكاسب .وذات مرة وأنا أقرأ ذكريات المناضل « على الغاياتى » . أجده . يذكر بأعجاب وإشادة – عبد الوهاب عبد الصمد – أووه .. هاهو يعود ليطرق أسماعنا صاحب هذا الاسم صحفى ليبي يصدر صحفا باسطامبول ..ويدخل التاريخ في ذكريات هؤلاء .. وحدثنا عن الشيخ على الغاياتى ومواقفه أيضا استاذنا الدكتور محمد البهي .. الشهير بالدكتور قرقر .. وأن تنازل عن لقب القرقرة

هذه .. وهو أستاذ الفلسفة .. وكان من أصهار الشيخ على الغاياتى وحدثنا عن ذكريات صهره على الغاياتى في هجرته وعمله في سويسرا وقبلها في اسطامبول مع صحفى من ليبيا اسمه عبد الوهاب عبد الصمد ...

أووه .. مرة ثالثة يطرق هذا الاسم أسماعنا !

وقرأنا من نشرة صحفى اسكندري متوار وراء لقب صحفى .. « كنارى » وأشار في كتيبه او نشرته الى على الغاياتى وصلة عبد الوهاب عبد الصمدبه.. أوو — .. هاهو الاسم يتكرر ويعود شفاهيا وتحريرياً .. ودارت الأيام .. أو دارت بنا دواليب الأيام ..

« — يبدو أن الأيام ثابتة .. والدوائر أو الدوائح هم أفراد البشر — » درنا مع الأيام — أو طوحت بنا الأيام .. وعدنا إلى بلادنا ..

وبحثت عنه في طرابلس وبنغازى ..

بعضهم مط شفتيه .. وبعضهم هز رأسه مثل الكيلة الفارغة وبعضهم تصام أو تبكش ..وهى ظاهرة عجيبة قد يعجز عنها التحليل والتأويل والتخريج.. هل البضاعة المحلية هينة بهذا المقدار ؟

واخيراً بعد طول سؤال وتطواف التقيت معه .. وتعرفت اليه وهو في مشارف عمره .. تكاد أصابعه تلامس تخوم الآخرة ،أو تخشى أن يكون مشواره القادم على الصراط ..

ومع هذا التخمين أوالتصور منك انت .. أما الحقيقة المبهرة فإنه كان مثل صاحبه .. بن الحاج .. المهندز .. ان رأيته فامسك الخشب .. وصل على النبى .. وحصوة ملح في عين المعيان الحسود ربنا يبارك .. ان شاء الله يعطيك عمره .. هو لايؤثر فيه الشيب ولاتفسد وضاءة جبينه التجاعيـــد .. ولاالتكرر ميشات ..

لاالتجاعيد المعنوية ، ولا التجاعيد الجسدية ،..

يطحن الألم بروح الأمل ..

يدوس على الأشواك بأحذية اللامبالاة ..

قدري .. من جانب الاستروواح والاطمئنان النفسي ..

هو جعبة من الذكريات .. كتبت عنه فصلة في كتابى الذى أرخت به لصحافة ليبيا ، ولاأحب هنا أن أعيد ماكتبت .هناك لكل مقام مقال .. أو لكل مقال مقام ..

هو من الرعيل الأول من المدرسة النضالية على درب الحرف الشائك ــ المشوق ، .. كان في حياته شاب القلب متفتح الذهن . جـــم النشاط .. متنوعه .. الى درجة قد يبدو منها تناقض أوتضارب .. او دهشة وحيرة..

أيمكن أن يصنع أو يقوم بكل هذا ؟

هو فنان السلوك والتصرف .. والنظرة للامور ..

رقيق الوجدان والمشاعر . يحطم الزمن وإن أصر الزمن على تحطيمه .. صراع .. مشادة .. والأبقي من الصراع عند هؤلاء وامثالهم .. نتاج الكلمة والحرف والورق ..

انتصر الزمان أو قهرت الظروف .. أو تبددت الأعمار ..

أو تبخرت الأحلام .. وتبقى الكلمة .. ولو على جدار .. أو شقاف او صحيفة مهملة .. أو كتاب يقرأ ولو بعد حين ..

كريم .. وقد يبالغ في كرمه الى حد الأتلاف .. والأتلاف قديدفع الى الأفلاس .. والأفلاس قد يجر الى التحايل ..

ولاداعى الى المجرجرات بعد ذلك ..

وهو كريم معطاء .. مغداق .. وعند الغواني والصبوحات يزداد كرمه الى حد لم يصل اليه حاتم بن الطائي ولاأحفاده . ذلك ذبح ناقة .. أورهن بعيراً .. لكن هو في أسطامبول .. وروما .. وبرلين .. وباريس ..

ربما صرف أكثر من رأس مال حاتم وحواتم .. في سبيل هوانم وخوانم ويصل كرمه الى حد التلف ، أو التواكل ، وقد تنقذه مغامرة .. أو صدفة جامحة يتراطن ويتكاتب بالفرنسية والألمانية والإنجليزية ،

والتركية .. ويتشافه حتى باليونانية ، ولغات او لهجات انقرضت الا في بعض الأوساط .. والذين يجيدون التقمص اللغوي والإهتمام باللهجويات ،

إما نوابغ اخصائيون علماء او نصابون ومحتالون ، وهو من نوع اقرب الى النبوغ ولايخلوأحيانا من تحايل أوتناصب نصب « الطريقة » عند اللزوم.. والحاجة قد تدفع الى الحيلة والحيلة قد تدل على الذكاء والاحتياج .أوكليهما..

تجوع الحرة ولاتأكل من ثدييها .. وإن اشتدت الحاجة أكلت حتى من غير ثدييها ..

عرف الميسرة .. والمعسرة .. وفي كليتهما يضربها بصرمة .. لايبالى ..!

كان فراشه – ريش نعام ، وفي حضنه احدى الغواني من « كونتيسة » يريد أن يداويها بطبه المزعوم . أو على رأسه حارس في زنزانة .. سيان ..

لايهم في جيبه مناشير ضد الانكليز . أم ضد السلطان .. أم ضد الطليان.. في جيبه جنيهات ذهب .. أم يفكرفي الهروب والزوغان من صراف الفندق..

وهناك شيئان أومجالان في تلك الأوساط من الصعب أن يحافظ الإنسان فيهما على توازنه أو الاستمساك ببعض المعايير والقيم في ذلك الخضم –

- مجال الفن
- مجال الصحافة اذا اتصلت بتيارات ..

وعبد الوهاب عبد الصمد كان حقيبة من ذكريات تحتاج الى تنسيق وأضابير .. و (أرشيف) كان يحتاج الى فهرسة وضبط وأصدر وأسهم وعمل في جرائد تصدر بأسطامبول يوم أن كانت لها « صدر أعظم » و« باب عال » .. وقبل أن ينقطع شريان الحرف العربى والاتجاه نحو العالم الاسلامي . يوم أن كانت عاصمة الخلافة .. أصدر .. وساهم في :

* دار الخلافة — اسبوعية .

* الفردوس — اسبوعية .

* جريدة الفاتح — يومية — من مواليد مدينة بنغازى وهو من أصل مصراتى وعبد الوهاب عبد الصمد —اسم قد يسترعى انتباه أذنك لان الاسماء عادة في محيط أهل ليبيا إما أن تضاف الى أسرة أو لقب أو بلد أو قبيلة أو جهة .. أما هكذا .. عبدالوهاب عبد الصمد .. بدون قبيلة أو لحمة أو فخذ .. أونا حية .. والإضافة الى الأب فقط لايعرف الا في بلاد المشارقة .. لكن هكذا عرف وفرض اسمه في جميع الأوساط الصحافية والسياسية .. وعرفه به المعاصرون وغير المعاصرين له .. عرفوه من حدود القوقاز ومدخل البوغاز .. وبلاد السند والهند وسور ياجوج وماجوج وسدمأرب والبلاد التى دل عليها الهدهد والأرض التى كشفها الغراب .. وعرفه زملاؤه من نواحى سيحون وجيحون وزملاؤه في المعتقلات .. وسماره .. وخلانه في الليالى المعربدات

زملاء الطاس والكاس .. وزملاء المحبرة والورق .. وليالى المطاردات والقلق والأرق .

وهو من النوع الذى يكون صداقات بسرعة .. ولكن الصداقات لديه مع هذه السرعة طبقات ومصنفات ، وأرشيف في دماغه وصدره . ولو بعد المزار .. أو شطت الدار

أوتكر كر الليل والنهار ..— هناك لديه صديق لكل الأسرار —

وصديق آخر لنصف الاسرار .. وثالث بعيد عن كل الاسرار–

وهناك نوع من الأصدقاء له نصف ابتسامة ، وآخر له كل الابتسامات.. وآخر له أن يدخل يده في جيبه بلاحساب .

– مابين الخيرين حساب . . ولاعتاب . . وآخر من بعيد سلامات .. أو إيماءة بالرأس .. ولعنة في السر .. أو اشارة باحد الاصابع

وقد تصل الى وصف الأم ونعت الأب والجد ..

هو .. هجاء .. بشع الشتائم .. يلعن أبوالسلطان في غيبته ،

كما انه مبالغ في المدح .. وهل لأسلوب الصحافة لديه أثر في مزلقة اللسان .. بلا حسبان وأحيانا بأنضباط وميزان ؟ من مواليد بنغازي .. صحيح.. وأكيد ..

لكن في اية سنة .؟ الله اعلم .. فلاشهادة للميلاد .. ولو صدقت الرقم الذى يشار اليه لتضاربت بعض الحوادث ومعنى هذا انه تخرج من الكليةوهو في القماط .. أو يمصمص إصبعه .. اغ ..اغ ..

وهو عمر مسنن بحسب الأجواء والملابسات .. كل مرحلة مربها سن ولها عمر .. – والأعمار – والتسنين .. من السنين .. لامن الأسنان والأضراس

.. هى عند أهل الأدب والفن والكتاب .. إحساس ومشاعر وعطاء .. وليس العمر كما يكدس . ولاأكواما تكوم .. ولاأياما تتشابه ،

الأيام المتشابهة ليست أعماراً .. ولو عشت أعمار الصخور والأشجار البلوطية .. أو بلاط شارعكم من عهد غومة .

....

درس الطب .. ومنه اكتسب لقب دكتور .. مع سبق الإصرار وإن كانَ لم يعلم أحد من أى فرع في الطب !!

قال بعضهم عن بعضهم – عن زملاء معاصرين له ، (وان كانت شهادة المعاصرة – أحيانا – فيها مغاصرة) .. قالوا إنه طب الأعشاب والحشائش وطب التجارب .. قال بعضهم انه طب روحاني .. يعالج بطرق خاصة قد يكون سبق بها الدكتور «داهش» .. وخاصة الأوانس والكواعب وأهل اليسار والرفاهية في عواصم أوربا !!

ولكن حقيقة لاينكرهـا اثنان ولاينتطح فيها عنزان ولايتهارش فيهما ديكان .. ولايتخربش فيها قطان .. ان عبد الوهاب عبدالصمد كان يعالج زبائنه بالإبرعلى الطريقة الصينية .. عرف سرها وإن لم يذهب الى الصين في دراسة ولابعثة رسمية.

كيف !؟ .. الله أعلم .. وفعلا شفى بعضهن وبعضهم بالإبر المغروزة في طريقة عجيبة قبل ان تنشر أو تتسرب الطريقة الصينية .. خارج الصين

وحياته مليئة بالأسرار والمطبات والعجائب ،

وقال بعضهم .. وهل كان عند ابن سينا شهادة أو تخرج من جامعة؟! .. ولكن هـذه كلها جوانب أو أشياء يغطيها أو يعوضها نشاطه السياسي .. والاجتماعي .. والصحفي .. الذى لايشك فيه منصف ، والتي هي جدير بالتحقيق والتدقيق والإكبار .. ألم يزعم بعضهم أن الكاتب الفيلسوف العالم–

الدكتور إسماعيل أدهم – الذى قدم نفسه في لحظة تشنج وتمرد طعاماً ووجبة شهية لأسماك الاسكندرية ...

ألم يزعم بعض الباحثين ان اسماعيل ادهم هذا المفكر والفيلسوف لايحمل شهادة دكتوراه .. كما كان ينشر ويذيع وان أجاد عدة لغات شرقية وغربية.

والتشبيه هنا – أووجه المقارنة وجامع التشبيه بين الدكتورين – هو الشك في حكاية الدكتوراة –

لاالشك من ناحيه الدور الصحفى والاجتماعى .. لهذا ..

او الدور الفني والأدبى والفلسفي لذاك .. شهيد الغدر والظروف الاجتماعية القاسية .. الجحود الذى يقتل النبوغ !
•كم كان عظيما اسماعيل ادهم شهيد النبوغ .

وان كانت حكاية الشهادة الورقية لاتقدم ولاتؤخر .. في مجال المعايير الفنية فأصحاب الألقاب الدكتورية اكثر من الهم على القلب . . عداً .. وتكديساً .. واكثر من زحام عربات اليد في باب الحرية في شهر رمضان.

باستثناء بعض أهل الانتاج العلمى والعطاء الفكرى .. فهو راجع الى التكوين لديهم والمواصلة والاجتهاد .. لالمجرد ورقة مزخرفة لكن بكل تأكيد كان في عام ١٩٠٥ — ١٩٠٨م عبدالوهاب عبدالصمد هو الدكتور الوحيد في بلدته ولم نرله عيادة عندما عرفناه في قمة عمره . . ولم يسجل اسمه في نقابة الأطباء .. وان اكترى صيدلية في بنغا زى أيام الإدارة البيريطانية .... ورصده الإنكليزية واتباعهم .. فكان من يتابع نشاطه السياسى ، ويلاحق انفاسه وخطواته اكثر من الزبائن والمترددين على الصيدلية المتواضعة حتى هرب من باب صيدليته الزبائن !

وحكاية القبوع في الدكان لاتلائم أهل النشاط الفكرى !

هل يقدم الآسبرو للمصدوعين — واللصقة .. أو اللوزقة — لأصحاب البرد .. والروماتيزم .. والمسهل والشربة الإنكليزى لأصحاب البطون الممسكة .. بعد ان كان قلمة يهدد إمبراطوريتين: امبراطورية . كانت لاتغرب عنها الشمس ....

وإمبراطورية الرجل الذى سموه مريضا ؟! كان قلمه وصحافته تهدد تاجين .. أبعد السياسية والصحافة وتهديد أصحاب الحيثيات يقدم لزبائنه —

حبوب الدكتور عبدالله وقطرة السبع بنات ومرهم لأجرب مصه برغوث.. ومرهم ضد الهرشان ..

وسكاته أو زلباحه لطفل يصرخ طوال الليل ..

وجرابا نُشىء يقال همسا .. أورمزاً .. يلعن أبوها حالة ؟!!

كان يمثل شباب العرب في الآستانه مع نادى العرب وبوادر القومية

وسجن مرات مع شباب ورجال المناضلين في زمنهء أيعيش في دكان نصف رفوفه خشب يلعب فيه الخواء ؟؟

هذا الذى طارده الاستبداد .. وطارده الاستعمار وطاردته عيون السلطان والانكليز والطليان ..

وتابعه ولاحقه حتى بعض مواطنيه — غفر الله لهم —

وقد اتصل عبد الوهاب عبد الصمد بحركة الحزب الوطنى بمصر ايام محمد فريد .. وكان للحزب الو طنى أياد وآثار مشكورة أيام الجهاد في طرابلس .. بينما كان لطفى السيد وأمثاله وجريدته وجماعته من اصحاب السفارة أو دار المعتمد البريطانى آنذاك كانوا ضد الجهاد في طرابلس وبرقة وكان الحزب الوطنى مع شعب ليبيا المسلم المجاهد وبكل ثقله وصفاقته كان لطفى السيد — وضجته وثوبه اكثر من حقيقته — بالون نفخوه — كان مع الطليان والانكليز وضد الجهاد — ومع هذا سموه .. (فيلسوف أو استاذ الجيل) .. وكم هناك من مغالطات في تاريخ أمتنا العربية والإسلامية !!

توجه عبد الوهاب عبد الصمد الى مصر في مهمة سياسية وطنية وقبض عليه الإنكليز هناك وسجنوه مع الليبيين والمصريين في سجن « الجيزة » ثم في سجن « طرة » ولبث في السجن سبعة أشهر ، .. وهناك ضاعت مذكراته وأوراقه وكان من زملاء السجن من الفيوم — سليمان الشاهد ..

وعبد الغني بورقية — ومن مواطنيه الليبيين — عبد العزيز العيساوي ، وطاهر الغرياني ،

ثم نفى عبد الوهاب عبد الصمد .. الى جزيرة مالطة التى كانت تحت

سيطرة الاسطول الإنكليزي .. وأقلته باخرة كان بها من اعضاء الحزب الوطنى المصرى .. ومن المنفيين المبعدين الى مالطا —

. عبد الغفار متولى

الدكتور حسن نورى

. كمال الحشن — (وهو الذى ضرب لنا الموعد في .. كافيه دلابيه وسرد ذكرياته مع صاحبه المهندس — بن الحاج » — ومكث عبد الوهاب عبد الصمد منفياً في مالطا .. زهاء ست سنوات ١٩١٦ م — ١٩٢٢ م .. ثم ذهب الى « بورصة » بتركيا للالتحاق بالمجاهد أحمد الشريف ،

. . .

ومن مواقف وحسنات عبد الوهاب عبد الصمد أنه أفسح صدره وفتح بيته للمناضل « على الغاياتي » وأوجد له عملا صحفياً ...

في جريدة « دار الخلافة » وايضا أفسح صدره للمناضل المجاهد الشيخ عبد العزيز جاويش — وقد اشار على الغاياتى نفسه الى هذا .. أو على حد تعبير القدامى شهد بفمه وقلمه ، واشار في مذكراته التى نشرها عام ١٩٥٢ في جريدته « منبر الشرق » بالقاهرة الى « عبد الوهاب عبد الصمد » ..ولم يقل « دكتور » ..

ثم نشرت هذه الحلقات في كتاب للصحفى « كناري » ..

كان من اوائل الذين عملوا في الميدان العربى وقضايا الحرية للعالم الإسلامى — من أصحاب عبد الحميد الزهراوى .. وجميل صدقى الزهاوي، ومحمد فريد .. ويوسف بن شتوان ،

وفي الحرب العالمية الثانية ، كان عبد الوهاب عبدالصمد .. موئلا حمى كثيراً من المواطنين العرب وعرف مثل الدكتور المصرى .. الطيب ناصر..

والدكتور مصطفى الوكيل زميل احمد حسين ، والدكتور وهبى البوري والحاج أمين الحسينى مفتى القدس .. وكثير من الشخصيات العربية والأعجمية ،

ولعل أطرف حوار دار بينه وبين أصحاب المكتبات العامة بطرابلس عندما شاهد مجموعة من اعداد صحفه بعد خمسين عاماً من اصدارها وجذبه الحنين اليها . وأكب عليها في لهفة المشتاق . . والدشاهد فلذة كبده بعد طول غياب ، غير أن الولد يشيب في هذه المدة والجرائد لم تشب ، وان أنهكها الأهمال ..— ومن الطريف أن عبدالوهاب عبدالصمد أصر على أن يأخذها معه ..

وكان موقفاً من القيم على المكتبة العامة وصاحب الجريدة التى كان يصدرها منذ نصف قرن .. ويصر على أنه هو صاحب الحق والامتياز وهو الذى أخرجها .. وحررها .. ومافصلنا بينهما الابعد مشقة .. وهما يتشابكان باليد واللسان عجوزان يتهارشان ويتشاتمان بالفصحى والدارجة .. ولغة الحطيئة ولهجة خالتك حليمة ، ولعنات خرسيس نرسيس آدب سيس !!

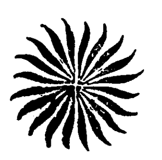
وبعد جهد .. وتهدئة الخواطر .. واعلان الهدنة الأولى .. وفك الاشتباك بين الصحفى والشاعر الموظف .. استطعنا أن نرد الدكتور عبدالوهاب عبد الصمد الى دائرة التعقل ومنطق العقلاء .. وان وجود الجرائد في مكتبة عامة أهم .. وأجدى . . ليراها الناس . . ويقرءوها . . بعد عمر طويل ..

وأثلج صدره — بمعنى ارتاح ..— لاأثلج من الثلج —وتصور لوكان الثلج صحيحاً .. وفي قرة العنز أو أيام الحسوم .. آهو تعبير وخلاص !

كان آخر مطاف العمل بعد ثلاثة ارباع القرن من العمل المتواصل .. في مختلف دروب الحياة .. عاطل .. مركون .. ثم عطفوا عليه اشفاقا

وعمل ملحقا صحيا في احدى السفارات . . بالبلاد العربية ملحقا صحيا تابعا لشؤن الصحة وهو في حاجة الى عناية ورعاية صحية .. رغم مظهره المتماسك الرشيق وقد جاوز التسعين ..

صائفة ١٩٦٩ ودع عبد الوهاب عبد الصمد الحياة وهو في روما بعد سهرة هادئة .





أبو القاسم الباروني

يصارع روما.. من الرواق







من أشهر الشخصيات التى عرفت في محيط رواق المغاربة بالازهر الشريف ، يكتب المقالات السياسية ، وينشر في الصحافة مناضلا ضد الاستعمارين .. الايطالى والانجليزى .

كان يرتدى الطربوش والجاكت مع الجلباب كأنه أحد وجهاء أولاد البلد أو « معلم معتبر » . وقد ينتعل في منطقة سكنه أو الطريق المؤدى الى الرواق الشبشب في قدميه .

كان يسكن في حارة من الحارات الضيقة الملتوية ذات المظهر والرائحة التاريخية في ربع متآكل الدرجات ، مظلم المدخل حتى في ظهيرة النهار وفي داره أو حجرته يشعل الضوء الخافت المتراقص بلمبة نمرة 5 بالجاز وصناعة الزجاج في مصنع يس . ويشترى الجاز من دكان قريب من المسكن من بقال يبيع السكر والشاى والخبز والزيتون وفي ركن من الدكان برميل جاز أو فنطاز من وسائل أو سوائل الاضاءة للحى .

ولكن أحيانا يترك الجلباب والجاكت والشبشب ويرتدى متأنقا البدلة الوحيدة الثمينة ليذهب بها الى الحفلات الرسمية ومقابلة الشخصيات الدبلوماسية. على أعلىمستوى من الذين تقرأ اسماؤهم. وتنشر صورهم في

الصحف يقابلهم هناك . في فنادق الدرجة الأولى . شبرد .. سميراميس .. وكونتنتال .. ناسيونال . وقد يطب الى الهرم حيث فندق مينا هاوس — ويتطوح في مطارح بعيدة في مشاويره على ارباب الصحف والمجلات السياسية والجمعيات والمؤسسات الوطنية ويتردد على شبرد القديم قبل حرقه في حريق القاهرة الشهير ،وعندما يقرأ نبأ تشريف بعض الشخصيات واصحاب الحيثيات العربية والشرقية للبلاد في جريدة الاهرام أو البلاغ وكوكب الشرق والمقطم .. يتفرس في باب الاجتماعيات أو في الصفحة الأولى وكانت الصحافة تعنى بهذه الشخصيات حسب منزلة الشخص أو الزعيم السياسية والاجتماعية .

فيقتضى الحال ويحتم الأمر أن يرتدى البدلة الانيقة ويكويها بلهجة مصر — يحددها بلهجة طرابلس — عند المعلم عبده المكوجى « بو رجل » كان دكانه ملاصقا لمسجد محمد بك أبو الدهب الزعيم المملوكى المعروف .

والمكوجى بو رجل وصف لعملية الكي والتحديد لا وصف للصانع فقد كانت تحمى حديدة مبططة مسطحة ملساء كبيرة — تحمى على النار وبعد تسخينها الى درجة قريبة من الالتهاب تداس بالرجل ويمر بها على الثياب ذهابا وايابا في طريقة شعبية ولم تستعمل الكهرباء للتحديد والكى في تلك المناطق .

ويرتدى بدلته عندما يدعى لحفلة من الحفلات ليخطب شارحاً قضية بلاده . متعرضا أو مستعرضا حقائق الوضع في طرابلس الغرب أو عندما يبادر لحضور محاضرة من تلك المحاضرات التى كانت تموج بها جمعيات القاهرة ونواديها واحزابها. كان من هواة صحف الصباح السياسية يسرع اليها صباحا مبكرا متصفحا صفحاتها ، معلقا على أنبائها بصوته المتهدج وإشاراته المتعدده المعبرة، وقد يصاحب التعليق الكلامى ثأثأة من الشفاه أو طرقعة اللسان في سقف حنكه .

وكان ابو القاسم الباروني يكتب كلمات سياسية في جريدة الاهرام والبلاغ والجهاد أو بعض المجلات ذات الاتجاه العربي مثل مجلة – الرابطة العربية – لامين سعيد . أو الشورى لمحمد على الطاهر أو الفتح – لمحب الدين الخطيب ورحمات الله على هؤلاء جميعاً بما غرسوا وبذروا ولم ينالوا في دنياهم راحة ولا أجراً .

كان ابو القاسم من شلة ، وبالفصحى–ثلة – مقهى «متولى» على رصيف المقهى خطوات قرب الازهر عند عمارة بنزايون كنا في المقهى نتحلق – رغم ضيق مساحة المقهى ..مجموعة منهم العالم المجتهد – والطالب الناجح – والاديب المبتدىء – والفنان المتصعلك – والشاعر الحلمنتيشى – والذكى اللبق والطالب الفاشل – والشاب المتوثب – نماذج وانماط فيهم العجوز المتهالك ، والممراح الدعوب ،والعبوس القمطرير ... جمعهم الرواق أو ثلة المقهى .

كان ابو القاسم من أحب الناس الينا لصدق مودته ، وسعة اطلاعه واهتمامه بقضية الوطن فهو (ارشيف) ودائرة معارف لقضية ليبيا يتكلم في انفعال ولكن بدافع الصدق .

وفي حرارة ولكن ليست متصنعة ، وقد تدفعه الحدة والانفعال الى أن ينتقد بعض الناس من خصومه السياسيين باسلوب سليط أو نعوت والفاظ مقذعة .

وكان كريما حاتمى الطبع يجود بما عنده ، يدفع ما في جيبه في سبيل اكرام أصحابه ..وطالما عزمهم واستضافهم على طبق فول مدمس في بيته أو حجرته هناك في «حوش قدم» المتفرعة من حارة الروم احد مداخل حى الغورية العتيد قبل أن تصل الى بوابة المتولى .. ذات الزحام والصخب الشعبى ،ويصنع الشاى بيديه على بابور سبرتو هادىء النار ولكن أعصاب ابو القاسم غير هادئة ،بل كانت في النقاش السياسى دوما كانت حارة متوترة ،وكان يعالج

التأليف رغم امكانياته اليسيرة المحددة المعتمدة والمستمدة من قريشات وقف الرواق من الجراية والربعة، وقائمة الستين ، ولكنه يوفر من هذه القريشات ما استطاع أن يطبع به بعض الرسائل والكتيبات ذات الطابع السياسى والوطنى ، بل كان يوزعها بنفسه . فهو المؤلف والناشر والموزع . وقد ساعدته عندما كان يريد تأليف رسالة صغيرة عما قيل في حرب طرابلس من اشعار.. وقدمت اليه بعض قصائد الشعراء ودللته على مظان وجود البعض من القصائد في صحف كنت طالعتها في دار الكتب المصرية عندما كانت في مبناها العتيد بباب الخلق قبل أن تذهب أو يذهبوا بها الى مبنى قرب كازنو الشجرة والكازنو اشهر من دار الكتب الآن .

وألف ابو القاسم كتابا عن المجاهد سليمان الباروني ،وهو يعتبر أول كتاب من ناحية السبق الزمنى يؤلف عن الزعيم المجاهد بعد وفاته مباشرة أيام الحرب العالمية الثانية .

والورق نادر – غال – والطباعة مرتفعة . والرقابة شديدة . وباختصار العين بصيرة واليد قصيرة ،ولكنه وفر من قوت بطنه ليطبع الكتاب . وكم كانت فرحته عارمة عندما خرج الكتاب ذو الصفحات المعدودة، واخذ يقلبه ويباعده من يده ويقربه ويكاد أن يضم صفحاته الى صدره.. وطال حديثه عن الزعيم والكتاب ، ولظروف وأحوال الف كتابا صغيراً وطبعه عن سلطان مسقط وعمان سنة ١٩٤٤م وغير هذا من كتب ورسائل أو مشروعات كتب صغيرة ذات اتجاه سياسى وتعريف بقضية بلاده .

وكان ابو القاسم عدوا لايطاليا . ويخطب ويكتب ضدها ويتحاشى ان يتكلم أو حتى يقف مع بعض الطلاب الليبيين الذين كانوا يترددون على السفارة الايطالية . سواء كان ترددهم للضرورة أو تطوعا وتملقا.. كان يلعنهم مواجهة، ويلعن ايطاليا علانية كان عدو ايطاليا في عنفوان طغيانها وكان الانجليز الملاعين سجنوه .. سجنوه سنوات طويلة استغرقت اكثر سنوات الحرب العالمية الثانية .

اعتقل وظلم في اعتقاله ،وحشروه مع بعض الذين كانوا مشبوهين من المترددين على سفارة ايطاليا .

سجنوه لابتهمة أنه من المتطلينين فما كان هذا واردا..إنما اعتقله الانجليز في مصر لانه كان ضد الانجليز ايضا كما هو ضد الطليان ،وهزت أيام الاعتقالات أعصابه . وزادها هزة ان بعض الحركات السياسية والمشتغلين بالقضية أو المتنفعين بالقضية أو غيرهم من المجتهدين في المسالك والدروب التى كان يجب أن تمشى فيها القضية في تلك الظروف والملابسات .. كان بعض الجهات والاتجاهات تتناوره .

كان يسبح في محيط وحده وبذراع واحدة..وأمواج الظروف أقوى من ساعديه . هو نموذج من التضحية والوفاء حتى ذهب ضحية وعاش عزبا وحيدا لم يبن عشا ورغم حدة الطبع والانفعال الشديد فقد كان في سلوكه مع اصدقائه لين الجانب – ودوداً بشوشاً ، يعرف للصداقة قدرها وللاخوة حقها .

وكان منضماً ،أو هو ركن من اركان « اللجنة الطرابلسية » التى كان لها لون من النشاط السياسى في المهجر..ولكن بعد فترة استقال منها ايضا ،فقد كان الرجل من اتجاه وتكوين قد لا يتلاءم مع بعض عناصرها واعضائها ألم نقل أنه صريح حاد المزاج مثالى الى اقصى حدود المثالية؟!وعاش في غربة بكل معاني وابعاد ومفاهيم الغربة المادية والمعنوية والنفسية..وعاش في شظف من العيش في صبر عجيب – أو كما يقول القاموس في التراكيب اللغوية صبر عبقرى– والعبقرية هنا لغرابة هذا الصبر ، وعلى هذا لم يعرف اليأس طريقاً الى قلبه ، وكان كثير المكاتبة والمراسلة لزعماء سياسيين كبار امثال شكيب ارسلان – سليمان الباروني – عبد العزيز الثعالبي – جميل المدفعي – ياسين الهاشمي – احسان الجابرى – وغيرهم .

وأين ضاعت رسائل شكيب ارسلان اليه ورسائله الى شكيب ؟؟

صفحة من صفحات النضال الوطنى . وسطور مــن تاريخ مجهول .
كان في عفته وصفاء ضميره وطهارة يده — بلا مبالغة ولا تهاويل . قديسا من قديسى الكلمة الوطنية الشريفة.. وكان يدخن ولكنه من جماعة تكره التدخين وتشدد النكير على المدخنين ! وذات مرة كان يشرب معى النرجيلة في مقهى متولى قرب الازهر وشاهد واحدا من ابناء قومه واقاربه يقدم نحو المقهى وكان في زيارة للقطر المصرى.. وفي سرعة وحركة مفاجئة يلقى الى بمبسم النرجيلة مظهرا أنه كان لايدخن، وادركت من حركته هذا مبلغ حيائه واحترامه لمشاعر جماعته وأهله من حيث التقاليد التى كانت تحترم .

وعندما دار بينى وبينه جدل في هذا بعد أن ذهب صاحبه يتوكأ على عصاه اراد أن يؤكـد أن القضية والموضوع هنا ليس ازدواجية ولا نفاقا — انما هو من قبيل الذوق وعدم الصدام معهم في أمور واشياء يراها هامشية — والاحترام والتقدير شيء لابد منه بين الناس .

وكان ابو القاسم بحكم مكوثه في هذه الاحياء الشعبية مدة طويلة يبدو كأنه من ابناء الباطنية أو رقعة القمح، أو شارع ام الغلام . والعطوف، وكفر الطماعين وقصر الشوق في لهجته وطربوشه وقفشاته عندما يندمج مع ابناء البلد — ولكنه في مجالس السياسيين وأصحاب الحيثيات ، وعند اللزوم ومقتضى الحال ، وعندما يرتدى بدلته الانيقة وطربوشه المائل على جنب رأسه كطربوش رياض الصلح أو محجوب ثابت يبدو في مظهره كأنه من علية القوم والوجهاء — بمقاييس ومظاهر تلك الاجواء .

وان كان يلاحظ أنه هو في حقيقته معدن اصيل، ولكل زمن ملابساته ومقاييسه حتى في الازياء والشكليات، ولكن الاهم . الافضل — المتبقى في صورته الذهنية حقيقة شخصيته هى آراؤه السياسية والوطنية التى كان يبديها صراحة وجهارا — نهارا بلا خشية من قلم المباحث والشرطة السياسية التى كانت في تلك الآونات تنشر زبانيتها واحلاسها — سرا وعلنا في مداخل الجامع الازهر . وتندس في تجمعات الطلاب ، وحتى عندما كان الزعيم المناضل

بشير السعداوي يستعديتهيأ للعودة الى وطنه ، وكون هيئة التحرير واراد دخول طرابلس والعودة للنضال في البلاد وتهيئة الجو للمناداة بالاستقلال ووحدة الشعب والانضمام للجامعة العربية ومواجهة الهيئة الرباعية التي أوفدتها هيئة الامم لاستفتاء شعبي لم يكن ابو القاسم الباروني من انصار السعداوي — ومع أني كنت من أنصار الزعيم بشير السعداوي وكنت خطيب هيئة التحرير والمؤتمر الوطني وذهبت مع السعداوى الى ليبيا .. رغم أن أبا القاسم كان لا يتفق في الخط السياسى مع السعداوى لامور وملابسات الا اني حافظت على صداقة أبى القاسم الباروني وقدرته رغم شدة نقده وصلابة موقفه . وقد قلت له بعد عودتي من الجولة الاولى :

— اسمع يا استاذ « واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » .

وكم اعجبه هذا الاستشهاد ، وأخذ يشد على يدى وعيناه تذرفان الدموع مؤكد ان الوطن مازال في حاجة الى زعيم وقائد. كان هذا الكلام عام ١٩٤٨م.

كان منتسبا الى رواق المغاربة بالازهر لكنه لم يكن يواظب على حضور الدرس بالجامع الازهر ،بل كان يكتفى بتسجيل حضوره بواسطة المراقب والمسئول عن قائمة اسماء الطلاب . ولكنه كان يهتم كل الاهتمام بالكتابة في ميدان السياسة وتتبع القضية الوطنية في المحافل والندوات والصحف ، وقد يبادر بارسال برقيات احتجاج أو يسهم في ارسال البرقيات الى رئيس حكومة ودولة ومن جيبه الخاص أو من قوت الجراية ،يقتطع ثمن برقيات الاحتجاج واسماع صوت الشعب الليبي. كان يمارس السياسة وتتبع القضية كفرد مؤمن واع ، ولكنه اكثر حيوية ونشاطا من مؤسسة أو جماعة .

كانت قعدته المختارة — في غير مقهى متولى — الذى يكلفه الجلوس فيها قرشا أو قرشين ونصفا ... فوق المصطبة الخشبية عند دكان مكتبة فهمى قرب دكان جعفر الفوال ودكان الحناوى البقال والعطار التى هى مواجهة ومجاورة للازهر أو مجاورة له من ناحية مسجد محمد بك ابو الذهب قعدته وجلستة على المصطبة الخشبية لا تكلفه شيئا من المال ، وقد يدردش

ويثرثر في السياسة وغير السياسة.. ، فمثلا مرور بنات البلد وهن يطرقعن باقدامهن الشبشب المحلاوى . ويطرقعن في اشداقهن المحمرة . أو المشرية بسمرة اللبان — المجلوب من جاوة وسومطرا والمشتري بملاليم من الحمزاوي والغورية (قبل انتشار موضة المستكة الأمريكاني) ويتبخترن في دلال وغنج وعلى رءوسهن مائسات مائجات المنديل ابو اوية والشراريب ، والترتر اللاصف ولفته الجيد، وهمسة العين ، والكحل المزجج للعيون والحواجب والشفاة العنابية كل الالوان الطبيعية والمصطنعة ذات الاثارة للشعراء وللمحرومين ، وكل من فيه عرق أو بقية عرق يبصبص أو ينبض قلبه للجمال ولو من بعيد .

ولو ... منظر الرغيف ، لا قضم الرغيف !!

منظر اسراب المائسات في الحى الشعبي بالملاءات والبراقع واللفائف والوجوه المكشوفة . لم يشاهد هذه الاسراب حتى عمر بن ابي ربيعة وامثاله من الشعراء المحتكين بالغادات والغواني في الأمس البعيد .

ضاعت المائسات أو الطائفات حول البيت وبقيت حرقات وتأوهات عمر بن ابي ربيعة .

وضاعت طرقعات اللبان والشباشب والتاوهات المكتومة في غوابر تلك الايام .وما اشد زحام الحياة وتلاطم العواصف والامواج !! كانت العيون تتابع اسراب فتيات الحى في صمت بليغ أو ثرثرة غير بليغة ،وقد تصدر آهة أو تصاحبها كلمة موجزة — يا صلاة الزين على الحلوين — .

وان كان اهتمام صاحبنا هذا بالسياسة والتعليق السياسى اكثر من تعليق بعض هواة الادب والفن على هذا السرب الماشى عند الاماسى. يا انا يا وعدى يابنت الإيه .. يا ارض احفظى ماعليك !!

أو يختار جلسته في بعض الحالات عند مدخل الرواق الخارجى عند باب الازهر .. عند البواب عبد الله الدرويش .

أو هو تراه يسأل في الحاح ولهفة الجيران عند بوسطجى الرواق حامل الرسائل عملك الشيخ « على مونس » ...

أو زميله في خدمة الرواق وابن عم مونس أو بن خاله « عبد الرحمن » وعملك مونس كان يحتفظ مع الرسائل والخطابات بقوائم الجراية — والستين والبرادة — وما شابه أو تفرع من هذه الاشياء .

ومع أن أبا القاسم كان ازهريا ويعد من الشيوخ — تراثا وثقافة وانتسابا لكننا طيلة مشاهدتنا له في الرواق لم نره يرتدى — يتعمم بعمامة ولا يتزعبط بزعبوط . ولا يتقفطن بقفطان كالمشايخ اصحاب الجبب والقباءات ولكنه متطربش ، أى يلبس الطربوش ، أو متفندم — أى من زمرة الافندية — ومتحسر — أى حاسر الرأس حليق الذقن .

والعمامة يبدو انه طوح بها من المرحلة الاولى لانتسابه، وقد رأينا له صورة بالعمامة عندما قدم من الجبل — أو من جامع الزيتونة بتونس .

وكان يكتب ويخطب ويحاضر — ويناقش ويناكف — وهو يجيد في كل هذه المجالات .. هو بارع بالنسبة لذلك المحيط والمستوى آنذاك .

وكان له بجانب هذا خواطر من الشعر .

وان اطلقت عليها تفكها — خترفات من الشعر .

فقد كان شعره دون المتوسط باسلوب النقدالمجامل أو هو شعر أقرب الى الرداءة منه الى دنيا الشعراء والشعر أن اردنا النقد العلمى الصحيح .

وقد صارحته بهذا . ولكن بعد أن قدمت بمدح وثناء على كتاباته الوطنية والسياسية ، وكنت صريحا في قدحى ، صادقا في مدحى ، وفرح بالاولى وغضب من الثانية ، وقال مازحا — مجلجلا في قهقهتة المدوية :—

— اوه يا صديقى أخذت باليسار ما اعطيته باليمين ، أو محوت باليسار ما قدمته باليمين .



طارق الأفريقي

مجاهد فى كل معركة





دوماً اللقاء الأول لبعض الشخصيات والنماذج لاينسى ،يظل محفوراً في الذاكرة ، تجتره الذكريات ، وإن جرفته الأيام وتوارى خلف آكـــام الأحداث .

لاسيما النماذج التى ارتبطت بفكرة واتصلت بمعنى ، أو كانت ذات ملمح خاص من ملامح الحياة ،

في أواخر الأربعينات من هذا القرن ، وعندما عدت من جولتى السياسية مع هيئة التحرير في ليبيا ، وكنت أتردد على منزل الزعيم المجاهد « بشيـــر السعداوي » .. تعرفت بهذا الرجل العسكري المجاهد .. النشيط ..المثقف.. الواعى ،

وكان اللقاء الأول .. في حي « الدقي » قرب مستشفى مورو ..بالقاهرة، وكان في صالون السعداوي مجموعة من رجالات العرب في تلك الآونة.. أذكر منهم البطل المجاهد « عبدالكريم الخطابي » وأخاه الفقيه محمد — ومن أعضاء مكتب تحرير المغرب العربى الدكتور تامرالتونسى شهيد الطائرة مع زميليه على الحمامى الجزائري ، وبن عبود المغربي ، —وهو أخو الدكتور المهدى بن عبود صديقنا والمحاضر العالمالمفكر المعروف .

وكان هناك ايضا الحبيب ابورقيبة يواصل كفاحه من مصر ..في حركة دائبة ، والحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين ،

واللواء صالح حرب ، ومنصور قدارة ، مدير بنك الأمة العربية وأنماط أخرى من سياسيين وصحفيين .. والصالون مزدحم بمثل هذه الوجوه .وكان بشير السعداوي كعادته حلو الحديث متشعب السمر ، متيقظ الذهن ،وفجأة دخل رجل رفيع القوام .. مرفوع الرأس ، سمهري الوجه ، خفيف الحركة.

لماع النظرة ، .. وقام الكل في احترام يحيونه .

سلام وترحيب لايبدو عليه التكلف ، ولاالبرود العادي ،بل تشعـــر من بسمة اللقاء .. وهزة اليد .. وإيماءة الرأس .. وإشراقة الوجه .. تشعر فيه بالاحترام والتقدير من هؤلاء أصحاب المكانة النضالية .. وأصحاب الماضى والخبرة ..

ومن هذا !؟ من هو !؟

وشعر الزعيم السعداوي بفطنته .. كأنى أتساءل .. من هو !؟

وبادر وقدمنى اليه بعبارات التقدير والتشجيع وأشار اليه :

– هذا هو طارق الإفريقي الذي سبق أن حدثتك عن جهاده وكفاحـــه في سبيل هذه الأمة ،

. . .

كان طارق الإفريقي شعلة من التحرك ، والتوثب . وسرعة البديهة ... كان بعضهم يدخن السيجار ، أو ينفث خيوط الدخنية ولكن طارقا كـان لايدخن . بل يتأفف من جو الدخان ،

وقدموا اليه فنجان القهوة .. وكوب الشاي ، فرفض أن يحتسي شيئاً..

فهو لايدخن ، ولايحتسى القهوة ولايرتشف الشاي. لم يعود نفسه على هذه الأشياء .. بل ولايشرب حتى المثلجات والفوارات والمياه الغازية ،،.. بل هو أيضا نباتي .. لايقضم اللحم ولايمصمص العظم ، ولايمشمش المشمشات.

فهو رياضى قاس على نفسه في رياضته وسلوكه .هو حازم في قسوته مع نفسه ، حفاظاً على صحته ، وتوازنه ،

ولايسهر – الا لضرورة عمل ، فلا تطلع عليه الشمس وهو نائم ،

لايدخل سينما ، ولامسرحا .. ماأكثر لاءاته !

ويرى كثرة المنفيـــات والممنوعـات دليل الصحة والعافية ،

ولولا وقار الجلسة والحشمة من هذه الشخصيات كدت أقول لـــه النكتة أو الفكاهة المعروفة عن شحص مثله .. قاس على نفسه .. إنسانجلمدي لاهواية له ، ولاغواية ،

– أمال أنت عايش ليه !؟

ولكن احتراماً له وحياء لم أقل له هذا جهراً

هو من نوع غريب فريد .. نباتي ، مائي ، هوائي ، ..

أسبارطي من غير عنف مع الناس ،

ولقيته بعد ذلك اللقاء – في تلك الأيام – في إدارة مصرف الأمـــة العربية في مكتب مديره « منصور قدارة » .. وكان المصرف في أفخم شوارع القاهرة قرب تمثال مصطفى كامل في وسط القاهرة وكان عبدالحميد شومان الاقتصادى المعروف –

(المعروف عند الاقتصاديين لاعند الأدباء والقراء) ..

قد شيد وكون مصارف ومؤسسات مالية في بلاد الناطقين بالضادوغيرها من حروف المعجم . وجعل صهره « منصور قدارة » أحد المسئولين في الإدارة المصرفية .

ولكن .. منصور قدارة .. الزليطني الأصل .. الليبي الوطن ، المجاهد ،

المهاجر ، جعل من مكتبه بادارة المصرف بالقاهرة ملتقى للسياسيين والمناضلين ، لقضايا العروبه والاسلام ،

من طنجة لفرنجة ، ومن اندونيسيا لحدود روسيا ،

ومن بلاد الهوسا .. ومن الذين ناضلوا في صدق المؤمنين ،

وصمت الجادين ، وكان طارق الأفريقي من المترددين على مكتب صديقنا منصور قدارة .. وكان على صلة بقضايا أفريقيا وآسيا .. وكان طارق الأفريقي قدم من دمشق التى تضم رفات البطل الكردي العظيم صلاح الدين الأيوبى بطل الإسلام والمسلمين ، وكان طارق بحماسه الملتهب متطوعاً لقيادة شباب المتطوعين في حرب فلسطين في جولاتها الشعبية المخلصة

قبل أن تفرض الأنظمة الحاكمة ، والأدمغة المقلوبة ، كارثة الهدنة وما تبعها ولحقها من كوارث ونكبات ونكسات ، وهزائم شنيعات ،

وما اشتق من هذه المواد والمصطلحات التى جعلت جبين العرب في الوحل ، وليبيا أوان ذاك ١٩٤٨ م لم يكن لها كيان ولابنيان سياسي .. إنما هناك شعب خرج من حرب كونية ودخل في دائرة الإدارة البريطانية ، والفرنسية ،

وتتلاعب أعاصير السياسة الدولية بمقدراته ، ورسم مستقبله ، ومع كل هذا ، في عمق الشعب ، بإحساس الشعب بدافع العقيدة الإسلامية والدفاع عن حرمات الإسلام والمسجد الأقصى ، بالوجدان الأصيل هرع الشباب والرجال الى خوض المعركة .. وكان قد تطوع ايضا وساهم من الشباب الليبي المهاجر

في مصر وبلاد الشام ، هرعوا الى الساحة عن طيب خاطر . . . . ولازالت الناس في هذا الوطن تذكر كيف تكونت من صفوف الشعب وفئاته مكاتب للمتطوعين وكيف كانت تسير طوابيرهم عبر الحدود الى هضبة السلوم حيث كانت تستقبلهم معسكرات ويذهبون الى خطوط النار ... من زملاء الشهيد بشير الناجح الطرابلسي وبودبوس المصراتى من شباب المهاجرين بمصر وعشرات من الشهداء الأبرار المجهولين

وشاهد الشباب الليبي المتطوع هذا الضابط الأسمر النشيط ،

المتدفق حيوية .. والمتقد إيماناً .. طارق الأفريقي

كان يحفظ الخطبة النارية المنسوبة الى سميه طارق الأول ..

ويود تطبيقها وتنفيذها — لكـن لاأسطول له .. والأمر ليس في يده إنما في يد أدعياء سياسة مهاويس مفاليس متاعيس ، جروا أنفسهم وغيرهم إلى هوة هاوية ، ..

ذلك المجاهد المغامر الغيور — الذي أصبح مغموراً .. قد لايعرفه أبناء هذا الجيـــل وقد ولد .. ودرج .. وختن . وتربى ودرس في شبابه الأول في طرابلس الغرب .

ودرس بتركيا — قبل انقطاع شعرة معاوية ،

ودرس بالمانيا ، وجاب الكليات العسكرية بأو ربا ،

هو من مدرسة الصراحة والوضوح والإيمان ، من حملة السلاح في صمت الصادقين . يلبى الواجب النضالى في ايه ساحة ولو كانت بعيدة عن مسقط الرأس أو مسقط الرجلين ، ..

وساهم في حرب الجهاد في وطنه طرابلس .. وناضل في ربوع الشام .. بل أيضاً في حرب البلقان .. وفي حرب الحبشة ضد الطليان ،

وفي أرض فلسطين كان من اوائل المتطوعين عام ١٩٤٨ م
وكان برفقة زميله الشهيد البطل ، المؤمن من غير هرج ،

الصادق من غير صخب ، الفارس الرجل – « عبد القادر الحسيني »
وكان من زملائه أيضا المجاهد البطل الشهيد « حسن سلامة » المؤمن الذى أغفله مزيفو التاريخ من المهرجين في ألاعيب السياسة ، الفرقعية ، البرقعية ،

. . .

من مواليد عام ١٨٨٦ م

وقد عنى به واهتم بتربيته « الماس » أو « الماز » أفندي أحد الذين كانوا مع رجب باشا وأمثاله ، ..

ومن طفولته عرف بالذكاء واللباقة والإدراك .. و رج من المدارس العسكرية بطرابلس في أواخر العهد العثماني ، وأكمل دراسته بتركيا وساهم في الدفاع عن طرابلس عام ١٩١١ م

حارب الطليان من مناطق بن قردان – الى هضبة السلوم –
وكان على صلة بالمجاهد أحمد الشريف
كما ساهم في حرب البلقان عام ١٩١٢ م كضابط عثمانى
وايام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ م – ١٩١٨ م

وقدم الى سوريا مع الداماد أحمد نامى في أحلك ظروف سوريا. كان ذلك في مطلع عام ١٩٢٦ م – والثورة السورية على أشدما تكون ضراوة ضد الفرنسيين .

عمل طارق الأفريقي مع الثوار السوريين كما عمل مع مجاهدى طرابلس. .
كما قاوم الإنكليز والأوربويين في بلاد العرب ومناطق البلقان ، ايـــام ارتباط المسلمين بأواخر خيوط الخلافة ، ...

وجاهد طارق .. بكل امكانياته ضد الطليان في الحبشة .

وركب البحر عام ١٩٣٦ م لنصرة الأحباش ضد الدوتشي « موسليني » المستبد الديكتاتوري ، الذى كان في تلك الآونة ترتعب منه عواصم أوربا..

ويتزلف اليه ساستها .. كانت تخشاه .. لندن . وباريس .. وبرلين .. ومدريد وغيرها .. لكن طارق بهمته حمل السلاح متطوعاً ضد الطليان ونازلهم .. دفاعاً عن حرية الأحباش ، ،

صفحة نضالية يجب ألاتطوى .. بل تذكر بكل فخر .. وتنشر بكل اعتزاز .. حارب كل الوان وأجناس الاستعمار ،

* طغيان الطليان — في طرابلس .. والحبشة
* تدخل الفرنسيس — في سوريا
* عنصرية الصهيونية — في فاسطين

وهكذا نازل الاستعمار وحاربه في كل جبهة .. بالسلاح ، لابالكلام..

ماأسهل الكلام .. ماأرخص الادعاء والكلام..!!

اما هو .. طارق الأفريقي ، فعسكري مجاهد .. مؤمن مناضل .. قارع الاستعمار الطلياني — والإنكليزي — والفرنسي ، والصهيونى —

،.،.،.،.،.،.

حضر المؤتمر الاسلامي الأول المنعقد في بيت المقدس لدراسة القضايا الإسلامية والعربية ، كان ذلك عام ١٩٣١ م

وكان لهذا المؤتمر دوي وصدي . وتأثير قبل أن تتكاثر المؤتمرات السياسية والشكلية حتى فقدت معناها .. وماعادت تهز وترأ ،

وحضرت المؤتمر الأسلامي شخصيات كان لها دورها النضالي من مصر والعراق والشام وبلاد الهند الإسلامية — قبل تكوين الباكستان— . وفلسطين

وبلادالشمال الأفريقي وكان من ليبيا الزعيم بشير السعداوي ، ومحمد طارق الأفريقي وكان الافتتاح مساء الأحـــد ٤ شعبان ١٣٥٠ هـ – ١٩٣١ م

. . . .

عندما غزت قوات اسطول الطليان بلاده طرابلس كان طارق الأفريقي في ريعان فتوته ، وشاباً في ريان شبابه .. عسكريا حديث التخرج لم يودع الخامسة والعشرين من عمره

وخاض المعارك في الشطوط ، والآكام ، والحدود ،

وكان من اصدقاء سليمان الباروني وأمثاله ،

وقد كتبت الظروف والمقادير على هذا الضابط المجاهد الايترك سلاحه من يوم أن تدرب عليه ، ومن يوم أن استعمله في الساحة عملياً .. الى يوم أن صرعه الدهر طريحاً مقعداً على فراش المرض في دمشق ،

وكان كجندى مجاهد ومسلم غيور يبحث عن الاستشهاد ويسعى الى ساحته ، خواض معارك .. ولكنه .. مات .. موتة خالد بن الوليدالبطل الذى مات طريح الفراش .. متألماً .. ممتعضاً . من هذه الميتة في نفسه حسرة .. ان يفارق الحياة على فراش السرير .. كان يود أن يلاقى ربه وفي صدره غرسة من سلاح ساخن لحظة الموت ،

. ، . ، . ، . ، . ، ٠ ، ٦ .

في بداية ١٩٤٨ م – وقبل أن تدخل متداخلة جيوش حكومات سبع .. سبع دول عربية ... ياللجبين الملطخ بالوحل ؟

وقبل هذه البيارق .. طلب الحاج امين الحسينى المفتى ورئيس الهيئـة العربية العليا من صديقه طارق الأفريقي الطرابلسى أن يشترك معه في عمليات المقاومة والجهاد – وبادر طارق بتلبية الطلب – انه يتوق لهذا .. سلاحه في يده ، وإيمانه في صدره ،

وعن طيب خاطر لبى الدعوة .. دعوة الاستنفار — كما حكى لأصدقائه وتناثرت ذكرياته في مجالسه الخاصة

وفي سطور ذكرياته ، ومن أرض الشام توجه فوراً الى يافا ،

وعمل كمستشار حربي لقائد منطقة « يافا » البطل الشهيد

المنسي — (وما أكثر ماينسى هؤلإ العرب !) ...

الشيخ حسن سلامة .. ولم يكن حسن سلامة خطيب ميكروفونات — ومهرجانات .. وتصريحات . . وبوزات تصوير ..

لم يكن من مناضلى الفنادق ، بل كان بطلا حقيقياً .. ومجاهداًعملياً .. قد لاتعثر له ولأمثاله على تصريح وتلويحات حنجرية ،

وعنتريات ورقية ، ..

وعندما اشتدت الهجمات ضد سكان القرى العربية من جبهة « غزة » قررت اللجنة العليا تعيين — طارق الأفريقي —قائداً لها .. فسافر طارق مع البطل الشيخ حسن سلامة ..

.. الشهيد .. نعم الشيخ حسن سلامة .. وفي ثرى فلسطين كم من شيوخ ، أحرار ! !

توجه الشيخ حسن سلامة من يافا الى المجدل في ٤ آذار ١٩٤٨ موسلم الى طارق الأفريقي المنطقة وعمل الضابط المتطوع على تكوين جبهة فيها .. بسلاح بدائي ، وايمان وظروف غير متوازية ، ومن المعارك التى خاضها طارق الأفريقي مع أهل البلاد وشباب المتطوعين .. معارك جبهة غزة

الفالوجا الأولى ٣ مارس ١٩٤٨ —

الفالوجا الثانية ٤ مارس ١٩٤٨ —

معركة المجدل — ١٧ — مارس ١٩٤٨ م — وكان معه زميله المجاهد حسن سلامة

معركة جولس الأولى — ٢٢ مارس ١٩٤٨ م

معركة بربرة الأولى — ٢٤ مارس

معركة بربرة الثانية — ٢٥ مارس ،

معركة أسدود وبربرة في يوم واحد — ٢٦ مارس

معركة بيت دارس الأولى — ٢٧ — مارس —

معركة اسدود الثانية — ٢٨ — مارس— معركة أسدود الثالثة ٣١ مارس—

معركة قرية جورة — ٦ نسيان — معركة اسدود الرابعة ٨ مارس—

معركة بربرة الثالثة — ١٠ أبريل — معركة معسكر جولس الثالثة١٢ أبريل

معركة معسكر جولس — الرابعة والخامسة — ١٣ — ١٥ — أبريل

هذه من نوع المعارك الرئيسية التى دارت بين المجاهدين واليهود في مناطق غزة ..

وعندما يسرد طارق الأفريقي ذكرياته الشفاهية والورقية ويسجل أسماء هذه المعارك لاينسى أن يذكر وطنية سكان قضاء المجدل للدفاع عن وطنهم ورئيس بلديتها أوان ذاك « أبوشرح » رغم نقص السلاح وتهاون بعض الناس.

لقد باع أبناء الشعب مصاغ السيدات والبنات وأرسلوا لجنة من خمسة أشخاص براً الى مصر .. لشراء الأسلحة والذخيرة وجلب العتاد .. ويمضى طارق في سر ذكرياته مشحوناً بالألم العميق من تصرفات المسئولين العرب، أوان ذاك ..

يقول طارق الأفريقي :

(... على أني شعرت بعدم إمكان مواصلة الكفاح ضد اليهود في الظروف السيئة المحيطة بنا — فكرت كقائد مسئول فيما يجب عمله بوجه السرعة ، فبادرت بإرسال وفد الى مصر لشراء الأسلحة والعتاد على حساب اللجنة الخاصة — وصل وفد قيادة جبهة غزة الى القاهرة بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٤٨ م بعد أن حول النقود اللازمة الى أحد بنوك مصر لشراء السلاح ، وبعد مصاعب جمة قدم مطالبه الى رئيس الهيئة العربية العليا — الذى كان مشغولا جداً بحضور اجتماعات اللجنة السياسيه لجامعة الدول العربية ورجال حكومة مصر لعقد الهدنة الأولى ، لوقف القتال في فلسطين ..)

لقد صدم طارق الأفريقي بالعبث العربى وعدم الجدية في تلك الظروف

(.. ومضى على وصولنا للقاهرة والاتصال بالهيئة زهاء اسبوعين ولم نصل خلال هذه المدة الى أية نتيجة بينما كانت المعارك ما برحت مستمرة ليلاً ونهارا في الجبهة »

(.. وأدركت هذا واتفقنا على شراء الأسلحة من تجار ..

وتمكنا فعلا من شراء كمية من الأسلحة والذخيرة ولكن مع الأسف لم نتمكن من إرسالها لفلسطين) ..

ويتصل بالنقراشى باشا فماذا يكون الجواب ؟ وكيف سقطت الأقنعة ؟

(... واتصلت بالمرحوم النقراشى باشا وأفهمته أسباب زيارتنا فأجابنى بالحرف الواحد ،

— ليس في استطاعتنا قبول طلبك بنصوص الإرادة الملكية فاروق ، التى تمنع منعاً باتاً السماح بإرسال الأسلحة الى فلسطين إذ أن لدى الحكومة المصرية الأخبار الخ)

وكان من أمر فلسطين ماكان !

وعاد المتطوعون يلعنون الأوضاع التى حالت دون استمرار الجهاد .. عاد طارق الأفريقي ليسجل أول ذكريات صادقة من نسيج الحقيقة والواقع .. لاتحكى بطولات مبالغة ولاثناء كاذبا ، ولانرجسية ، ولاأرتزاقا بالقضية .

بل كان المجاهد طارق الأفريقي من أوائل الذين نصحوا .. وحذروا .. وأنذروا .. بصدق عندما سرد ذكرياته وحكى مشاهداته في الميدان العسكرى والمجال السياسي

وعاد الى دمشق بعد ان كشف كثيراً من الحقائق للقيادت المسئولة محذراً منذراً من هول الكارثة وتوابعها ..

ولات سامع ! ولات مصدق .. ولات جاد !

وعكف ليحرر المؤلفات العسكرية التى تهم أهل السياسة والنضال .ومن مؤلفاته : —

١ . — عن حرب فلسطين

٢ . — الغازات السامة

٣ . الجزيرة العربية

٤ . رحلة طارق الى الحبشة — ولم تكن رحلة سياحية

انما خاض حربها متطوعاً ضد إيطاليا كما أشرنا .. وهى من الوثائق النادرة عن تلك المرحلة

* وعمل كرئيس اركان الجيش العربى السعودي فترة من الوقت

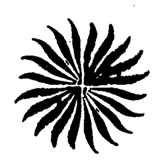
* وفي الميدان النضالى ايضا عمل مع لجنة الدفاع عن برقة طرابلس ، او اللجنة التنفيذية للجاليات البرقاوية الطرابلسية بدمشق ، كان صديقا لفوزي النعاس — وبشير السعداوي ،وعمر شنيب ،

* والف بعد عودته من الحبشة عام ١٩٣٧ م كتيباً صغيراً استقى موضوعاته من حرب ايطاليا في بلاد الأحباش ...

* حرب العصابات المعروفة بحرب « الغوريلا » في المصطلحات الفنية العسكرية .

• واهتزت أعصابه المتوترة .. وشل في أواخر عمره .. ظل طريح الفراش مشلولا من عام ١٩٥٢ م وتوفى بمدينة دمشق يوم الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى ١٣٨٣ هـ — ١٥ اكتوبر ١٩٦٣ م ودفن في مقبرة — باب صغير — في موكب حضره زملاء السلاح وبعض من رفقة الميدان والقى كلمة المحاربين القدماء وضحايا الحرب في سوريا العقيد المتقاعد (محمد شفيق حمدى السندي) ..، **مجاهدان في ساحة الشرق .**

طارق في دمشق ١٥ أكتوبر ١٩٦٣ — وجمال الدين الميلادي في ١٣ نوفمبر ١٩٦٣ م في أزمير وتوارى مجاهدان في دائرة النسيان والظل .



شيخ المقرئين





الذين يحفظون كتاب الله في العالم الإسلامي كثيرون – والحمد لله – والذين يجودونه ويرتلونه ، وينغمونه بأصوات عذبة حسنة ، كثيرون –

والحمد لله ، . .

بل هناك – في العالم الإسلامي – في بعض العواصم والبلدان من أثرى ، وأترف ، من فنون التلاوة والتجويد ،

وله أسطوانات ، وأشرطة ، ورحلات وقصور ، ودور ،ولياليـــه التي يحييها في حفلات وسرادقات ، الحجزلها مقدماً .ومستشاره يتفاوض معك لزحام برامجه ، وبعضهم غدا في أخباره وصوره نجماً مـــن نجوم المجتمع

وحسن هذا .. وقد يكون تقديراً طيباً من المجتمع ,

ومكسبهم حلال ، زلال .

لكن يجب الاننسى في هذا المضمار والمجال .. في هذا الدرب اولئك الرواد المناضلين .. المجاهدين في أحلك الظروف .. فهناك صنف في تاريخ النضال الثقافي قد لايهتم به الدارسون .. ولايلفت نظر الراصدين للحياة الاجتماعية في تاريخ هذا الشعب المسلم .. المؤمن ،

اولئك الشيوخ المتبتلون الذين حافظوا على كتاب الله في ظرُوف التألب، وعوامل القهر والتغلب في العالم الإسلامي ، ايام الإلحاد والزيغ .. أيام الفرنسة والطلينة ، والليتنة — (نسبة اللاتينية)

أيام سياسات التمغرب والتأورب . والتنصل والتنصر وفترات الاستبداد الاستعماري — وأسواق التقبع ، والتقنبع ، أيام الشد ، والجر ، والانحراف والانجراف الى العواصم البعيدة — أيام الغزو الثقافي ، والكفر الفكري ، باقتلاع الجذور ، ونشر البثور ، والاستهتار بالقيم ،

أيام أن كانت الثقافة الاسلامية بضاعة مستترة يصنعها يهربها .. يتدرب عليها ، يعانقها ، يلهج بها .. المدجنون ..

كالمدجنين في أيام الأندلس — بعد شحوبها وغروبها — وصقلية ، وماوراء البحار .. وماوراء النهرين .. وماوراء السدين ، اولئك المجاهدون .. المرابطون .. حفظة كتاب الله .. في تلك الظروف القاسية ... الآسية ،. الآسنة ، ..

هم كتائب وقلاع .. وحصون .. يحفظون أطفال المسلمين وبناتهم كتاب الله حفاظاً على الحرف ، وعلى مضامين العقيدة من الزيغ والتميع . والتصيع ،

والجهاد ليس حمل السلاح فقط ، وليس مواصلة النضال في السياسة فقط ، بل الذين حافظوا على كتاب الله وحفظوه للناشئة ، الذين رفضوا التجنس . والتحلسوالتقلص ، الذين بروا الأقلام ليخطو للأطفال الفاتحة

وماوراءها من آيات وسور .. في السطور والصدور .. أولئك ايضامجاهدون.. حفظواكيان الأمة حتى وجد الناس فيها .. لغة . وبيانا .. ونبضاً .. وإحساساً .. وعقيدة .. ومقومات شعب ، وحيوية أمة ،

ولولاهم .. لولا أصحاب الكتاتيب ، وحفاظ كتاب الله الكريم لضاعت الأمة . وتبرنط الناس ، وتهجنوا ..

ومن المناضلين في هذه الساحة .. وعلى هذا الدرب

الشيخ مختار حورية .. وفي عام عودتى الى وطني ،العام الذى كتبت فيه مقال « لبيك وطني لبيك » .. أيام الإدارة الأنكليزية تعرفت على وجوه من أهل المجتمـــع في طرابلس .. كان من طـــلائع هذه الوجـــوه النيرة الصادقة شيخ المقرئين — مختار حورية ،

كان قارئا ممتازاً .. وعند سماعك له تالياً تشعر بهزة الإيمان يحوط بك حنان عاطفي في آيات الوعد والرضوان والرحمة والغفران .. كأنك تشعر بروح وريحان وتحس بأشياء فوق الحواس ..

وعندما يتلو آيات الإنذار والعذاب والتحذير تشعر بأداء وتلاوة فيها هزة روحية وقشعريرة كأنما تزلزل أعماق الأعماق ، وتشعر بخشوع ورهبة ..

رهبة الخوف من الله .. إحساس هو فوق التصور والتعبير كأنما في دمك فوار يلهب ، وكهرباء لها انتفاضة وهزة تكاد تصفعك .. وكأن الكلمات، إيقاعات على العروق تحدث زلزالاً داخلياً وفيضا من المشاعر متدفقاً ، كأن الآية الكريمة نزلت ساعتها .. كأن الخطاب موجه اليك وحدك .. كأن ليس بينك وبين قدس الأقداس وعلو الأعلى حاجز وحى الله الذى .. (لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكم حميد)

: : :

والشيخ حورية في صولاته وجولاته وتحليقاته يتهدر ..

ويتهدج .. وينهمر وينحدر .. ويقترب ويبتعد كأنما أنت طفل تهدهدك أم رؤوف .. بحنان رؤوم .. ويد معطافة حنون ، لكن هـــى هدهدة

لاتبعث راحة الإغماض .. بل اليقظة التي تخاطب النفس بلاحواجز .. ليس تخديراً ، إنما هو أنعاش وخطاب روح لروح ،

وهو يتلو متمكناً من أصول التلاوة ، يتلو بالمد الطبيعي والمد العادي .
كانت لأصابعه عند التلاوة هزة لاشعورية أو هي عمق الشعور .. له في التلاوة وقفات كأنما يشد بها الانتباه شداً .. أو يلفته لفتاً .. يسمونها في ضوابط التجويد ــ السكتة اللطيفة ــ ثم له انطلاقة كأنما يحلق بها في الأجواء تحليقاً ،

وقراءة هؤلاء المجودين من أهل فن القراءات بجانب الصوت الموهبة قيدت أيضاً بتعاليم وقواعد التجويد ،

والشيخ حورية لم يكن فيه تصنع المطربين ، ولا تماوج المتكلفين .. المتأوهين .. ولاخروج على قواعد التجويد والأصول لأنه إيقاع للتأمـــل والاعتبار والفهم .. وليس إيقاعاً لمجرد التصويت والتطريب ، فلولاهذه القيودات التجويدية لانطلق صوت التالى والمقرىء الى أبعد قراراته وأبعد انطلاقاته .. ولأنقلب من تال ومرتل .. ومقرىء .. الى مغن ومطرب .. ولكن بين هذا وذاك .. وذياك .. لقاء وفراق واجتماع في ناحية ، وتفرق وتمايز في أنحاء .. والضابط ، والفيصل هو قواعد التجويد . وضوابط الترتيل ، التي حفظت فنون القراءة والتجويد من انزلاقات التميع ، وانسياب التطريب ،

والقواعد والضوابط لفنون التلاوة والتجويد جعلت للقراءة دائرة لها هيبتها .. ورهبتها .. وأصالتها ،

وهذه القواعد والضوابط هى موازين رسمت الإيقاع في حيزه وطبيعته ليكون الفرق والتمايز بين التجويد والغناء .. والاعتبار والتلهية ، والترتيل والطرب ،والمقرىء والمغنى ، ــ وقد ميزت كل هذا وحفظته من التسيب تلك الأصول العلمية ، والقواعد الفنية ، لفنون التجويد وعلوم القراءات ،
ورحم الله الامام الشاطبي وأمثاله ومن سار على منواله ، ..

وتشعر عند الاستماع للتلاوة كانما تغسل نفسك غسلاً ،

وتطهرها تطهيراً ، أو كأنما خلقت خلقاً جديداً في لحظات والزمن يذوب ويتلاشى . — لامقياس للزمن في عالم الإحساس ويذوب الزمن في دائرة الإحساس .. وتنبهر الأنفاس وتتحطم الحواجز .. وتنساب الآيات من المقرىء المجود وتنساب نغمات هذه الحنجرة كأنها أوتار مشدودة وقعت عليها الملائكة لحناً روحياً .. تحمله الكلمات الألاهية في الصمت الرائع . والإنصات الخاشع ،

. . .

قلائل من هبات الوهاب الذين يحتفظون بنغمة صوتهم وتدفق حنجرتهم الى مراحل الشوط الأخير من رحلة العمر ، والشيخ مختار حورية لم تصب حنجرته التجاعيد ولم تنقصها ولم يرخ الزمن وتراً أو حبلاً من حبالها الصوتية ،

وإن أصيبت جبهته بالتجاعيد ، لم يصب صوته بالتجاعيد ولاالشروخ والتراخى رغم توالي السنين . رغم غضون الجبين وتثاقل الأعوام .. ظل صوته في تلاوته وأدائه قوياً له بريقه ولمعانه وأصالته .. شاب رأسه وابيض فوده .. ولم يشب صوته .. لم ينكمش صوته بل على وهج الإيمان ازداد توهجاً .. وتدفقاً ..

وقد يكون للحفاظ على الصحة وتعاليم الشرع أثر وتأثير فلا دخان ولاسهر .. ولامتعات من أودية الحرام ..

ولاحشيش . ولاتغشيش .. ولاكاس . ولاطاس ، مما يرهق وتترهل معه الأصوات ويجنى على المواهب الطبيعية

عفواً .. مواهبهم الإلهيـة .. وعندما يقرأ مختار حورية تشعر في رحاب التلاوة بحنان عاطفى ولديه المقدرة الفائقة على مانستطيع أن نطلق عليه (التصوير الصوتى) ..

وأداء التعبير .. والنبرة المميزة .. في حروف الهمسوالإشمام .. والغنة وما في مخارج الحروف من إبداع العطاء الصوتي ، والإلهام التعبيرى،

كان مولد مختار حورية بمدينة طرابلس عام ١٨٨٨ م وحفظ القرآن الكريم بخلوة سيدى « بوكر » بمنطقة « الضهره » وكانت الضهرة رابية من روابى مدينة طرابلس .. وحياً من الأحياء التى تزدحم بالناس وتموج بالحركة ..

وكان أستاذه الأول .. الشيخ .. الفزانى .. و المجبر ..

وأتم حفظ القرآن الكريم وعمره سبعة عشر عاماً . ثم ساعد شيخه بالتعليم في الخلوة ..

ومن منطقة « الضهرة » الى طرابلس . أوقلب المدينة القديمة .. كانت النقلة شوطاً أو مشواراً .. واتخذ من خلوة .. عبد السلام الأسمر بالمدينة القديمة مقراً للتعليم وتدريس كتاب الله — وخلوة عبد السلام كانت بـ « قوس المفتي .. »

لايزال القوس قائماً رغم انحنائه الهندسي .. وإن ذهب المفتى الذى نسبت اليه هذه الأقواس ،

كان هذا في أواخر العهد العثماني .. والذى كان فيه كر .. وفر

ومد . وجزر .. ومعايب لاتحصى : وحسنات لاتنكر ،

وجوانب حالكة قاتمة .. وجوانب مضيئة لاتغطيها سحب الإنكار أو الجهالة والتجهيل ..

حسنات .. وسيئات .. شأن المد التاريخي على هذه الشطآن المضطربة في تلك العهود المتماوجة

وعلى شاطىء طرابلس كان هناك بالمدينة كلية عسكرية تركية وكانت تحافظ على الشعائر والمشاعر .. واحتاجت الى مؤذن وإمام ، ولابد أنيكون

حنفي المذهب باعتبار أن مذهب السلطان الخليفة حنفي .. فالمناصب الشرعية من هذا المذهب التشريعي المفتى والقاضى والإمام والمؤذن ولابد أن يؤدى الإمام والمؤذن الامتحان في فقه ابي حنفية النعمان .

رضى الله عن الجميع ، .. ودرس الشيخ مختار حورية المقرىء مذهب أبى حنيفة النعمان وصاحبيه أبي الحسن وابى يوسف وامتحن في فروع الفقه الحنفى وقواعده . أمام لجنة من العلماء من أهل الذكر والفضل والاختصاص ، وكان اتصال الشيخ حورية بالكلية العسكرية بطرابلس رغم انه شيخ وإمام ومقرىء فرصة للاحتكاك بأهل العلم والأدب .والفن ، بل هى نافذة أو نقلة صقلته وأفادته في تكوينه واتجاهه الفنى والتربوي ، — والاحتكاك أو السماع والمشاهدة في مثل تلك الأجواء ذات الصبغة العلمية يولد التقليد والمحاكاة ، وبالتالى المناقشة و المنافسة .. ثم الطموح والرغبة في تلا في النقص .. والبحث عن الكمال أو التكمل والتجمل ،

ومن هذه الساحة ، ومن هذه النافذة تعرف الشيخ المقرىء على أهـل العلم والأدب ، واتسعت مداركه بالإنصات المرهف ، والمطالعة الجادة ، والتأمل المثمر والرغبة الجامحة .. والمواهب الفنية ان لم تصقل تتلاش وتذبل، وتذروها رياح الإهمال ، والشيخ مختار حورية قد شجعه وأفاده اثنان .. تركى ضابط — وفنان عراقي ،

. ضابط عثمانى متدين كان بالكلية العسكرية بطرابلس صاحب حس ووجدان

. اما الفنان فقد سبقته شهرته قبل أن يزور طرابلس وظل صيته الفنى يدوى في العالم الإسلامي هو الموسيقى العالم الملا عثمان الموصلي ، وكان له أثر في حياة الشيخ مختار حورية . وأبناء جيله .

وقد أعجب الضابط التركي بتلاوة الشيخ مختار حورية وصوته المؤثر وطلب منه أن يرتل القرآن الكريم في بيته وكان من العادات الطيبة في مجتامع

تحوطه العاطفــة الدينية تلاوة القــرآن في البيوت ، والمرابيع والسهريات.
وطلب الضابط من الشيخ أن يقوم بتعليم أبنائه القرآن الكريم وعندما وصل
الى مدينة طرابلس الفنان الملاعثمان الموصلي في مهمة من طرف السلطات
التركية وزار الفنان الموسيقى الكلية العسكرية واجتمع مع مختار حوريــة
واستمع اليه . أعجب به .. فنان يستمع لفنان ،

موهبة تبحث عن مواهب . وأعجب بالتلاوة والأداء .. والروح ذات التأثير
الوجداني ولازم مختار حورية .. أستاذه الملاعثمان الموصلي طيلة أقامته بطرابلس —
وكل فنان أصيل هو لأهل الفن صديق ، وقريب . وكانما تعارفا من يوم
أن خلقا بل إن قرابة أهل الفن والفكر أعمق من آصرة السلالة والدم .. —
مالم تكن هناك في دائرة التنافس والمعاصرة .. نزاعات أو نزغات —

وأوصى عثمان الموصلي المسئولين مقدراً لمواهب أدائه وكل ضابط
أو موظف عثماني في الولايات عرضة للتنقل والترحل .. أو عرضة للنفى
والإبعاد .. أو للعودة الى بلاده .. بعد التلويح والتطويح ..

عاد الضابط الى إسطامبول .. دار السعادة .. موئل الخلافه . وعرض —
تكريما واعجابا — على الشيخ حورية الرغبة في السفر معه الى تركيا . .
حيث الحياة أفسح . والعيش أرغد ، ومجالات الاتصال بأهل الفن والعلم ،

ألم تكن عاصمة العالم الاسلامي ، رغم الدسائس والوساوس ..؟! وتردد
الشيخ حورية .. الوطن غال .. وترابه أو أتربته عزيزة .. أيترك زنقــة
زعطوط .. وزنقة الريح الى اسطامبول .. والبسفور !؟ .. ولكن شجعه
أستاذه الشيخ عثمان الموصلي .. بل انه كان من المقترحين سفر حورية الى
اسطامبول ، وقد وجد فيها عثمان الموصلي راحة وهو قرين أبى العلاء المعري
في النظر لافي النظرة .. والاتجاه ..

وكانت نقلة .. من الضهرة ، وباب البحر ، وشط الهنشير (وبلاش
المثل الشعبى) .. الى اسطامبول .. نقلة مهمة بعيدة ، — ومهما كانت
رياشا أو انتعاشا فهى فرقة وغربة — وما سمع الشيخ عثمان الموصلى بهذا

التردد من صاحبه المقرىء حتى لكزة لكزه في صدره تكاد أن تكون لكزة أو وكزة موسى في صدر صاحبه

— . أتترك هذه الفرصة ؟ ارحل وسافر .. وتعلم .. وادرس ...

وفي الأسفار خمس فوائد .. والموسيقى والفن بكل الفوائد ؛ هل يمكن أن تترك الفرصة ولك موهبة ومستقبل ؟ .. وسافر الى اسطامبول رفقة الضابط التركى وعائلته .. وهو الشاب خفيف الظهر .. خفيف الحمل ،

وأقام مختار حورية في تركيا مدة عامين وهى فترة خصبة ...

عامان ولم يكمل رضاعه الفني .. وتشربه الفنى وشغفه ،

وتعرف الى عديد من اهل العلم والأدب والفن ،

وكان جنوحه الى عالم الفن أكثر .. ودرس علم الطبوع والألحان وفنون القراءات .. وكان من حسن حظه وفرصه المتاحة من الناحية الفنية أن اجتمع مرة أخرى مع الفنان الشيخ ، عثمان الموصلى .. الذى كان يعتبره أستاذه ،

وكاد أن يجعله مطرباً فنياً وملحناً موسيقياً مثل سيد درويش وعبده الحمولى والصفتى وأضراب هؤلاء .. من هذا النمط الفنى عمالقة الأنشاد والغناء والأداء والتلحين ..

والذين كتبوا عن سيد درويش أو الذين تعرضوا لترجمة الملا عثمان الموصلى اشاروا الى صلة وعلاقة عثمان الموصلى بالفنان سيد درويش وكانت صلة الأستاذ بتلميذه ..

وفي اسطامبول ولياليها الفنية تعلم الشيخ الطرابلسى العزف على العود أو زاد في مرانه ومواصلة تدربه .. وتعلم ايضاً العزف على آلة القانون .. ولعله من اوائل الطرابلسيين الذين أجادوا العزف على آلة القانون .. اذ كانت

آلة العود منتشرة حتى عند بعض البيوتات ذات الغمغمة والكمكمة .. والبنبوك ورواشن عين الزرزور .. من مشربيات لاتكشف العيون ماوراءها

كان الشيخ يوزع أوقاته بين التلاوة والأداء والفن ؛والمواهب الفنية أحياناً تتموج أو تتصارع في صدر صاحبها حتى تكون لإحدها الغلبة على الأخري .

كان لديه في مطلع تشربه واستيعابه ، الاتجاه الفني أو الميل الأغلب ، الأكثر جنوحاً .. وطموحاً هو الجانب الموسيقي والتلحين حتى إن الشيخ المرتل الحافظ والمجود المقريء عندما عاد الى موطنه بالباخرة .. طبعاً كانت أوبته مثل ذهابه .. . بحراً .. وهبط .. شاهد أهل الثغر في الرصيف في الميناء هذا الشيخ يتأبط .. أو يحرص على شيء ملفوف بعناية .. ضخم .. شيء لايستطيع أن يحمله معه تحت إبطه ولايريد أن يبتعد عنه .. ولايريد أن يدفعه أو يزج به بين الحقائب والجوالق .. والمكدسات والمكومات ..

يشفق عليه .. ؛ ترى ماهو ؛؟ هذا المسافر العائد غريب الزي والحركة غريب اللهفة .. ماهذا ؛؟ أهو زجاج يتكسر ؛؟ .. او لوحة تشوه ؛ أو هي ثروة يحملها معه من دار السلطان وباب السعادة .. شيء يخشى عليه من الضياع .. أو التهشيم ؛؟ ..

ويقول علماء النفس .. وغير علماء النفس — إن شدة الحرص والإلحاح وكثرة التوصية والتطلع .. قد تدفع الى سؤال الاستطلاع .. أو تساؤل الاستغراب .. والأهتمام قد يدفع الى البحث عن سبب الأهتمام أو منابعه وبواعثه وجذوره ؛

— . أي شيء هذا أيها الشيخ ؛ ؟

تساؤل شفاه رقيقة .. أو تلويحة يد خشنة وبلاعم أكلتها رطوبة الموانيء

— قطعتان من آلات القانون للعزف

ولم تكن هناك نواد ، أو مسارح .. إنما كانت البيوتات والحجرات التي يؤجرها الشباب وهواة الفن للسهريات جماعات جماعات .. وكان الشاب الذى عاد من ليالى إسطامبول وسهرات الموسيقى بها يسهر في طرابلس في بيت أجره بشارع الدباغ القديم .. هذا الشارع الذى كان يعد منفذاً وشرياناً للمدينة القديمة .. كان يحلوله السمر والسهر مع أصدقائه ويعزف لهم على آلة القانون .. وكانت أصابعه المتمرنة .. المتمرسة .. تجرى وتلامس متوثبة أو متأنية أو مترنحة متمايلة.. متماوجة منسجمة هذه الأصابع نشوانة ..سكرى الاصابع على الأسلاك كأن لأصابعه عيوناً خاصة .. أو كأن جاذبية اللغة الموسيقية لها مغناطيسية بين اللمسة والنقرة .. كأنها عند تماوج الأصابع على الأسلاك والخيوط المشدودة لون هو همس الأحبة – وتعاطف في لغـــة الشوق الملتهب .

تتراقص رءوس الأصابع في مسها ولمسها وجريانها على الساحة السلكية كأنها نقرات أو نشوة راقص من أصحاب الهيمان الصوفي .. نشوان بخمر الوجد .. خمرة لاتباع ولاتصب في القنانى .. جريان أصابع الموسيقى على ساحة الأوتار جريان حاذق يعرف بالموهبة والسليقة والمران مواطن الإيقاع .. وتنغمات الإبداع ..

وخطاب الأرواح والأذواق .. بلا كلمات ولاحروف .. لغة الوتر المشدود .. والنغم المنساب .. وتلامس الأصابع للأوتار كأن بها لمسة نار.. او لذعة محترق أو قبلة حنان .. أو لفتة جيد غزال شارد .. أو حسو طائر غريد لهفان .. أو خلسة عزول .. هى رقصة الأصابع في سلالم الأوتار.. إرتفاعاً وانخفاضاً .. وإقبالاً وأدباراً .. حتى كأن بواطن النفس خريطة ترسمها النغمات .. أو لوحة شفافة تلونها الإيقاعات .. كم في جوف هذه الآلة الصامتة من عواطف حبيسة .. وأحاسيس قريرة ، تفجرها أصابـــع الموسيقى الملهم .. وسبحان الله .. ! !

رحم الله ابانصر الفارابي الفيلسوف المسلم والذى اخترع وركب لنا هذه الآلة الموسيقية .. وقالوا إن: اوتار القانون بين أصابع الفارابي

كانت تبكى السماع وتضحكهم .. وتنوم الجلاس وتوقظهم .. في حكاية تدل على روعة الإبداع .. والاختراع لهذه الآلة التى تكونت منها أنماط وانواع من الآلات .. هى نبتة عبقري .. في تاريخ الموسيقى

رحم الله ابانصر الفارابي ....

فمن نغمات القانون دون واستنبط الموسيقيون آلاف التوليدات النغمية ،

. . . . .

الفن والموسيقى هواية وشغف .. لكن لقمة العيش وعرق الجبين

من أين ؟؟ .. وفي هذه الفترة شمر عن ساعده ليكون تاجراً .. ألم يكن هناك في طرابلس ومصراتة عدد من أهل العلم وطلابه بل وشيوخ أفاضل يتاجرون ؛ ولهم محلات ودكاكين بسوق الرباع وغيره ؟

ولكن هل خلق هذا الشيخ للتجارة ؟؟ ..

يبدو أن أهل الفن بينهم وبين التجارة والاقتصاد ولغة الأسواق عداء مستمر .. أو ود مفقود .. وشد ، وجذب ، لأن الاقتصاد انضباط ، ومحاسبة وإمساك .. وترصد وتربص ومراوغة ، وهذه أشياء لاتجبذها ، ولايقدر عليها أهل الفن البوهميون ..

ولكن الشيخ المقرىء الفنان جرب .. والحياة تجارب ؛

فتح الشيخ مختار حورية محلاً تجارياً بسوق الرباع ولم تنجح تجارته.. الدنيوية — فلم يستطع أن يجلس القرفصاء .. أو جلسة (ترليلى) على دكة خشبية من الصباح الى المساء .. ومن المساء الى شحوب الشمس .. ودكنة

الأفق ، ينتظر شروة أو بيعة .. وقياس قميص ورداء .. وسروال .. وبلغة وطاقية ، وقد يكون المساوم لها والزبون الهابط .. أقرع .. أو أفحج .. أو أبخر .. أو أصلع .. مثلاً ..

هل تتنمل أقدامه .. ثم يتثاءب ويتنمل أحساسه الفني ؟؟

فليبادر بالفرار .. إن اصوات الدلالين ومساومة المشترين أصوات ليست لأذنه .. هناك نغمة قانون في رأسه ترنيمة عود في أذنه .. آهة في أعماقه . دندنة .. تهويمة .. سرحان .. ثم هاهو يتلو آيات مجوداً .. ثم هاهو يأتى بمتون الجزرية والشاطبية .. وكتاب الإتقان في علوم القرآن .. إن هذا من مجاله . وواديه ، وفي حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه — (.. كل ميسر لماخلق له)

وراجع الشيخ حسابه وحسبانه مع نفسه وآثر أن يعود الى تعليم أبناء المسلمين كتاب الله ، .. فباع محله التجارى بسوق الرباع .. وودع الربع .. وسدنته ودلاليه ..

بل .. ونظر الى الآلتين من آلات الموسيقى — « القانون » نظرة مودع.: مخافة أن تلهيه عن الرسالة العلمية والخطة التربوية التى رسمها لنفسه .: مخافة أن تأكل الهواية والغواية الفنية وقته .. أو تطغى أو تؤثر الهوايـــة الفنية على المنهج التربوى العلمى ،

وحقيقة لاتضارب بين الحس الفنى وروح الدين ، ولكن الشيخ المعلم والأستاذ المربى خشى وتخوف أن تأخذ سهريات العود والقانون وتوابع ذلك ولوازمه كل وقته

فطريق الفن الموسيقى له أول .. ولكن لا آخر لشوطه ..

و« ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ...

ومن جديد ترك الشيخ المقرىء مختار حوريـة الإنشاد والأوتـار

والألحـان .. ومداعبـة الالآت الموسيقية — وهـو تلميـذ الفنـان الموسيقى .. عثمان الموصلى ..

باع الشيخ مختار حورية آلة القانون . وأدوات الموسيقى ليشترى بدلا منها «حصران» .. و« توازير » لفرش المكتب والواحاً .. ومحابر .. وأدوات

الكتاب والمدرسة القرآنية ليحفظ الناشئة كتاب الله .. في تلك الأجواء ذات المخاض الخطير والظروف العانية القاسية — وغدت سهرية زقاق الدباغ عبارة عن تواشيح وأناشيد ، ومدائح نبوية — أليس هذا أيضاً فنا .. وأسمى الوان وأنواع الفن وتغذية المشاعر والأحاسيس ؟!

كان الكتاب الأول الذى انطلق منه الموجود الآن بجانب « جامع النخلي » بشارع سيدى مفتاح .. بالمدينة القديمة . وتزاحم الطلاب . والمكان غير فسيح .. والإقبال يتزايد فانتقل الشيخ حورية الى كتّاب جامع « بن صوان » في نفس الشارع بحى المدينة القديمة — ثم انتقل الى جامع عبد الحفيظ « قوس الصرارعى » .. أيضاً بالمدينة القديمة — يفوح منها عطر التاريخ — وعبق الحضارة — والطابع الهندسي الإسلامي الأصيل .. والصمود والشموخ للعواصف والأنواء واستقربه المقام في جامع عبد الحفيظ . كان الطلاب أزيد من الثلاثمائة طالب ، — ولم يكن في تنظيمه الدراسى على نمط الكتاتيب المعتادة .. بل استحدث في محيطه نظاماً تربوياً كان له أثره في تلك الظروف أيام الاستعمار الطليانى .. وقسم التلامذة الى فصول ومجموعات .. وعندما تكاثرت عليه الأعباء استعان ببعض المدرسين والمعلمين .. وكان كتّاب الشيخ حورية بطرابلس غرب من أشهر الكتاتيب في شمال افريقية في عصره.. وحقبته وملابسات ظروفه . ولم يعد مفهوم الكتاب وصوره الكتاتيب في أذهان بعضهم مجرد جريدة طويلة .. كريهة — ولوزعموا أنها من الجنة .. وليس في الجنة قسوة ،ولاعصى ولاجرائد أو جريد للضرب .. لم تعدصورة الكتاب ومفهوم الكتاتيب فلقة ثقيلة .. وتكشيرة من «فقى» .. لايعرف اللين والابتسام .. بل كزازة في اليد .. وجهامة في الوجه ..وثقل أو تثاقل كما صورت المفاهيم الخاطئة أو التخطيط الذى حارب أهل كتاب الله وحفظة قرآنه .. لقد غير الشيخ حورية وأمثاله من شيوخ أفاضل الصورة والمفهوم لمعنى الكتاب .. والكتاتيب .. والشيخ .. والفقى فكان هو وامثاله كريماً وشهما .. ومفتوح الصدر واجتماعياً وجزءا من كيان المجتمع .. له الاحترام والتقدير .

ولم يصبح مفهوم الكتاب عند العامة وأولياء أمور الأطفال الأبرياء — «يافقى خود اللحم واعطينا العظم».°. يقولها الأب أو العم إرهابا على مسمع الطفل الصغير ..

ولاهى فرحة المسرحيين في نشيد الأطفال ..

سلم سيدى سرحنا .. حط عضامه في الجنـة

ولست أدرى أى خبيث من الأطفال هـذا .. الذى بادر وطالب بالاسراع بحط عظام شيخه في الجنة وهو يسمع الكورس ينشد

لم يكن كتاب حورية على نمط هذا .. بل به مواد علمية تدرس .. وحصص منسقة .. وأهم من هذا وذاك .. البحث عن المواهب .. وتنمية الميول ، كأحسن ماتكون الرغبة في التكوين التربوى .. والبناء الوطنى مما قد يعجز عنه أصحاب « ديكورات » .. وشهادات ..وإمكانيات .. ودعوات .. وادعاءات عريضة أو غريقة ..أو غميقة ، — أدخل في نظام الكتاب علوم الرياضة أى الرياضة العقلية — ودراسة اللغة العربية التى كانت محاربة في عصور الاستبداد ..والرطانة والطلينة والتحلس والتجنس ..— وكان الطلاب قبل إطلاق سراحهم — وقبل تكوين النشيد القومى أو النشيد الوطنى .. في تلك الأيام البعيدة كان يعلم الأطفال القاء الأناشيد الوطنية الحرة — والتى لا رقابة للإدارة الاستعمارية الفاشية عليها ،

فهو بهذا .. كان أيضاً حصناً وطنياً .. ومعهداً فنياً تربوياً .

وكان يمتحن طلابه كل أسبوع أمام كبار حفاظ كتاب الله

• ومن هذا يوجد نوعاً من الرابطة بين حفظة كتاب الله

• وروح التسابق والتنافس بين الطلاب

• اهتمام اولياء أمورهم بهم .

• وكانت هناك في مدينة طرابلس عادة طيبة في الكتاتيب القرآنية بمناسبة

مولد رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يقرأون مدائح نبوية للشاعر الصوفي الفنان ـ أحمد البهلول الطرابلسي ـ

عادة فيها ذوق .. ووجدان ..ووجد ..ولكن الشيخ حورية في كتابه ومدرسته اختلف عن بقية الكتاتيب .. فبجانب ترتيل طلابه هذه المدائح والتراتيل .. ايضا يتمرنون على القاء الخطب والكلمات والمحاضرات .. وجعل الاستعداد لامتحانات الطلبة في حفظ القرآن الكريم يوم ١٠ ربيع الأول كل سنة في موسم الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وللشيخ حورية نشاطه المتواصل لابراز كثير من المشاريع التى تتصل بالمحافظة على القراءة . والتلاوة وتكريم حفظة القرآن وقضى أكثر من أربعين عاماً متواصلة في تعليم ابناء وطنه القرآن والتلاوة والتجويد .. وتخرج من كتاب حورية ، أجيال واجيال ومئات ومئات من الذين اتموا الحفظ .. ومئات ومئات حفظوا أجزاء منه .. وعشرات وعشرات توجهوا الى مصر حيث الجامع الأزهر .. صانه الله .. ذخراً للأسلام والعربية ،

وحاول أن يؤسس بجهده الفردى ، ومساعيه الذاتية في طرابلس جمعية للمحافظة على القرآن .. وراسل وكاتب جمعية المحافظة على القرآن بالقاهرة وجاءه الرد .. وتواصلت المكاتبة في المشروع الذى كان يتلهف عليه صوناً لكيان هذه الأمة ، ولكن الظروف .. وسيطرة الإدارة الإنكليزية آنذاك والتيارات المتعلقة بقضية الوطن . لم تمكنه من تنفيذ مشروعه الخيرى ..

ولعل من أوائل اللافتات التى كتبت في المظاهرات الوطنية التى كان يسيرها الشعب ضد الاستعمار والتلاعب السياسى تلك اللافتات التى كتبت في مدرسة وكتاب حورية ..

كان حراً في إدارة مدرسته وعرضوا عليه الانتقال الى جهات حكومية رسمية . والوظيف ..واشراف الإدارة .. فرفض ..يوم أن كان الرفض غير

مأمون العواقب .. وظل بمدرسته جزيرة في وسط أمواج تتلاطم ..وعواصف تموج وتشتد وتهدأ وتمتد ،

أسس مدرسة لمحو الأمية بطرابلس عام ١٩٤٢م – وتعد من بواكير الخدمات الاجتماعية .. والتطوع لتثقيف فئات الشعب وكانت فصول محو الأمية بجامع الدباغ القديم .. حيث الزقاق الذى طنطن فيه أيام الشباب على الآلات الموسيقية وتدرب فيه على النغمات والتلاوة – هاهو يعود اليه محملا بواجب اجتماعى .. للمساهمة في خدمة بلده ..

وهو من أصحاب الأسلوب السهل في التعليم والتربية ،ولذا أحبه الناس وأقبل عليه الطلاب على مختلف مراحلهم ، من العجينة اللينة في مراحل الطفولة .. والتلعثم في النطق والتعثر في الخطو .. وتعلم التهجى والنطق . الى أصحاب فك الخط .. وبارمى الشنبات .. أو عاقصى الشوارب ..أو عافى الشارب . واللحى .. وأصحاب «النقاب المحمودى» .. وأصحاب اللكمات والقبضات .. كل هؤلاء في ساحته يهدأون .. وينصتون .هو معلم .. من معلمى الشعب في تواضع وأصالة .

وكان بيته ندوة علمية وصالون أجتماعى مامن شخصية علمية أووطنية تفد الى طرابلس وتمر بها الا استضافها الشيخ صاحب الذوق والحس العلمى ويدور السمر وانواع المحاورات الأدبية على تلك المائدة التى تفننت في صنعها اياد ماهرة كريمة .

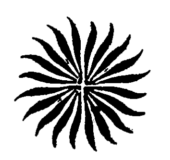
درس الشيخ حورية على أساتذة فضلاء ..أمثال «مختار الشكشوكى» الذى كان من جلساء البطل رمضان السويحلى وأحد اعضاء المجلس الاستشارى أيام السويحلى ، واتم على يد الشكشوكى دراسة علم التجويد والقراءات كما تعرف على الشيخ « صالح الفضيل التونسى » الذى توفي بأرض الحجاز –

والشيخ حورية في أيامه الأخيرة رتل القرآن الكريم ثلاثين ليلة في رمضان عقب صلاة العشاء والتراويح بالمؤتمر الوطني بشارع عمر المختار حيث كان الزعيم بشير السعداوي .. وكنت في ليالي المؤتمر هذه أقوم بالقاء دروس ومحاضرات في تفسير القرآن الكريم بعد تلاوة صاحبنا مختار حورية .

. . .

وشاءت مقادير الله أن يودع مختار حورية الحياة ويرحل الى جوار الله الكريم يوم ١٠ ربيع الأول ١٣ﻫ ٩ ديسمبر ١٩٥١م –

وهكذا كانت حياته مابين ضفتي ١٨٨٨ م ١٩٥١م – عطاء علمياً متواصلاً من أجل الحفاظ على كتاب الله وتعاليم الإسلام .



شيخ المطربين







بقية من جيل مضى في زيه ولهجته ، وحياته الفنية ، كان تراثا فنيا ، وقاموسا للأغاني القديمة ، ومرجعا حيا نابضا . ناطقا متحركا للأدوار والتواشيح والطقاطيق والطبوع والألحان . له معجبون ومستمعون وعشاق ، وان لم يمض في « اتوجراف » لكن التحية بين الفنان المطرب والمعجب قد تكون بإيماءة وكلمة احترام عندما يدخل السوق. او يجلس عند دكان صديق في سوق الحلقة او عند باب الحرية ، او في أطراف المدينة .. يوم ان كانت تعد ضواحى واطرافا – زاوية الدهماني – شارع بن عاشور او في باب البحر أو في صرة المدينة فشارع العزيزية والجادة ترمقه العيون باعجاب واكبار كدلالة على تقدير الفن والاهتمام شعبيا بالفنانين .

في مجتمع تخطيت فيه الحواجز ، وذاب فيه الناس في بوتقة تقدير الموهبة واحترام الناس لبعضهم بعضا .

وكان هناك في سهريات وزرادى « جمع زردة » ويطلبون من الفنان المدندن المرابط ان يتحفهم . بما حفظ من روائع الألحان وبدائع الأنغام . آه يا ليل . ولو كان النهار طالعا او سهرية حتى مطلع الفجر .

وكان في ذلك المجتمع لكل سهرة وجمع فنان ومطرب من الهواة الشداة .

ونشأ شاكر المرابط في هذا الجو . فن والحان وطرب . والوان من معانقة الحياة ولو في احلك الظروف والأوقات .

الجودة والاتقان في العمل. ويكتسب الانسان شهرة حتى في أشياء بسيطة أو مهن معتادة وتضرب الأمثال والتشبيهات فيقال «سفود الشعلاني» يبدوانه كان ماهراً جدا في صنع السفود (تكاد أن تنقرض هذه الكلمة من اللهجة رغم أصالتها وفصاحتها).

الجودة والاتقان ولو في دائرة المحاكاة والتقليد ، العامل الفنى من يصنع على النول رداء «حب الرمان» فقد لا يجدد ولا يبتكر فيه . ولكن إجادته في التقليد والمحاكاة وشيء من الصبر والمعاناة .

والأديب من يقرأ مقامات الحريرى ومقالات المنفلوطى في زفراته وعبراته . وان حفظ شيئا من الشعر فلشوقي وحافظ . وان اقترب به المكان فالشاعر أحمد الشارف . وهو يراه قادماً أو ذاهباً في هيكله الرهيف النحيف ذاهبا إلى المحكمة الشرعية مخترقا دروب وأقواس المدينة القديمة ،وهؤلاء شعراء وتلك هي محفوظات تصغي لها الآذان .

والصحيفة المقروءة « الرقيب العتيد » أو ما يأتي من جوف الشرق والعالم الإسلامى مهربا في جرة أو حزام أحد الشيوخ .

والراديو كان يردد تواشيح على محمود وناى سامى الشوا وكان بيرم التونسى منفيا في باريس ويردد آهاته الخوالد وهناك معجبون بازجاله في طربلس.

وكان المطرب الشاب احمد شاهين على مسرح الميرامارى تهتز له الرءوس اعجابا وتدوى الاكف تصفيقا . اشعاراً أو مظاهرة وطنية تربط الجماهير باللحن العربي والترنيمة العربية والحس الاسلامى الأصيل .

حتى حضور منيرة المهدية والراقصة بديعة مصابني يرونها ظاهرة عربية . وارتباطاً بالعرب وكامل القاضي يردد الأدوار وا لألحان الطرابلسية وأكثر أهل الفسحة والفساحة والباحثين عن اللحن والمتعة يذهبون لتونس . وبشير فحيمة يردد الازجال من نوع اغاني « ياكحلة يا بنت عمي » وان كان المذيع قنابة مطمط شفتيه وأصر على عدم تقديم الأغنية بهذا اللون ويردد فحيمة أيضاً أغنية كمنشور سري وطني «بنلبس عمة بنولي شيخ» وكان الشيخ مختارحورية الشيخ الوقور والوطني الصادق هو مقرىء الشعب والمحافظ على التجويد والترتيل ، وكان شاكر المرابط هو المنشد والمطرب في حفلات خاصة ومناسبات — وبلا مناسبات . موسمية وغير موسمية . أعراس — ختان — قدوم — توديع — عودة من حج ، بناء منزل ، امسيات طليقة في بستان . تمدد السهرة وتتواصل اكثر من ليلة حسب المناخ النفسي والمزاج . ويطنطن .. ويدندن بالالحان والانغام . وحب الحياة من وراء اسوار..، الاسطوانة هي المدرسة أو المعلمة النافذة أو المسرب والمشرب . يتسرب منها اللحن ويتشرب منها الفنان بحسه المرهف وأذنه الحساسة اللقاطة والفونغراف ذي اليد الدائرية كالبئر التي يرتوي منها الظمآى والعطاش الى فن الغناء والالحان .

وفي الزرادي . وسهر الليالي والحفلات الخاصة على نغمات العود واوتار القانون . حنجرة قوية صافية ، متهدج يثير كوامن الاحساس ، ويحرك الشجن . شجن الحب والوله ، ورقة روحه وظرفه ورشاقة نفسية قد لا تتلاءم مع فطحلته ومظهره الخارجي.. ضخم الجثة . متكامل أومتزايد البناء الجسمي - بدين سمين شحيم لحيم . وقد غدت هذه الظواهر له في اواخر ايامه تهدلا أو ترهلا . ظريف المعشر . حلو النكتـه — حاضر البديهة . وكان دليلا عمليا وشاهدا واقعيا على أن أبناء هذا الشعب ليسوا عبوسين بطبيعتهم ولا مطرقين بجبلتهم ، بل فيهم تحت القشرة مرح وفرح ودعابة .

كان هذا الفنان طيب الروح . مفتوح النفس . لا تراه في حياته مقطباً ولا متجهما الا تقطيب لحظات وهنيهات هي لحظات الاستيعاب الفني وهنيهات الانسجام في تهيئة الدور ولمحة اطراق الموضوع .

عند الانصهار الفنى لحظات الأداء الفنى .كان من طراز انقرض أقرانه وظل مخلصاً لفنه لا يتركه ولا يحيد عنه لا يفرط فيه ، ولا يترخصه رغم تواضعه . وشدة احتياجه احيانا أو في كثير من الاحايين . ورغم زحف الاغانى الحديثة وموجة الاغانى العصرية .-السهلة المستسهلة السريعة اللاهثة . المذاعة ، والمشاعة . مخلص لفنه ، والاخلاص للعمل والاهتمام بالمهنة وجه من أوجه الحضارة . بالفن معتز — وفي سبيل الفن والغناء فقد كل شيء ولكنه بالنسبة اليه — الى مقياسه وحسه النفسى —كسب كل شيء ،ويتمثل هذا بالارتياح النفسى عندما ينسجم ويندمج في دوره . ويتسلطن يتحلق حوله المعجبون . أو يرنون اليه مرهفي الاسماع نسوة وفتيات من وراء الاخصاص وخلف الشبابيك والمشربيات . تلك الشبابيك المواربة . تكون وراءها عذارى واشباه عذارى . وغير عذارى . معذورون . في استراق السمع خلسة من وراء حجاب وابواب وسدودنفسية وسدود حجرية..،وكانمتلافا مسرافا . أخرق اليد . تبعثر يداه كل ما يصل الى اصابعه . عاش ليومه ساخراً بغده ، سائرا في درب ملىء بالاشواك والحصي ولكنه لم يفقد المرح والغناء وفضفضة الصدر والبسمة الحلوة التى ترتفع وتعلو ثم تنقلب الى قهقهة ، وقرقرة عالية ، يمسح بها ادران الآلام ، يمشى متكفئا في مشيته كهودج مثقل . أو جمل . محمل هل تذكر المحفوظات من مرويات الاساطير « ما للجمال مشيهن وئيدا ؟؟ »

أوقف حياته عن طيب خاطر — ومع سبق الاصرار والترصد — على أحياء الليالى الملاح ، واحيانا حتى اذان الفجر ، وانبثاق الصباح قد تصيح الديكة . وما زال في الوصلة بعض المقاطع والآهات. يا ليل . والصباح بدأ ينشر اضواءه في الافق . يرتدى الزى القومى ، والجبة الفضفاضة المزركشة المبرقشة صناعة الاسكندرية . والتى كان يرتديها وجهاء مدينة طرابلس ، وهى من الصناعات اليدوية قبل أن تغزو البلاد الملابس المفبركة الواردة من اصقاع المعمورة والمغمورة أو يرتدى الجرد الجريدى — والعباءة المصراتية أو النالوتية وله

نقاب كما يقولون في أوصاف النقاب والتلثم – محمودى – ولم يلبس البدلة والطربوش في حياته .

بينما كان كثير حتى من أفراد التخت الموسيقى يرتدى البدلة ويتفندم – أى يصبح أفنديا ،وحاز في محيطه وبلده عن جدارة لقب شيخ المطربين وبهذا اللقب والاطلاق عرفناه في اواخر حياته وهو لقب لم يأته سهلاسبهللاً بل اكتسبه بسهر الليالى وعرق حنجرته. وكان هناك في المجتمع الطرابلسى عديد من الشيوخ كسبوا لقبا لمهنتهم . بشرف وجدية . وكان هناك .. مختار حورية شيخ المقرئين ، محمود بن موسى شيخ الصحافة– على حيدر الساعاتي – شيخ المؤقتين ، أى الفلكيين . البلبالى – شيخ المتصوفة– عبد الرحمن البوصيرى – شيخ المدرسين – على سيالة – شيخ القادرية .

وهناك مشايخ عدة لمهن وصناعات شريفة يعرفها اهل الاسواق فضلا عن شيخ السوق . وشيخ الصنعة . الله يرحم شيخ الصنعة !واما عن اسلوب الفكاهة والتظرف والتندر فهناك «شيخ الحلوى » والمرابط كان ميلاده بطرابلس الغرب لم يبارحها الا لماما . كان يزن اكثر من مئة وعشرين كيلو هذا غير ملابسه اذا كانت عباءة ثقيلة ليست داخلة في الحسبان والميزان .

وكان يحمل على كتفه اكثر من سبعين عاما عندما سمعناه يطنطن ويدندن صافي الصوت ، واضح النبرات منسجما في ترديد مقاطع أغانيه ، ورغم تقدم سنه ، وظهور بعض التجاعيد على وجهه . ظل مشبوب الأمل . قوى الذاكرة ، سريع الجواب ، جيد الحفظ ، وخاصة للادوار ، والتواشيح – والتقاطيق الخفيفة ، والطويلة ، يتجاوب معها صعوداً وهبوطاً . مع اشارة اليد . وتفاعل ملامح الوجه. وكأن صدره بركان ولكنه يفور بالالحان والآهات المتدافعة ، وكان يجيد تقليد فطاحل المدرسة القديمة في الغناء المصرى امثال – عبد الحى حلمى – وعبده الحمولى زوج المطربة الظ والشيخ المنيلاوى – وخاصة سيد الغناء لديه – الشيخ الصفتى – الذى كان يحفظ كل ادواره واداها باجادة واتقان ، وعمل على نشرها في مجتمع طرابلس .

وسيد درويش – والشيخ السبع – وابو العلا محمد – وداود افندى حسني ومحمد عثمان المطرب – والد عزيز عثمان الممثل . وإياك أن تخلط بينه وبين العزيز عثمان احد ولاة عصر المماليك والذى سمى باسمه شارع في الزمالك بالقاهرة قرب حديقة الأسماك .. وشارع العزيز عثمان حيث الدكتورة نعمات أحمد فؤاد مساها الله بالخير – هل تتحفنا عن تاريخ الفن بكتاب ؟؟ وزكى مراد عازف العود واليهودي الذي أسلم . والد المطربة ليلى مراد . من مصر . والشيخ ابراهيم القباني من الاسر السورية التي قامت بدور هام في المسرح والموسيقى وجد صديقنا الشاعر نزار قباني ، لقد حفظ شاكر المرابط لهؤلاء وتأثر بهم ، ومنذ ان كان شابا في مدينة طرابلس وهو دون الخامسة والعشرين وهو يتابع الفن . ويدفعه شعور جارف الى دروبه ومسالكه في بلد ومجتمع قد تثقل عليه قيود التقاليد وطبائع التزمت . أو الوقار المصطنع . وكان الفتى الواله بالغناء والطرب يدندن لنفسه ولاصدقائه من ابناء الأصدقاء والمعارف وفي سهرات خاصة وحفلات الليالى الملاح في البساتين والحوازات . يوم أن كان الفن هواية ورغبة . حرا طليقاً في ساحة الهواة الشداة .

ومن هناك الفن المصري له أنصاره وأتباعه وسماره وخلانه على شاطئ طرابلس قبل الحرب العالمية الاولى . وما بعدها ، وقبل وجود المذياع في البلاد وانتشار المكبرات الصوتية والاسطوانات والاشرطة . كان الغناء يعتمد على قوة الحنجرة . وذبذبة الصوت . لا قوة المكبر ، ولا الاسطوانات التى تريح حنجرته .

يذكر شاكر المرابط أول دور غناه في مطلع شبابه وكان من أدوار المطرب الشيخ سيد الصفتى دور .. (هاجر الغرام) ودور كان مشهوراً متداولا (قبل ما تميل للمحبة) وانسجم في الغناء والاداء وتمايل وتفاعل واهتز طربا وزاد على الدور مقاطع وأبياتا من عنده .

وكان يحفظ مايزيد على مئة دور خزينة في صدره يرتبها بلا أرقام ولاملفات كل دور له لازمته ، ومقطعه ومطلعه ، ويشير الى المجموعة الموسيقية بالتعليمات اللازمة .

ويحفظ بجانب ذلك أكثر من خمسين قصيدة يوم أن كانت الأغنية تأخذ زادها من القصائد ، وعملت الأغنية على صيانة الفصحى وانتشارها . وكان يحفظ بجانب هذا عديداً من الوان التواشيح الأندلسية .وكان شاكر المرابط من طبعه الانسجام في الغناء كانسجام الممثل القدير في أداء دوره الانسجام في الغناء – والتقمص أو التلبس في التشخيص التمثيلى هو دلالة على المقدرة وعلامة على التفوق والصدق الفنى فهو يؤدى دوره بكل اعصابه بكل خفقة قلب ونبض مشاعر . وكما يصنع الممثل المندمج والمتقمص من زيادة الكلمات – أحيانا – أو الخروج على النص المقدم له – هو أيضاً كان في لحظات الانسجام والأداء (وانطلاق الغزالة) قد يزيد من عنده كلمات في الأغنية يرتجلها عفويا ، وتناسب المقام ويسبح ويتماوج ويحلق ويتأرجح . ويتمايل في آهات ونغمات حتى يخرج على الوقت المحدد له في الاذاعة وكانت وصلته نصف ساعة وهى اكبر فترة كانت تعطى لمطرب ولكنه يراها قليلة كزة ضيقة بالنسبة لانسجامه حتى إنه كان يقول . هذه مدة « ما تسخنش » .

فهو يرى أن المطرب لابد أن يسخن ويحمى أولا ..، وهذا يتطلب ويقتضى فترة طويلة من التمهيد والدندنات والهمهمات – وتسليك الزور – ولابد من الوصول الى مرحلة « التسلطن » الفنى ، والتسلطن من المصطلحات والتعابير التى تكاد أن تنقرض بزوال أصحاب التسلطن والانسجام الفنى الذين يذوب الوقت عندهم .

ومن الذين كانوا يطرب لهم ، محمد عبد الوهاب ، وخاصة في قصيدة شوقي (خدعوها بقولهم حسناء) وأغنية (اخاف عليك من نجوى عيوني) ، وهو يكره أن يقف على خشبة المسارح في الجيل الجديد – أو الركح أو المرسح – بتقديم الراء على السين . ويفر ويتهرب . من الفن الحديث المعاصر غناء ومسرحا وكان خاتمة المطربين عنده من ذلك اللون – عبده السروجى الذى كان من مدرسة صالح عبد الحى ..، والسروجى ظل أواخر عمره متعهد

صحف ومجلات في دكان وراء مباني البريد والمطافي عند العتبــة الخضراء بالقاهرة بالقرب من مبنى الأوبرا .

وما أظن أحداً من أبناء هذا الجيل سمعه أو سمع به الا نادراً..، وكان شاكر المرابط يفضل الحفلات الخاصة والغناء أمام ميكرفون الاذاعة مباشرة على الهواء وهو يكره كراهية التحريم ذلك التسجيل . أو تلك البدعة الملعونة والخدعة التى يضحك بها أصحاب الاذاعة على المطربين ويأخذون حقوقهم . هو عدو التسجيل لسببين : معنوى ومادى . ويفلسف هذا موضحا وشارحا . وليت نقابات الفنانين في عالم الفن تصغى لفلسفته التى لم يحد عنها .

إن التسجيل يراه من ناحية قاضيا على التسلطن والاندماج والانسجام ويحرمه من التجديد والانطلاق . وتكسير الوقت ، والحاجز الزمنى . ثم وهو منتهى الأهمية يرى التسجيل للمطرب بحسبة مالية ومعادلات رقمية من السرقة والضحك على الذقون كان يخشى التسجيل سواء على شريط أو اسطوانة فهو يغنى كل مرة على الهواء مباشرة خير من أن يسجل له ثم يستغنى عنه ولعل هذا هو سر ضياع كثير من أغانيه وهو في أوج عظمته الفنية .

وكان يعجبه من المطربين الطرابلسيين محمد سليم لأنه يراه من المحافظين على أصول الفن القديم ويرى أعظم الفن اعتقه . وكان يطرب للاغاني المرزقاوية والفزانية بصفة عامة التى تكاد أن تنقرض مع أنها تحمل مضامين الأصالة في الفن الشعبى . وكان معجبا بالمطرب محمد مرشان من هواة الفن من جيل الشباب..، وتزوج الفنان البوهيمى بعد اشواط من الصعلكة على درب الفن وكان صاحب أسرة عطوفا حنونا على أهله وله أربعة أبناء كانت قسمة ومساواة عادلة من الطبيعة – ولدان وبنتان – والغريب الذى لا يكاد يصدق لم ير هذا المطرب الفنان في حياته وادى النيل .. لم يزر مصر هذا الذى كان يجيد اللهجة المصرية كأنه أحد ابناء البلد من كفر الزغارى وكفر الطماعين والحسينية بالقاهرة أو الانفوشى والقبارى بالاسكندرية .

وسافر المطرب أو سفر بضم السين لالمانيا قبل الحرب العالمية الثانية وكانت سفرته بمناسبة أحد المعارض هناك عام ١٩٣٥م وسجل اسطوانات عشرا وهى تعد في عالم الغناء والتلحين من التراث الضائع فقد كان في ريعان فنه وما زالت حنجرته تحتفظ بدفئها كان في أوج التوهج الفنى ولا ندرى هل سجلت له بدون علمه، أم أنه لم يستطع أن يعترض على التسجيل وضبط صوته في أقراص شمعية ؟؟ لأن السلطات التى دفعته الى حضور مهرجانات المعرض، وعملت على سفره مع فرقة موسيقية هى السلطة التى كانت تقبض على دفة الامور في البلاد. تقبض على أعناق الناس وحناجرها أيضا. أم تراه اتخذ الفنان المطرب قرار العزوف عن التسجيل فيما بعد عام ١٩٣٥ م؟!

المهم بالنسبة لهذه القضية غير الشائكة، أو العويصة بلا عوص! مكث في المانيا خمسة أشهر وبضع ساعات احياها في حفلات غنائية ،وكان المطرب الوحيد الذى سجل في بلاد نيتشة وشونبهور، وكان سوق (الرايخ) رابحاً والمانيا تغازلها ايطاليا حتى تكعبلت.

وبحكم المجاورة والملازمة وبطبيعة الاجواء لابد للمطرب من أن تمتد اصابعه لآلة موسيقية أو شفتاه للنفخ والعزف. ندر أن تجد مطربا لا يضرب أو لا يعزف على آلة من أدوات الموسيقى ولو على سبيل التسلية والهواية. بل قد يكون بينهما - أى بين الآلة والمطرب - ما يسمى في اصطلاح المناطقة - عموم وخصوص مطلق - هل يطرد القياس - في كليات المقايسة كل مطرب عازف ولا يلزم أن يكون كل عازف مطربا. وسل معاهد الموسيقى، أو تاريخ الفن أو شهود العيان أو شهود الاستماع والآذان الفنية وقد نهرب من هذا الاطناب والاستدراج الى حصر الموضوع في ساحة هذا الفنان الولهان..، كان يضرب على آلة الرق أو الطبلة، نقرات أسرع من حسو الطير للماء وكأن بين أصابعه وسطح الالة الجلدية جاذبية الاقترا ب والابتعاد في نقرات وايقاعات تكاد أن تكون من السهل الممتنع الممتع - نقرات الطبلة والدربوكة بشكل تغبطه أو تحسده عليه الناقرات في الاعراس.

وحتى تسجيل النقرات الرقية ، والايقاعات الطبلية التزاما بنظرتيه الفنية وثباتا على مبدئه عزف عنها لئلا تضحك عليه الاذاعة فتستغله . ماديا ومعنويا وفنيا . لكن بلا تسجيل ولا شريط ولا اسطوانة — بالحس التجارى — هى دائما مادامت تقدم برامج غنائية في حاجة الى حنجرته ، ورغم أن حفلاته الثابتة اسبوعيا تقدم يوم الاثنين مساء الا أنه يطلب من بعض احبائه أن يطلب من الاذاعة اعادة حفلات المطرب شاكر المرابط والطلب بالهاتف أو من مدير الاذاعة الجالس شخصيا في المقهى الشعبى أو رسالة خطها يذكرنا بالخط الكوفي أو مشى البط في الشط .

كان يهوى لعب الشطرنج اللعبة التى لا تحتاج الى آلات وأوتار ،لعبة الصمت والتأمل والمناورة والخبرة الطويلة . أو لعبة ورياضة المثقفين والذوات كما كان يسميها .

وان كان بحكم التعود — يفضل الدندنة على الصمت ،والتأمل الطويل الذى تقتضيه هذه اللعبة . اكول بصورة عجيبة: يقول المشارقة « دباغ » .

ويقول المغاربة « بطناجى » ويطلق عليه معارفه واصدقاؤه عن طريق المداعبة (فاقـون) ومعناها قصعة لانه كان في مرحلة من مراحل عمـــره يتناول في الوجبة الواحدة قصعة كاملة بمفرده يوم أن كان السعر رخيصا واللحم في المتناول متوافرا ، يعرف اللغة التركية وقد يجىء بعباراتها صباح شريف افندى. عفارم..، وقليلا من الايطالية يخلص بها روحه في السوق أو في جولات خفيفة أو ثناء على وجه صبوح وآنسة أو سيدة مليحة . وطراطيش من الالمانية حصيلة خمسة وعشرين أسبوعا كان فيها يسمع رطانة الالمان وان كان الكلام بالخياشيم لا يوافق احساسه الفنى .

وعندما زارت المطربة منيرة المهدية في مطالع العشرينات مدينة طرابلس. وهى تحمل لقب سلطانة الطرب قبل أن تنتزع منها اللقب والعرش الغنائى أم كلثوم عندما زارت السيدة منيرة أيام عزها ومجدها طرابلس وهى ذات الحزام الماسى والخواتم الفيروزية ،والقبقاب الذهبى مادة لاطلاء..، غنت على

مسرح الميرماري – وهو الآن ساحة فضائية وميدان لموقف السيارات عند البحر .

غنى مختار شاكر المرابط أمامها . وأمام جوقها في بستان السيد قنابة . صاحب العمارة لا صاحب الشعر والديوان .

وكانت القصيدة التى غناها المطرب توشيح (حسب الافكار) للسيد الصفتى وتسلطن وانسجم واندمج بحيث لو آمنوا بتناسخ الارواح والحلول في عالم الاشباح لقالوا مؤكدين مؤمنين: أن روح الصفتى حلت في مختار شاكر المرابط .

ملاحظة (قال هذا من سمع الاثنين وناقل الكفر أو كلام وشهادة المطربين ليس كافرا) وتسلطنت سلطانة المطرب ، وحرك المرابط كوامن فنية وسواء كانت اغانيها في البستان مجاملة ام حبكة فنية فقد غنت أغنية في ذلك الوقت (اسمر ملك روحى) وكان صاحب الضيافة والنيافة أعلى من السمار بدرجة أو درجتين وغنت أيضاً (ياللي جرحت القلب داويه) وأعجبت المطربة المصرية بالمطرب الطرابلسى وشهادة مطرب لمطرب شيء عسير . وأعسر منه أو اشد عسرا شهادة مطربة لمطرب الا إذا كان التنافس غير وارد بينهما .

وفي حفل البستان هذا التقطت صور ورشقهم المترجم الشامى جورج صقال بقصيدة حجرية كما رشقهم أحمد قنابة بقصيدة من ذلك المقطع فرحوا وهم يمسحون الجباه ويفرغون ما تبقى في الكؤوس ... والوقار قد يأخذ أجازة ولو مؤقتا .

كان لا يحب السينما ، ويعجب كيف يطيق هؤلاء المتفرجون الجلوس في الظلام طيلة ساعات العرض . وأى فن يتذوقه في الظلام ومشاهدة حركات مصورة خير منها الف مرة دندنة عود . وصوت من أصوات ل داود ويتحسر على الليالى الفنية والسهرات التى كان يتمنى أن يتلكأ فيها

مجيء الفجر. كان يتردد على محطة طرابلس للاذاعة كل اسبوع يحب الغناء بلا تحديد لمدة الوصلة يريد انطلاقا بلا تحديد الوقت ،ويكرد أيضاً هذا الميكرفون المنصوب أمامه كخازوق يشكل له حاجزا نفسيا... كيف يغنى بين حوائط أربع ؟ يريد أن يغني للجمهور مباشرة ، ليتجاوب معه ويستمد منه العون الفني ويقول لك لإقناعك ومحاولة أفحامك . هل ترى لاعب كرة ينسجم بلا جمهور ؟؟

هل ترى خطيبا ينسجم بلا جمهور ؟؟؟

وتسمعه في المقارنة بين غناء الحوائط والحواجز وبين غناء البراح — والانطلاق في منطق فيه شيء من الاقتناع ولكن لكل زمن مقتضيات وأوضاع . فنان من وراء حائط ؟ كان يرى ذلك حبسا . إنه كعصفور يغنى في قفص وان مدوا له فتات الخبز بالجلجلان والكعك واللوز وسقوه ماء الزهر . فهو غناء للضرورة .. وللضيق .

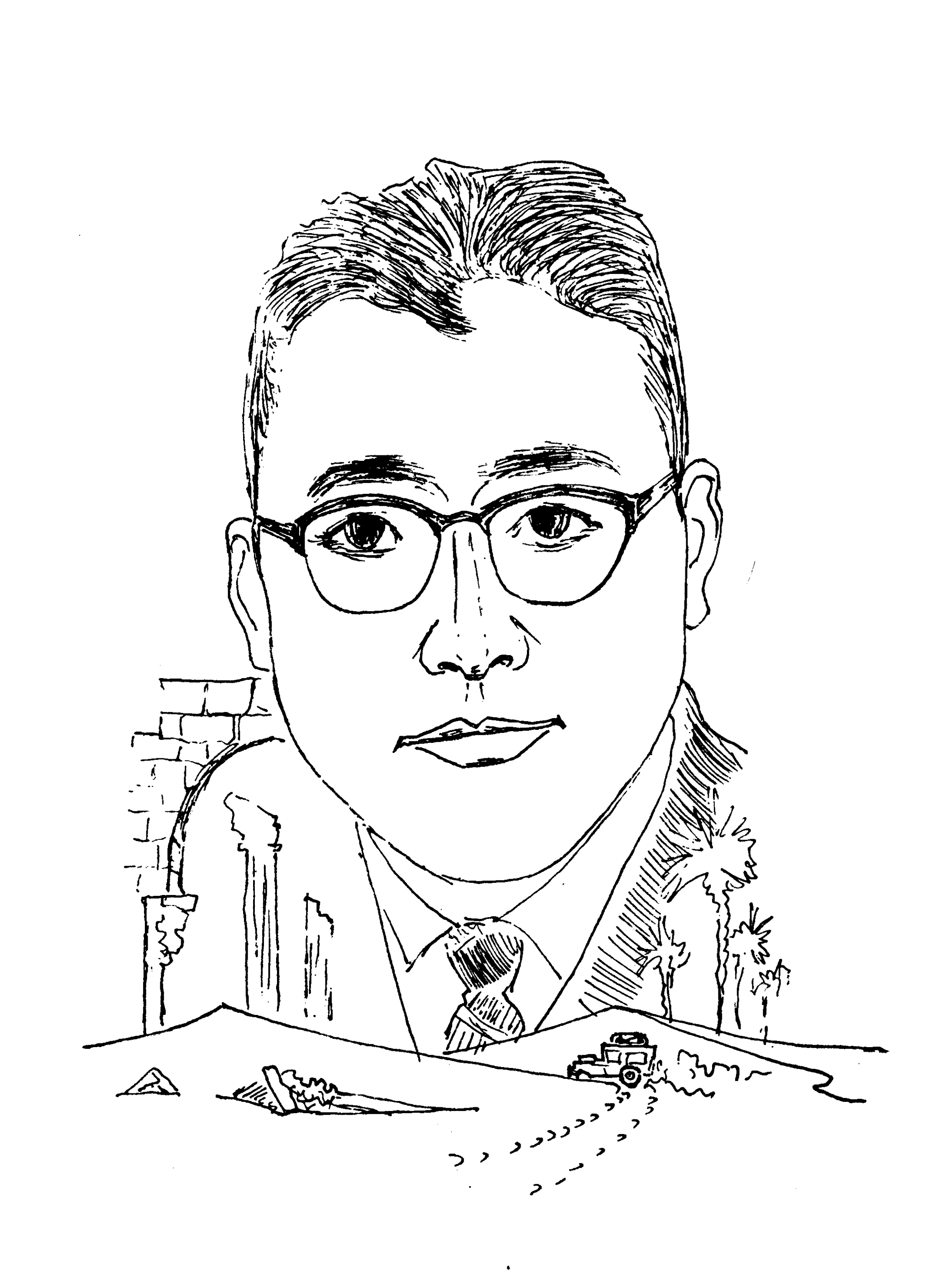
وفصل له مقعد خاص بالإذاعة — يوم أن كانت بالصمعة الحمراء — صنعه أيضا نجار من الفرقة الموسيقية ، فقد كانت المقاعد العادية لا تسعه ولكن مشكلة النجار أنه لم يأخذ المقاس مضبوطاً وجعل له مسندين ، ودخل المطرب بجسمه الضخم وانحشر في الكرسى .ولكن شعر بضيق في الجلوس وتململ وكأن المسندين اطبقا عليه وانحشر مزنوقاً واستغاث عند التحرك والتململ لحظات السلطنة والانسجام ياليل. يا عين آه يا أنا.. وتأخرت حفلة التقديم الاذاعى حتى استعان بزملائه لخروجه من الانحشار في الكرسى وكان اعتذار للمستمعين عن التأخير في تقديم الحفلة لاسباب فنية أو خارجة عن ارادتنا وارادة المطرب أو النجار وفرشوا له بساطاً صغيرا ، وراحة جلسته وجدها خارج المقعد المتعبة وعن سؤال وجه اليه في لقاء عابر :

— هل احببت ؟؟؟ وأجاب :

— احببت الفن .. وبه مغرم . وضيعت فيه شبابي وزهرة عمرى وكل أعصابي . الله يرحم أيام الصباو الشباب ومواسم الفن والليالى الملاح .

عيسى الأسود

عالم الآثار النابغة المغمور





كلامه همس ، حتى يخيّل اليك انه لم يعرف الصراخ أو رفع الصوت في حياته .. ولا يعرف التوتر والتشنج والانفعال وما تفرع من هذه الموبقات الغضبية ، الانفعالية التي تأكل الجسد والروح ، وتسرى فيه سريان النار في الورق ، واندلاع اللهيب في الهشيم ،

أمثولة طيبة في الهدوء ، حتى لا تصدق أن هذا الوديع الهادئ اشتغل سنين بالتدريس وللصفوف الأولى للأطفال التي تدفع المعلم ولو كان الأحنف بن قيس إلى نرفزته وارتفاع صوته وشد شعره ولو كان أصلع !

ولكنه ظل دائماً في كل أدواره وأطواره ..طالباً ، ومعلماً ، وموظفاً ، وعالم آثار ومنقباً .. ودارساً .. وفاحصاً .. هو ذلك .. الوديع ..

اللطيف ، مرتاح البال ، ريّح البلبال ،

صافي الذهن ، متوقد الذكاء ..

فيه ملامح جبلية ، مع شيء طفيف من سمرة ،

نظرته روحية شاردة ، هائمة في غير خمول ،

تائهة في غير ضياع ، كأنه شاعر هائم .. حالم ،

هو من نوع عصامي الثقافة ، نابغي التكوين ، فولاذي الإرادة في ظروف حوالك سدت فيها منافذ التعليم ومسالك التكوين الفكري .. فقد انتهت الحرب العالمية الثانية وعمره دون السابعة عشرة .. اذ هو من مواليد عام ١٩٢٨ م . بمدينة يفرن إحدى مدن الجبل الغربي .. المعروف تاريخياً بجبل نفوسة ،

وقد عرف عيسى الأسود .. بدماثة الخلق ، ووداعة الطبع متحضر في سلوكه وحواره .. وتعبيره وإشارته كأنه خريج أرقى الجامعات ، وربيب أرقى الأوساط الاجتماعية ،

نقاب كتب ، ومايسميه الأوربيون « فأرمكتبات » يخرج من مكتبة ليدخل مكتبة أخرى ..

ويفرغ من كتاب ليتفرغ لآخر ، أو يتحدث عن آخر ، وان كان جل اهتمامه بالآثار واللغويات والكشف والحفريات والتنقيب ، وما يتعلق بحضارة الشعوب ولكنه ليس الاختصاص المحدّد ، والدائرة الضيقة كما يحشر بعض الاختصاصيين أنفسهم في نطاق ودوائر تضيق .. حتى تعزل بعضهم أو تردهم جهلة في نواح ومواد أخرى .. بل كان واسع الثقافة متنوع الاطلاع . كان يعشق علوم الحضارة وفنون الآثار المطمورة تحت الرمال ، والمندثرة تحت الأنقاض .. أو المترامية في أقاصي الوديان والواحات .

أو حضارات بادت تدل عليها حروف مطموسة .

أو أحجار وأشجار تحجرت ، أو حضارات غرقت تحت البحار ..

ويعرف المراجع والمصادر والأضابير ، وحتى القصاصات في أماكنها حتّى المنطوية والمتردية

منظاره لم يكن للزينة ، أو بحكم التعود .. إنما نتيجة انهماك في القراءة والتأمل والتفحص .. والتحديد والتركيز .. فمطالعاته وتفحصه النظري لم يكن قاصراً على سطور الأوراق والكتب .. بل مصادره قد يرجع اليها

في جوف واد ، أو واحة ، أو جزيرة مهجورة ، وقرية مقطوعة ، وحجرة أو رشادة مردومة ، أو قبة بجانب علوها وبعدها .. خطوطها عنكب عليها الزمن . وتراكمت عليها المتراكمات ، من نوع مطالعات الأحجار والنقوش والكتابات المطموسة وهي تتطلب بجانب المهارة والجسارة الدقة .. والصبر .. والإدمان ، والهيمان الصوفي ، أو العشق العلمي ، وهو أشد ألوان الإدمان والهيمان والعشق ،

وأشد أنواع الإدمان فتكاً بصحة الانسان وابتلاع وقته ، ونحت حواسه ،

كان عيسى الأسود .. يقرأ الألواح الحجرية من خط كوفي وبيزنطي ، وفاطمي وهمايوني ، والخطوط المعقوفة والمشجرة والمنعرجة والمندرسة والمجوفة ويعرف تلافيف الشجرة الأثرية كم عمرها .. كما يعرف الراعي عمر الشاة من أسنانها .

وقد يتحمل في بعض الحالات نفقات رحلة علمية من جيبه

– وهو جيب عالم مثقف في بلد متخلف –

قد يسيح سياحة أثرية على حسابه من أجل حضور محاضرة ، أو الاشتباك في مناقشة ، أو جولة متحفية ، أو مقارنة حضارية ، واستنطاق

طلل من الدوارس لا يندبه بلغة الشعراء ، أو يقف عليه وقفة أهل اليمن واستدماع المعلقات ، بل يقف عليه كدارس عالم وباحث أثري ، وأستاذ لفنون الحضارة

يستنطق الأطلال بأسلوب الخط ، والرقم ، والمقايسة ، والاقتباس والاستنطاق والاستنتاج العلمي ، من وسائل الوصول للحقيقة ،

وذات مرة .. بل مرات وذوات .. كاد أن يهوي من شاهق.. يقع من حالق .. عندما كان يتأمل متحققاً وهو يبتعد ويقترب .. ويتأرجح على سلم من حبل مفتول من ليف يقيس الحرف ، ويتأمل الحفر ... ويستنطق الحجر .

لكن في تلك المرة .. سلمه الله .. كانت بقية عمر .. نجا من هذا الحالق ليتردى من حالق آخر .. أيضاً في رحلة لها صلة ببحثه وعلمه . حالق أبعد ..

كان عيسى الأسود .. له أحاسيسه العلمية والنظرة التي يستنطق بها الرسم ، والحجر – والحرف .. من كل اللغات السائرة ، والدائرة ، والمحنطة ، والمصابة بالشيخوخة التاريخية أو الرطوبة الزمنية ،

إذا زار مدينة في أوربا قد يجدها صحابه ورفاق رحلته فرصة سانحة تستهويهم حياة الليل ، وغنجات الليل ، والعلب الزاهية ، وفرقعات زجاجية ، وبعثرة شيئين – المال ، والصحة ، ثم الوقت ،

بعضهم تستهويه العارضات الزجاجية أو العارضات . والجمال المتحرك . تحرك العيون والشفاة والقدود ، لكن .. هو .. العالم الباحث الذي يجس الأحجار .. يستهويه جمال الحجر في صمته الناطق ، وسكوته المعبر ، في نقشه .. زخرفته ، عمره الآمدي المتطاول ، الخطوط الهندسية . التآكل الدال على عمق وبعد الأصالة ، تجاعيد الحجر ، وتسوس الخشب ، وتعريجة الحرف ، وإمالة القوس ، بشكل يسترعي انتباه العلماء ، وأهل الحس الحضارى ، وذوى التخصص والميول الأثرية ، في أية عاصمة ، أو حتى قرية من قرى الريف الأوربى أو الأسيوي والأفريقي . يصحب معه الدليل العلمي الجغرافي الأنتروبولوجي،وكان في دماغه مكتبة متنقلة ربما كانت في لفائف دماغه أكثر تنظيماً من مكتبة بيته أو أرفف وملفات دائرته التى يعمل بها ،

لقاطة لطرائف العلم ، تستهويه الغرائب والعجائب الدقيقة التى قد تحتاج الى مجهر ، ولكن مجهره العين والأذن .. العين المدركة ، والأذن اللاقطة حتى في تموجات اللهجات .. قد يدخل سوقاً أو قيسرية يخرج زملاء السفر ورفاق الجولة بثياب أو قطعة حلوى او شطيرة وفطيرة أو موعد من غادة أو حيزيون ويخرج هو بلقطة فنية .. وملاحظة أثرية ، أو مقارنة حضارية — أشاهدت .. ؟ أسمعت ؟ .. أرأيت ؟ .. أووه .. في لهجة هذه الآنسة في لهجتها كلمة عربية .. لاشك أنها تسللت الى شاطىء أوروبا من القرن الرابع الهجرى ووصلت هنا على ظهر سفينة بشراع .

— أوو..ه .. أرايت هذه الكشكشة في طرف ثوب هذه الفتاة ؟ هى من تطريز اندلسى ..

وصاحبه كان يلاحق أو يلعق الفتاة بعينه . .

وهو الاستاذ الباحث لايلحظ الا الكشكشة والتطريز الأندلسى في طرف ثوبها ..

— أوه .. أرايت هذه الأكلة؟ شكلها .. أصلها .. فصلها .. — ياأستاذ دعنا هنا .. نحن في جولة استرواح .. لسنافى قاعة محاضرات !!

— أووه .. ارأيت هذه الفتاة الحسناء ؟

ويرفع الجميع نظرهم .. ويفاجئهم الاستاذ بتعليقه العلمي ..

أرايت في عينيها ملامح من سلالات بربرية جاءت من الشاطىء الأفريقي ... وجبينها .. ولابد ان تكون لثغة نطقها رغم انها من بنات

اوروبا .. ويضحك الجميع ساخرين .. ولكنه جاد لايسخر .. يظل يلحظ بأذنه وعينيه ويشير بإصبعه الى اكتشافاته في زحمة سوق . أو منعرج زقاق او في قرية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط من ضفته الأوربوية .. باحثا عن معالم حضارية .. غرقت .. أو تماوجت أو تداخلت ، حتى في مطعم فخم .. وسهرة في مناسبة فنية — أووه .. هذه النغمة الموسيقية من

التروبادور .. فيها تأثر بالتواشيح .. والششتريات .. لابد أنها وصلتهم من بلادنا الإسلامية .

— أووه .. هذه الكلمة عربية لبست قبعة ، وتلكنت على شفاة الارواء .. فرت من شفاه .. والتصقت بشفاه ، وقفزت من قاموس الى قاموس .. عبر الاحتكاك الحضاري ، .

في شتوية ماطرة .. في يوم كان الرذاذ يتساقط وفي شارع الصريم قرب منزلى عند الجسر — جسر بلا بحر ولاقطار — رأيته وهو من سكان الحي ، يمتطى دراجته — تكاد أن تكوى أثرية ، يصارع الريح ، والريح تصارعه .. تعاكسه ، وهو البعيد عن التيارات في حياته وتكوينه وهو الهادىء الوديع ، الذى لايحب التيارات ويبتعد عن مناكفات البشر — ماله ومناكفات الريح ، وعواصف الطبيعة ؟! ها هو يجالد الريح والمطر .. وكان من شعارة — الباب اللى يجيب لك الريح سده واستريح .—

ورآنى .. وهبط من فوق دراجته .. واستندت الدراجة اليه بدل أن يستند اليها ، وجرجرها بدل أن تجرجره .. !!

ومد يده .. ماأكثر بشاشته ، والطف هشاشته ..

هذا الإنسان الوديع الذى كان يقطر رقة ونبلا .

وبدل أن يشكو الريح ، ورذاذ المطر اشتبك لسانه ووجدانه في بحث علمي ، واكتشافه لبضع كلمات في لهجة صقلية وعلم أنى كنت مهتما بدراسة « أسد بن الفرات »

وطفق عيسى الأسود يتحدث رغم الريح والمطر والجو الشتوي — ودعوته الى دخول المنزل وهو قريب على خطوات ، ولكنه آثر المقهى الصغير الذى كان على الجسر .. وكان رذاذ المطر دموعا .. ثم أخذ يتهاطل .. يتقاطر .. وما زالت يده في الدراجة العتيقة .. ويده الأخرى يلوح بهـــا

في الفضاء في حماس أهل العلم . وإحساس الباحثين . وللاستعانه بالتأكيد والتعبير .

وأنا أخشى عليه من الزكام ، وأخشى على نفسى من حساسية البرد وأخشى ان تكون نهايتى من البرد – كأبى الدرداء –

– ادخل ياأستاذ ننحشر في هذا المقهى !...

الذى لو دخل فيه اربعة او خمسة من اهل الضخامة والسمنة .. لانفجر – أى المقهى – لضيق رقعته !

– انتظر حتى أكمل لك اكتشافى في جولتى الصقلية .

بلاد المستشرق آماري .. وأمارى اصلها .. العمري .. وهناك بقايا للحضارة الإسلامية .. كلمات عربية في لغة السيشليان .. سمعت عجوزا تنطق بكلمات فصيحة . وأخرج من أحد جيوبه المحشوه ورقة ...

طويلة .. عريضة .. سميكة .. كيف طواها ؟ كيف حشرت بين الأوراق ..؟ كيف حوت كل هذه الاشارات والدوائر والحلقات ؟ هل هى من قبيل الاختزال ؟.. أو حروف المصطلحات الخاصة التى قد يلجأ اليها الكتاب والعلماء وأهل الفن لزحام أفكارهم ، أوزحام أوقاتهم ومشاغلهم ..؟

وعندما قدمت الباحثة الأمريكية عاشقة الآثار (بورغن) **BROGAN** وجاءت بفانوسها .. الليلي والنهاري .. وعرضت جولتها الأثرية عند مدافن «قرزة» في جوف الصحراء .. كان عيسى سالم الأسود .. خير مقدم لها .. وخير ملازم .. أى مقدم المحاضرة ، وملازم لها في التعرف والترجمة .. وقد ترجم لها .. ترجمة فورية .. وهي مصطلحات علمية . وكانت المحاضرة والعرض في قاعة جمعية تسمى – جمعية الفكر الليبي – رحمها الله –

اى الجمعية وعلى روحها الفاتحة ـ وكان الأستاذ المترجم المقدم الملازم الشارح .. متطوعاً ..

أخذ أجره من الترجمة عبارة من الدكتورعلى نور الدين العنيزي .. شكراً .. قالها الدكتور في كرم بالعربية والانجليزية والإيطالية .. مع ابتسامة عنيزية فيها رقة خبرة أكثر من نصف قرن .. في الابتسامات والتشكرات وتصبب عيسى الأسود عرقاً .. في سبيل الهواية والغواية العلمية .. (ملاحظة ـ العالمة سنها متقدمة وهي وقور ،) ان لم نقل شمطاء مبشمطة .

وعندما اكتشفت إحدى البعثات الأجنبية جثة الطفل المحنط في جبال فزان كانت فرحته لا يوازيها فرحة الذي نال وساماً .. أو تفوق في امتحان ، أو نجح في انتخاب أو أصبح اسمه مشهوراً متداولاً .. فرحة عاشق رضى عنه محبوبه .. فرحة سجين نال حريته .. فرحة أم عاد لها وليدها بعد غياب ، ـ فرحة فلاح بصابة حصاده في ربيع مزدهر .. فرحة الذي عثر على كنز .. فرحة كاتب افرجوا عن كتابه ..

لا يمكن أن نصور مقدار فرحة العالم الباحث بهذا الاكتشاف .. مقدرة قدماء الليبيين على التحنيط وتفوقهم ..

كاد عيسى الأسود .. لولا شيء من الوقار والحشمة أن يرقص ولم يرقص عندما اكتشفوا الذهب الأسود ـ البترول ـ كاد يصعق فرحاً .. واهتماماً بتراث البلد وأصالته الحضارية .

ويتحدث في مصطلحات ، ورموز علمية غامضة ،

وعبارات لا يفهمها إلا المختصون ، مؤكداً أن تحنيط أهل ليبيا القدامى أسبق وأدق من قدماء الفراعين ،

ـ تعرف يا أستاذ

وهي عبارة كانت تنزلق أدباً على لسانه . ولو كان مخاطبه .. ومن يقف أمامه . أمياً .. أو مزدوج الأمية ، لا يفك الخط .. أو لا يفك اللسان .. ولو كان مسئولاً مزحلقاً إدارياً .. — تعرف يا أستاذ .

ويهمهم .. ثم سكتة لطيفة .. ثم يتدفق بالمصطلحات العلمية ، ويعدل عيسى الأسود .. من نظارته التي يتكاثر النزاع والقلق بينها وبين أرنبة أنفه ، وتتدخل أصابعه للصلح بين النظارة والأذن والأنف .. وتعود إلى محاولة الانزلاق وتعود الأصابع إلى إرجاعها .. وتثبيتها في حركة لاشعورية ويقول :

— تعرف يا أستاذ ! ؟

ويستمر .. ويكون فرحاً .. جذلاً عندما يقول لك :

عثرت على قصيدة في حائط من العهد البونيقي

ولمعة في شقفة من عصر الأغارقة ، وقصة مرسومة بالفسيفساء من عهد الشناشقة ، ونقش مطموس على عملة من عهد قطمير وأهل الكهف ، والرقيم ، وجدت اسم امبراطور زائل .. وزاوية مجهولة .. وخرقة من العهد الفاطمي .. وعلى كذا .. والمشاريع تتكاثر ، والمواضيع تتزاحم

ولكن لقمة العيش لا ترحم .. والوظيف قتّال ..

والمجتمع .. قد يتبلد حسه نحو العلم والفن ،

والأجواء خناقة ، والفلاسفة ، والعلماء ، والأدباء وأهل الفن مساكين « في مأدبة الحياة » من عهود التحنيط إلى الهبوط على القمر .. ومخترعات « ماركوني » .

هل يبعثرون العمر بين المكاتب والادراج والحضور والغياب والذهاب والإياب ؟!!.. طاب .. طاب ..

كنا مع عيسى الأسود رغم هدوئه ووداعته نتحدث في شؤون أثرية علمية .. عن عصور غابية حجرية ، ثم ننتقل من عصور بعيدة إلى قضايا معاصرة كانت تشغل بالنا في تلك الأيام أيام الصراع السياسي في أواخر الخمسينات والستينات ، وكان يلاحقني كالظل الثقيل كابوس من كوابيس تلك الفترة أحد العيون والآذان .. يتصنت .. وتلاحق آذانه الطويلة الحديث الدائر .. واشرأب .. وأرهف .. ومال .. وأمال .. وتململ .. وتحكحك .. وزمّ .. وطمّ ، وأيامها لم تدخل وسائل التسجيلات في التصنتات واستعمل ذلك المتلصلص ، المتصنت ، حاسته الأذنية ولم يفهم من عبارات الأستاذ وصاحبه شيئاً .. فما كان منه إلا أن نهض وتركنا .. فالحديث كان من لغة الآثار والتحف ، والشقف – وقطع القحف ، وأهل الأحقاف ،

* * *

بين الأحافير والأضابير أهرق زهرة شبابه

كان يريد أن يربي عند أهل المعارف والتربية ما يسمى بالذوق المتحفي ، الاهتمام بالآثار .. لا مجرد تكديسها في مخازن .. ودهاليز رطبة أو متربة وطبع دليلا لم يقرأه إلا الطابع والمصحح ، أو ثالث هو الطابع على الآلة . أو إن جاد الزمـــان بمتخصص في شوطــه الأخير .. لكنه كان يريد الاهتمام بالثقافة الأثرية والمتحفية ، وتنمية الذوق الجمالي والحس الحضاري

وحكاية المكتبات والمتاحف في مناطقنا وبلداننا العربية مأساة آسية ، والنظرة اليها حولاء شوهاء متخلّفة ،

ذات مرة .. أو ذوات مرات .. وأكاد أقول مرائر ..

سألت عن انسان ..

– قيل ، وضع في متحف ،

أي وضع حيّاً من غير تحنيط ، ولا تقنيط

فشهق أحدهم شهقة – خلت أن روحه – ستخرج معها –

وخبط خبطة المتحسر ، المتحصرم ،

والشهقة الشبقانية وخبطة الصدر تذكرنا بنوعية من نسوان بعض البلدان في بعض الحالات ..

وهي شهقة أرقى من الزفرة .. وأدق من الشخرة ،

– ايه متحف !!؟ حطوه في متحف !! ؟

وكأنما قال وضعوه في جبانة .. أو حسبت أنه مات ، أو حكم مؤبداً ، لقد مات في نظره الموتة الصغرى .. وضع في مكتبة ، أو متحف ، معناها عند فئات من الأحلاس والأفلاس .. معناها .. مهمل .. مغمور .. مطمور .. مخزون .. مدهلز .. أو بلغة المصطلحات الإدارية الوظيفية – على الرف – أو تحت الطلب – أو دون الطلب ، أو تحت طلب لا يطلب ، يرونها فواتاً .. ومواتاً ، على أن المتمدنين المتحضرين .. الذين نعالج عندهم مرضانا .. ونأخذ منهم ملابسنا ، ونشتري منهم سلاحنا ، وحتى طعامنا .. وحتى ألعاب أطفالنا .. والحليب المعلب ، والذين نستورد منهم المحيط والمخيط ، ونقضي الصيف عندهم ، أو ليالي الشتاء .. هؤلاء .. سواء من أهل الشرق البعيد أو الغرب البعيد ، يرون المتاحف والمكاتب جانب حياة وحيوية .. لا جانب أو ركن أهمال ومراكنة ،

ولكن عيسى الأسود كان يرى حياة الآثار والمتاحف والمكاتب والنقوش ، والخطوط حيوية وحضارة ،

وهي الحياة التي لها أهمية واهتمام ..

وحتى عامة الناس .. أو الأعم من الناس .. أو العوام فكرياً – عادة – يكونون قلقين من مواقع وظائفهم .. ويتململون ويشكون .. لكن عيسى سالم الأسود كانت تلازمه ابتسامة التفاؤل .. ونظرة الانشراح والارتياح

من عمله الأثري المتحفي العلمي .. يرى ذلك مريحاً وهي ذات المصاعب والمتاعب ومواصلة الرحلات في جوف البوادي والفيافي وأطراف الواحات ، ومصادره ومراجعه قد تكون مطوية تحت الأنقاض والأحجار .

وإذا دخل مكتبة – أو بتعبير آدق – غاص في مكتبة يمشطها تمشيطاً من أرففها العليا قرب السقف إلى آخر درجة في السلم الحلزوني في أرضية المكتبة حتى يضطر إلى الجلوس القرفصاء ارضاً .. وتنحرف أصابعه من رفوف الأدب والشعر والرواية إلى رفوف الدراسات العميقة وتاريخ الشعوب والتطورات الحضارية واللغات والقواميس وكل ما له صلة بالأجناس والناس .. على ظهر الأرض أو في جوفها ، ويهتم بالحرق ، والشقف ، والخزف والفخار ، صلصالاً أو غير صلصال ،

وكما تنحرف أصابعه في رفوف المكتبات عن طريق السهل الى الأصعب والأدسم والأعمق ....

تنحرف ايضاً قدماه عن طريق الملاهي والاسترواح الى طريق المتاحف والكهوف والأقواس والمتربات – تربت يد الجهلاء .

قالوا – ماأتعسه !!

قال – الغير – ماأكثر متاعبه !!

قال آخرون من أكلة « البوريك » والغائصة مرافقهم في وسائد الحرير – خواف الأولين لواه ؟

وقال آخرون من شداة العلم ..

– ترى ماأسعده !!

قال أهله – اشفاقاً .. وحباً .. رفقاً بنفسك .. ورحمة بنا.. وهو إزاء هذا كله لم يتكلم .. لم يتألم .. لم يتململ ..

صمت صمت الدارسين .. ودراساته ومقالاته وتعليقاته قد تقرؤها قلة من الناس .. ويقدرها أقل القليل . قد يكون الدارسون لها .. من وراء الحدود .. أو من وراء الغيب

كان في بدء حياته العملية من المعلمين المؤقتين ، الذين اخذوا في سلك التعليم في عهد الإدارة البريطانية ، وهؤلاء في عهد الإدارة قسمان :—

—إما ان يكون عصامى الثقافة نابغي التكوين صاحب موهبة ورغبة، وعناد وإصرار لتكوين الذاتية وتلافى النقص ، ويشق طريقه رغم الصخور والأشواك والعواصف والأنواء .

أويكون مجرد رقم في خانة .. كثور في ساقية — مع الاعتذار للثور المسكين المظلوم — يجتر عبارات ويلوك كلمات ، ويتأبط كراسات .. وتنحت أصابعه من كثرة الاستهلاك الطباشيري ، ولكن عيسى الاسود مع مجموعة من خيرة شباب تلك المرحلة كان من الصنف الأول عصامى الثقافة عنادى التكوين .. فولاذى الارادة ..

وكان من الشباب القلائل الذين اهتموا بدراسة أنواع من اللغات حتى التى لاتكتب في قراطيس أو لاتلوكها الشفاة الا قليلا .. عرف بجانب اللغة العربية الإنكليزية والإيطالية والبربرية والبونوقية واللاتينية

* * *

أيام مصاولة المؤتمر الوطنى ضد الانكليز والطليان، أيام المطالبة بالحرية والتخلص من سيطرة الادارة الأجنبية .. كانت هناك مفارق طرق .. وتعدد سبل .. انماط في ساحة المواجهة والنضال مع مطالب الشعب —— وانماط خرعة رعديدة ، وأخرى بين بين.. تنتظر أية جهة تنتصر .. وأنكى من هذا كله فريق جنده الطليان للحديث عن مصالحه والدفاع عن عودة الطليان وكونوا أتباعاً .. ورصدوا أموالا .. بل وجعلوا مذيعين في اذاعة «بارى» تسب السعداوى وحزب المؤتمر الوطنى والمطالبين بالحرية وتكوين دولة عربية . وكانت تلك الأصوت من اذاعة الطلاينة والمتطلينين نشازاً . .

وقال أحدهم خاطئاً أو خالطاً .. واشار إلى هذا الاستاذ .. عيسى ...

هذا هو .. مذيع من راديو روما .. وراديو بارى ..
وظننته هو .. وأشحت بوجهى عنه .

ومآفة الأخبار إلاروواتها .. حتى قبل وكالات الانباء ومراسليها:
وتبين انه ليس هو .. بل غيره من الناس .. وحاشا الاستاذ عيسى أن يكون هو المذيع المتطلين .. بل كان وطنياً صادق الحب للوطن .. والذى زعم مشيراً كان مخطئاً ..

وأدركت الحقيقة .. وصارحته واعتذرت له .. ذاكراً قول الله تعالى — « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .. صدق الله العظيم ،وظلت بينى وبينه صداقة يزيدها حبه للعلم والبحث والنقاش متانة وأصالة ،

ودع الحياة فوق طيات السحاب بعيداً محترقا في الأجواء وهو الباحث في جوف الأرض ودهاليز الآثار !!

في يوم ٢١ فبراير ١٩٧٣ احترقت الطائرة الليبية .. اعتدت عليها يد اسرائيل ظلماً وعدواناً .. والطائرة مدنية والضحايا أبرياء .. ثلاثة ومئة من المدنيين الأبرياء .. والتهبت الطائرة فوق أرض سيناء المحتلة !!

كان من بين الضحايا صديقنا وزميلنا صالح مسعود بويصير ، وايضاً الاستاذ عيسى سالم الأسود .. كان في طريقة إلى القاهرة لحضور جلسات لجان الوحدة باعتباره خبيراً في الآثار والمتاحف ،وكان من زملائه شهداء الطائرة عوض مصطفى السعداوية — ومحمد فضيل الميار — وهما من خيرة شباب الوطن وزملائه في العمل والرحلة .

ترك عيسى الاسود زوجة وستة أولاد .. وبضع دراسات ومقالات علمية .. وذكرى طيبة في نفوس أصدقائه وعارفى مواهبه ،وكتب عنه

علماء من الأجانب أمثال – البروفسور « انطونيو دى فيتا » رئيس جامعة مانشيراتا – بأيطاليا – والأستاذ (جوياكيا وتس) بجامعة نابولى بإيطاليا

وكان يعرف الفينيقية واليونانية ولهجة الهجار والطوارق والحروف البائدة ..والزائدة والعائدة وافادته ثقافته الواسعة في دراساته الأثرية وكتاباته في المجلات العلميـة المتخصصة ، سواء في وطنه أو في أوربا ، واشترك في عديد من المؤتمرات ذات الصبغة العلمية الصرفة والاكاديمية المحضة ، في ليبيا او في عواصم بالخارج .

كان ميلاد هذا الاستاذ النابغ بمدينه يفرن إحدى مدن الجبل الغربـى .. جبل نفوسة ..

واطل على مشاهد الحياة عام ١٩٢٨ م ..

ونال دبلوماً في الدراسة وعمل لظروف البلاد وحاجتها للتدريس .. عمل مدرساً عام ١٩٤٩ م ..

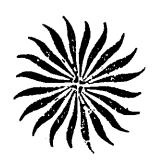
من التدريس انتقل إلى وظيفة إدراية .. سكرتيرا بالـداخليـة ، من عام ١٩٥٣ – ١٩٥٨ م –

وعمل مفتشاً للآثار والحفريات والأبحاث .

ولكفاءته ومقدرته العلمية اختير مرافقاً علمياً للبعثات الأثرية الوافدة إلى ليبيا التى كانت تقوم بالبحث والحفر والتنقيب، وهذا الاحتكاك العلمى أفاد الطر فين .

وفي عامى ١٩٦٣ – ١٩٦٤ م – أوفد في بعثة دراسية إلى روما .. في عام ١٩٧٠ م – عين مديراً لإدارة البحوث الأثرية بطرابلس في مجال نشاطه المتواصل نظم ورتب عمليات وحفريات جميع البعثات الأثرية .. ونظم .. متاحف لبدة . وصبراتة . وقرقاش . وجنزور .. وجرمة . وقورينا .. الخ

وشرع في القيام بحفريات في جميع المواقع الأثرية . وجه اهتمامه إلى الفن الإسلامى وأسهم مساهمة فعالة في إنشاء المتحف الأسلامي القابل للتطور والأمتداد وكان من بين المسئولين عن مجلة « ليبيا القديمة » وهى مجلـــة سنويـــة للآثـــار نشر بهـــا دراسات وعديدا مـــن الترجمات



المشتمل

الموضوع | الصفحة



مؤلفات وتحقيقات

علي مصطفى المصراتي

١ – اعلام من طرابلس — مطبعة ماجي – طرابلس ١٩٥٥

٢ – لمحات أدبية عن ليبيا — المطبعة الحكومية – طرابلس ١٩٥٦

٣ – ابراهيم الاسطى عمر — شاعر في ليبيا

٤ – جحا في ليبيا — دار الكشاف – بيروت ١٩٥٧

مطبعة ماجي – طرابلس ١٩٥٨

٥ – صحافة ليبيا في نصف قرن

دار الكشاف – بيروت ١٩٦٠

٦ – غومة فارس الصحراء — مطبعة الغندور – بيروت ١٩٦٠

٧ – أبو قشة وجريدته في طرابلس

مطبعة الغندور – بيروت ١٩٦١

٨ – المجتمع الليبي من خلال امثاله الشعبية

المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٢

٩ – مرسال مجموعة قصص — المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٣

١٠ – أحمد الشارف – ديوان ودراسة

المكتب التجاري – بيروت ١٩٦٣

١١ ـ ابن حمديس الصقلى ـ اقرا ـ دار المعارف
القاهرة ١٩٦٣

١٢ ـ نفحات النسرين والريحان في تراجم من كان بطرابلس من الاعيان
لاحمد النائب ـ تحقيق ودراسة
المكتب التجارى ـ بيروت ١٩٦٣

١٣ ـ الشراع الممزق ـ قصص ـ دار الكتاب العربي ـ
القاهرة ١٩٦٣

١٤ ـ حفنة من رماد ـ مجموعة قصص مطبعة الغندور ـ بيروت ١٩٦٤

١٥ ـ اسد بن الفرات فاتح صقلية

١٦ ـ سعدون المكتب التجارى ـ بيروت ١٩٦٤

١٧ ـ رحلة الحشائشى إلى ليبيا تحقيق ودراسة
ـ دار لبنان ـ ١٩٦٥

١٨ ـ ديوان مصطفى بن ذكرى تحقيق ودراسة ـ دارلبنان ـ ١٩٦٦

١٩ ـ مجمع الجهلة بيروت ـ ١٩٧٢

٢٠ ـ فنون الادب الشعبى في ليبيا
المطبعة الحكومية طرابلس ـ ١٩٦٦

٢١ ـ ابن غلبون المطبعة الحكومية طرابلس ـ ١٩٦٨

٢٢ ـ ديوان أحمد البهلول ـ تحقيق ودراسة
دار لبنان ـ ١٩٦٧

٢٣ ـ الصلات بين ليبيا وتركيا التاريخية والاجتماعية
المطبعة الحكومية ـ طرابلس ١٩٦٦

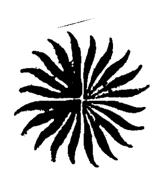
٢٤ ـ مؤرخون من ليبيا مطابع السريعة
الشركة العامة للنشر والتوزيع ١٩٧٧

٢٥ ـ رسائل القليبي بين تونس وطرابلس
الدار العربية للكتاب ١٩٧٦

٢٦ ـ جمال الدين الميلادي مطابع الثورة العربية ـ طرابلس

٢٧ ـ الشمس والغربال ـ مجموعة قصص مطابع الدجوى ـ القاهرة ١٩٧٧

٢٨ ـ نماذج في الظل مطابع الثورة . طرابلس ١٩٧٨



ملحوظة وتهميشة

- حمدى الفنان - ودّع الحياة فى نوفمبر ١٩٧٨م بسببها .
- محمد على الحداد - عمه المناضل محمد الحداد الذى كان مع المجاهد رمضان السويحلى ..
شاهدنا محمد على الحداد فى افتتاح مركز دراسات الجهاد الليبى فى ١١ ديسمبر ١٩٧٨م .. وشاهدناه بتركيا .

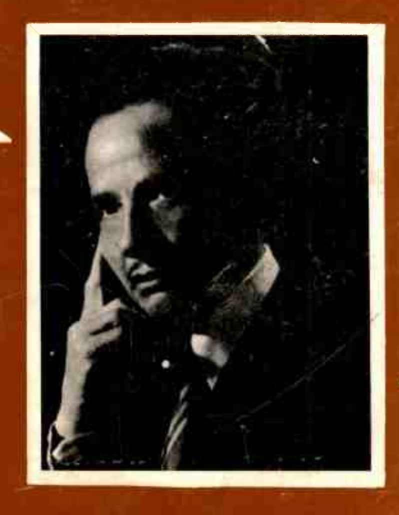
ع . المصراتى

- الرسوم بريشة الفنان فؤاد الكعبازى
- الخطوط للفنان محمود ابراهيم

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem



مطابع عصر الجماهير – الخمس



هذا الكتاب

هذا كتاب فيه طرافة الفن، ورشاقة الأسلوب، وجدية الموضوع. والأستاذ على مصطفى المصراتي أديب كاتب، وباحث دارس، من رواد القصة الليبية، وله مؤلفاته في التاريخ والنقد والتحقيق وفن المقالة الأدبية والسياسية.

وهذا الكتاب فيه نماذج جديرة بالاهتمام والاعتزاز هي من لبنات المجتمع التي أعطت وبذلت ولم يكتب عنها أحد، كاد أن يطويها النسيان والإهمال، فجاء الأستاذ الكاتب المؤلف يزيح عنها الستار ويسلط الأضواء على جوانب من حياتها الأدبية والفنية والوطنية .. ويكتب لنا كعادته بحرارة الصدق، وأسلوبه الفني المتميز .. ويأتي هذا الكتاب بفصوله، لوناً من ألوان التاريخ الاجتماعي والأدبي والفني ..

هذه الصفحات هي مزيج من التاريخ والأدب والفن والذكريات، نماذج منها المهاجر الصادق، والمجاهد المؤمن، والمقرئ المرتل، والأديب والصحفي، والشاعر، والفنان، والمطرب، والعامل الشريف من الذين تصبب عرقهم وتعبت أقدامهم، على الدرب الشائك الطويل ..

كتاب .. هو لون من فنون السير والتراجم جدير بالقراءة والتأمل يضيفه الأستاذ المصراتي إلى جهده الفني المتواصل.

مطابع عصر الجماهير الخمس
دار الحضارة للنشر والتوزيع طرابلس / شارع الفاتح